

شرح المنظوم من الميمية

في
الوصايا والآداب العالمية
للشيخ حافظ بن عبد الحميد الهاشمي

شرحها
عبد الرزاق بن عبد الرحمن البدر

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةِ بَعْضِ الْمُحْسِنِينَ
جَزَاهُمُ اللَّهُ خَيْرًا وَأَعْظَمَ لَهُمُ الْمَثُوبَةَ

شَحْ
الْمَنْظُومَةِ الْمِيمِيَّةِ
فِي
الْوَصَايَا وَالْآدَابِ الْعَامِيَّةِ

حَقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

(ح) عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد البدر، ١٤٣١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحكمي، حافظ أحمد

شرح المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية للشيخ حافظ أحمد الحكمي / حافظ أحمد

الحكمي؛ عبدالرزاق عبد المحسن حمد العباد البدر - الرياض، ١٤٣١ هـ

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٠-٤٨٥٩-٥

١- اللغة العربية - النحو أ. البدر، عبدالرزاق عبد المحسن حمد العباد (مؤلف مشارك)

ب. العنوان

١٤٣١ / ٣٠٤٢

ديوي ١، ٤١٥

رقم الإيداع: ١٤٣١ / ٣٠٤٢

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٠-٤٨٥٩-٥

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ

مركز سطور للدراسات والبحوث

Sutor.center@gmail.com

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة

شارع الفيصلية - خلف الجامعة الإسلامية

الصف والإخراج

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع



daremslm@gmail.com



daremslm



00966532627111

-

00966590960002

شَرْحُ
الْمَنْظُومَةِ الْمَلِيمَةِ
فِي
الْوَصَايَا وَالْآدَابِ الْعِلْمِيَّةِ

للسَّيِّحِ حَافِظِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْحَلَبِيِّ

شَرَحَهَا
عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَصْرِيُّ

تَحْقِيقُ الْأَمَامِ مُسَيِّدِ الْمَعْرِفَةِ

مَرْكَزُ سَيِّدِ الْإِسْلَامِ الْعِلْمِيِّ



تقريظ

فضيلة الشيخ زيد بن محمد بن هادي المدخلي حفظه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن آمن به واتبعه أما بعد :

فعلى الابن الصالح الشيخ / عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر السلام ورحمة الله وبركاته

وأفيدكم بوصول خطابكم الموجّه إليّ ، والذي يحمل في حروفه وجمله التحية الطيبة ، والدعاء الشرعي المبارك الدال على محبتكم الإيمانية الصادقة ، وخلقكم الكريم ، فأسال الله أن يبارك لكم في العلم والعمل والأهل والمال والولد في المحيا والممات ، وكان برفق خطابكم هذا شرحكم الوافي الكافي للمنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية ، وقد طلبتم مني الاطلاع على شرحكم للمنظومة المذكورة ، وقد قرئ عليّ بعضه فأعجبنتي ألفاظ الشرح ، ومعانيه ، وأسلوبه ، وإن الكتاب لجدير بالطبع ، والنشر لما فيه من الخير الكثير لكل سامع وقرأئ .

وإنني لأوصي طلاب العلم باقتنائه بعد طبعه ، والعناية بحفظ القصيدة أو قل المنظومة حفظاً جيداً مع العناية التامة بقراءة الشرح المشتمل على النصوص العظيمة من الكتاب العزيز والسنة الكريمة ، والآثار الماثورة عن أئمة العلم البارزين ذات الفوائد المأخوذة من نصوص الوحي المبين .

فجزيت خيراً يا بنيّ على ما بذلت من جهد كبير في نشر النظم بما اتفق معه في الأسلوب والمعاني والأهداف ، وكان الله في عونكم ، وعون كل ناصح لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم .

وتقبلوا تحيات والدكم زيد بن محمد بن هادي المدخلي ، وسلموا لي على والدكم العزيز الذي بذل لنا الكثير من مؤلفاته التي أسأل الله أن ينفع بها قارئها ، وسامعها ، وأن يثيبه عليها الثواب الجزيل ، إنه حسبنا ونعم الوكيل .

التوقيع
زيد بن محمد بن هادي المدخلي
١٩/١١/١٤٣١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، أَمَّا بَعْدُ:

فهذه منظومة طيبة نافعة مباركة للعلامة الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ، ضَمَّنَهَا جُمْلَةً مِنَ الْوَصَايَا الْعَظِيمَةِ وَالْآدَابِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا طَالِبُ الْعِلْمِ.

وقدَّم قبل ذلك بياناً وافياً لمكانة العلم الرفيعة ومنزلته الشريفة، وساق في نظمه البديع جملةً من الأبيات أشار فيها إلى الآيات الكريبات والأحاديث عن رسول الله ﷺ في بيان مكانة العلم وفضله ومنزلته.

وكذلك ضَمَّنَ هذه المنظومة ما ينبغي أن يُعْنَى بِهِ طَالِبُ الْعِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ، وَذَكَرَ الْعُلُومَ وَالتَّدرِجَ فِيهَا، وَطَرِيقَةَ التَّلَقِّي، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ، وَالَّتِي سَمَّاها رَحِمَهُ اللَّهُ: «المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية» قال عنها تلميذه الشيخ زيد بن محمد بن هادي المدخلي: «وهي منظومة عظيمة النفع جمّة الفوائد، تحمل في جملها التربية الإسلامية الأصيلة

وتحثُّ على بذل الجهد في طلب العلم الشرعي الشريف وترغب فيه، وتدعو إلى الإخلاص فيه وإلى تعليمه والدعوة إليه، وقد دُلِّلَ فيها رَحِمَهُ اللهُ عَلَى صِحَّةِ ما قال براهين قاطعة وأدلة صائبة واضحة^(١).

وقد طُبعت أولى طبعاتها في حياته رَحِمَهُ اللهُ عام (١٣٧٣هـ)، وكانت وفاته رَحِمَهُ اللهُ عام (١٣٧٧هـ)، ثمَّ بعد ذلك طُبعت طبعات عديدة، ولا أعلم لها إلى هذه الساعة شرحًا مطبوعًا.

وهي منظومة حافلة بالمعاني العظيمة والآداب الكريمة والأخلاق الفاضلة التي هي جمال المسلم وحلية طالب العلم.

وحريٌّ بكلِّ طالب علم أن يُعنى بهذه المنظومة؛ إن تيسَّر له أن يحفظها، فهذا خيرٌ عظيمٌ، وإن لم يتيسَّر الحفظ؛ فليقرأها مرَّات عديدة حتَّى تكون أشبه بالمحفوظ مع العناية بفهم معاني الأبيات ومعرفة دلائلها وشواهداها، ثم تتويج ذلك بالعمل الذي هو مقصود العلم، وأرجو الله الكريم عزَّ وجلَّ أن يجعل في هذا الشرح ما يعين على تحقيق ذلك - مع الإقرار بالقصور والتقصير - وقد كان شرحي هذا في أصله دروسًا أُمليتها في دورة علمية أُقيمت في المدينة النبوية تمَّ تفرُّغها من الأشرطة ثمَّ عملتُ على تنقيحها وتهذيبها بما تيسَّر والله الحمد أولاً وآخراً، والمرجو منه سبحانه الرِّضا والقبول، وأن يبارك في هذا الجهد وأن يجعله لوجهه خالصًا ولعباده نافعًا إنَّه جوادٌ كريمٌ.

(١) «الشيخ حافظ الحكمي حياته وجهوده العلمية والعملية» للشيخ زيد بن محمد بن هادي المدخلي (ص ٤٧).

ولا يفوتني هنا أن أشكر والدنا الكريم صاحب الفضيلة الشيخ الوقور
والعالم الجليل زيد بن محمد بن هادي المدخلي المعروف بوفائه وبرّه بشيخه
الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللهُ عَلَى تَكْرُمِهِ بِالاطَّلَاعِ عَلَى هَذَا الشَّرْحِ وَالتَّقْرِيزِ
لَهُ، فَشَكَرَ اللهُ مَسْعَاهُ وَأَثَابَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ وَبَارَكَ فِي حَيَاتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَأَسْأَلُ اللهَ
أَنْ يَغْفِرَ لِلشَّيْخِ حَافِظٍ وَأَنْ يَرْحَمَهُ وَأَنْ يَجْزِيَهُ عَنْ طَلَّابِ الْعِلْمِ خَيْرَ الْجَزَاءِ وَأَنْ
يَرْفَعَ دَرَجَتَهُ فِي عِلِّيِّينَ، كَمَا أَسْأَلُهُ أَنْ يَثِيبَ كُلَّ مَنْ أَعَانَ فِي ضَبْطِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ
وَتَدْقِيقِهَا^(١)، وَتَصْحِيحِ شَرْحِهَا وَتَنْقِيحِهَا، وَأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا أَجْمَعِينَ
بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنْ يَعْلَمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا عَلَّمَنَا،
وَأَنْ يَزِيدَنَا عِلْمًا، وَأَنْ يَجْعَلَ مَا نَتَعَلَّمُهُ حِجَّةً لَنَا لَا عَلَيْنَا، وَأَنْ يَبَارِكَ فِي هَذِهِ
الْمَنْظُومَةِ وَشَرْحِهَا، إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.
وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

وكتب

عبد الرحمن بن عبد الرحمن البدر

غفر الله له وعفا عنه

المدينة النبوية ١٤٣٠/١١/٦ هـ

(١) وقد استفدت كثيراً من ذوي الاختصاص في اللغة والعروض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية

للشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١)

- ١- الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى
- ٢- ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ الـ
- ٣- مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ مَا لَا يَعْلَمُونَ وَبِالـ
- ٤- ثَمَّ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُخْتَارِ أَكْرَمَ مَبـ
- ٥- وَالْآلِ وَالصَّحْبِ وَالْأَتْبَاعِ قَاطِبَةً
- ٦- مَا لَاحَ نَجْمٌ وَمَا شَمْسٌ ضُحَى طَلَعَتْ
- ٧- وَبَعْدَ مَنْ يُرِدُ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِهِ
- ٨- وَحَثَّ رَبِّي وَحَضَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
- ٩- وَامْتَنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ الْعِبَادِ وَكُلـ
- ١٠- يَكْفِيكَ فِي ذَاكَ أُولَى سُورَةٍ نَزَلَتْ
- ١١- كَذَاكَ فِي عِدَّةِ الْآلَاءِ قَدَّمَ
- ١٢- وَمَيَّزَ اللَّهُ حَتَّى فِي الْجَوَارِحِ مَا
- ١٣- وَذَمَّ رَبِّي تَعَالَى الْجَاهِلِينَ بِهِ
- ١٤- وَلَيْسَ غِبْطَةً إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ هُمَا الـ
- ١٥- وَمِنْ صِفَاتِ أُولَى الْإِيمَانِ نَهَمَتْهُمُ
- الْآئِيهِ وَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالنَّعَمِ
- بِرَّ الْمَهْيَمِينَ مُبْدِي الْخَلْقِ مِنْ عَدَمِ
- بَيَانِ أَنْطَقَهُمْ وَالْحَطَّ بِالْقَلَمِ
- عُوثٍ يَخِيرُ هُدًى فِي أَفْضَلِ الْأُمَمِ
- وَالْتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ لِنَهْجِهِمِ
- وَعَدَّ أَنْفَاسٍ مَا فِي الْكُونِ مِنْ نَسَمِ
- خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي دِينِهِ الْقِيمِ
- تَفَقُّهُ الدِّينِ مَعَ إِنْذَارِ قَوْمِهِمِ
- لِ الرُّسُلِ بِالْعِلْمِ فَادْكُرْ أَكْبَرَ النَّعَمِ
- عَلَى نَبِيِّكَ أَغْنَى سُورَةَ الْقَلَمِ
- ذِكْرًا وَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النَّعَمِ
- مِنْهَا يُعَلِّمُ عَنْ بَاغٍ وَمُغْتَشِمِ
- أَشَدَّ ذَمٍّ فَهُمْ أَدْنَى مِنَ الْبَهَمِ
- إِحْسَانُ فِي الْمَالِ أَوْ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكَمِ
- فِي الْعِلْمِ حَتَّى اللَّقَى أَعْطَى بِذِي التَّهَمِ

(١) من أراد سماع هذه المنظومة بقراءة موافقة لهذا الصُّبْط يمكنه الدُّخُولُ عَلَى الرَّابِطِ التَّالِي:

<http://www.al-badr.net/qiroah-al-mimiyah.php>

- ١٦- الْعِلْمُ أَعْلَى وَأَحْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ
 ١٧- الْعِلْمُ غَايَتُهُ الْقُصْوَى وَرُتْبَتُهُ الْـ
 ١٨- الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ
 ١٩- الْعِلْمُ نَوْرٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ
 ٢٠- الْعِلْمُ أَعْلَى حَيَاةٍ لِلْعِبَادِ كَمَا
 ٢١- لَا سَمْعَ لَا عَقْلَ بَلْ لَا يُبْصِرُونَ وَفِي السَّـ
 ٢٢- فَالْجَهْلُ أَضْلُ ضَلَالِ الْخَلْقِ قَاطِبَةً
 ٢٣- وَالْعِلْمُ أَضْلُ هُدَاهُمْ مَعَ سَعَادَتِهِمْ
 ٢٤- وَالْخَوْفُ بِالْجَهْلِ وَالْخُزْنُ الطَّوِيلُ بِهِ
 ٢٥- الْعِلْمُ وَاللَّهُ مِيرَاثُ الثُّبُوءِ لَا
 ٢٦- لِأَنَّهُ إِزْتُ حَقٌّ دَائِمٌ أَبَدًا
 ٢٧- وَمِنْهُ إِزْتُ سُلَيْمَانَ الثُّبُوءِ وَالـ
 ٢٨- كَذَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ بِوَلِيِّ
 ٢٩- الْعِلْمُ مِيزَانُ شَرْعِ اللَّهِ حَيْثُ بِهِ
 ٣٠- وَكَلَّمَا ذُكِرَ السُّلْطَانُ فِي حُجَجٍ
 ٣١- فَسُلْطَةُ الْيَدِ بِالْأَبْدَانِ قَاصِرَةٌ
 ٣٢- وَسُلْطَةُ الْعِلْمِ تَنْقَادُ الْقُلُوبُ لَهَا
 ٣٣- وَيَذْهَبُ الدِّينُ وَالْدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْـ
 ٣٤- الْعِلْمُ يَا صَاحِبِ يَسْتَغْفِرُ لِصَاحِبِهِ
 ٣٥- كَذَاكَ تَسْتَغْفِرُ الْخَيْتَانُ فِي لُجَجٍ
 ٣٦- وَخَارِجٌ فِي طِلَابِ الْعِلْمِ مُحْتَسِبًا
 ٣٧- وَإِنَّ أَجْنَحَةَ الْأَمْلاِكِ تَبْسُطُهَا
 ٣٨- وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْعِلْمِ يَسْلُكُهُمْ
 ٣٩- وَالسَّامِعُ الْعِلْمَ وَالْوَاعِي لِيَحْفَظْهُ
 ٤٠- فَيَا نَضَارَتَهُ إِذْ كَانَ مُتَّصِفًا
- أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ يَفْهَمُ
 عَلِيَاءُ فَاسْعَوْا إِلَيْهِ يَا أُولِي الْهَمَمِ
 لِلَّهِ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
 أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالْجَهَّالُ فِي الظُّلَمِ
 أَهْلُ الْجَهَالَةِ أَمْوَاتٌ بِجَهْلِهِمْ
 سَعِيرٌ مُعْتَرِفٌ كُلُّ بِدَنِّهِمْ
 وَأَضْلُ شَقَوَتِهِمْ طَرًّا وَظُلْمِهِمْ
 فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ذُوو الْحِكَمِ
 وَعَنْ أُولِي الْعِلْمِ مَنْفِيَّانِ فَاعْتَصِمِ
 مِيرَاثُ يُشَبِّهُهُ طُوبَى لِمُقْتَسِمِ
 وَمَا سِوَاهُ إِلَى الْإِفْنَاءِ وَالْعَدَمِ
 فَضْلُ الْمُبِينِ فَمَا أَوْلَاهُ بِالنَّعَمِ
 أَلَالَ خَوْفِ الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِهِمْ
 قِوَامُهُ وَبِدُونِ الْعِلْمِ لَمْ يَقُمْ
 فَالْعِلْمُ لَا سُلْطَةَ الْأَيْدِي لِمُحْتَكِمِ
 تَكُونُ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالظُّلْمِ وَالْعَشَمِ
 إِلَى الْهُدَى وَإِلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ
 عِلْمُ الَّذِي فِيهِ مَنْجَاةٌ لِمُعْتَصِمِ
 أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مَنْ لَمْ
 مِنَ الْبَحَارِ لَهُ فِي الضُّوْءِ وَالظُّلَمِ
 مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيُّ كَمِي
 لِطَالِبِيهِ رَضَى مِنْهُمْ بِصُنْعِهِمْ
 إِلَى الْجِنَانِ طَرِيقًا بَارِئُ النَّسَمِ
 مُؤَدِّيًا نَاشِرًا إِيَّاهُ فِي الْأُمَمِ
 بِذَا بَدْعُوهُ خَيْرُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ

- ٤١- كَفَاكَ فِي فَضْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ رُفِعُوا
 ٤٢- وَكَانَ فَضْلُ أَبِيْنَا فِي الْقَدِيمِ عَلَى الْ-
 ٤٣- كَذَاكَ يَوْسُفُ لَمْ تَظْهَرْ فَضِيلَتُهُ
 ٤٤- وَمَا اتَّبَاعُ كُلِّمِ اللَّهِ لِلْخَضِرِ الْ-
 ٤٥- مَعُ فَضْلِهِ بِرِسَالَاتِ الْإِلَهِ لَهُ
 ٤٦- وَقَدَّمَ الْمُصْطَفَى بِالْعِلْمِ حَامِلَهُ
 ٤٧- كَفَاهُمُ أَنْ غَدَوْا لِلْوَحْيِ أَوْعِيَةً
 ٤٨- وَأَنْ غَدَوْا وَكَلَاءَ فِي الْقِيَامِ بِهِ
 ٤٩- وَخَصَّهُمْ رَبُّنَا قَضْرًا بِخَشْيَتِهِ
 ٥٠- وَمَعُ شَهَادَتِهِ جَاءَتْ شَهَادَتُهُمْ
 ٥١- وَيَشْهَدُونَ عَلَى أَهْلِ الْجَهَالَةِ بِالْ-
 ٥٢- وَالْعَالِمُونَ عَلَى الْعَبَادِ فَضْلُهُمْ
 ٥٣- وَعَالِمٌ مِنْ أُولِي التَّقْوَى أَشَدُّ عَلَى الْ-
 ٥٤- وَمَوْتُ قَوْمٍ كَثِيرُوا الْعَدَّ أَيْسَرُ مِنْ
 ٥٥- كَمَا مَنَافِعُهُ فِي الْعَالَمِ اتَّسَعَتْ
 ٥٦- تَاللَّهِ لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا لَمَا فَرَحُوا
 ٥٧- هُمْ الرُّجُومُ بِحَقِّ كُلِّ مُسْتَرَقٍّ
 ٥٨- لِأَنَّهُا لِكَلَا الْجِنْسَيْنِ صَائِبَةٌ
 ٥٩- هُمْ الْهُدَاةُ إِلَى أَهْدَى السَّبِيلِ وَأَهْلُ
 ٦٠- وَفَضْلُهُمْ جَاءَ فِي نَصِّ الْكِتَابِ وَفِي الْ-
- مِنْ أَجْلِهِ دَرَجَاتٍ فَوْقَ غَيْرِهِمْ
 أُمَلَّاكَ بِالْعِلْمِ مِنْ تَعْلِيمِ رَبِّهِمْ
 لِلْعَالَمِينَ بِغَيْرِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمِ
 مَعْرُوفٍ إِلَّا لِعِلْمٍ عَنْهُ مُنْبِهِمْ
 وَمَوْعِدٍ وَسَمَاعٍ مِنْهُ لِلْكَلِمِ
 أَعْظَمَ بِذَلِكَ تَقْدِيمًا لِذِي قَدَمٍ
 وَأُضْحَتْ الْآيُ مِنْهُ فِي صُدُورِهِمْ
 قَوْلًا وَفِعْلًا وَتَعْلِيمًا لغيرِهِمْ
 وَعَقْلٍ أَمْثَالِهِ فِي أَصْدَقِ الْكَلِمِ
 حَيْثُ اسْتَجَابُوا وَأَهْلُ الْجَهْلِ فِي صَمٍ
 مَوْلَى إِذَا اجْتَمَعُوا فِي يَوْمٍ حَشَرِهِمْ
 كَالْبَدْرِ فَضْلًا عَلَى الدَّرِّيِّ فَاعْتَنِمِ
 شَيْطَانٍ مِنْ أَلْفِ عِبَادٍ يَجْمَعُهُمْ
 حَبْرٌ يَمُوتُ مُصَابٌ وَاسِعُ الْأَلَمِ
 وَلِلشَّيَاطِينِ أَفْرَاحٌ بِمَوْتِهِمْ
 لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ حَتْفِهِمْ
 سَمْعًا كَشْهَبِ السَّمَاءِ أَعْظَمَ بِشْهَبِهِمْ
 شَيْطَانِ إِنْسٍ وَجِنٍّ دُونَ بَعْضِهِمْ
 لُ الْجَهْلِ عَنْ هَدْيِهِمْ صَلُّوا لِجَهْلِهِمْ
 حَدِيثِ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمِ

نبذة في وصية طالب العلم

- ٦١- يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا
 ٦٢- وَقَدِّسِ الْعِلْمَ وَاعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ
- فَقَدْ ظَفِرْتَ وَرَبَّ اللَّوْجِ وَالْقَلَمِ
 فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْآدَابِ فَالْتَزِمِ

٦٣- وَاجْهَدْ بِعَزْمٍ قَوِيٍّ لَا انْتِثَاءَ لَهُ
 ٦٤- وَالتَّصَحَّحْ فَأَبْذُلْهُ لِلطُّلَابِ مُحْتَسِبًا
 ٦٥- وَمَرْحَبًا قُلْ لِمَنْ يَأْتِيكَ يَطْلُبُهُ
 ٦٦- وَالنِّيَّةُ اجْعَلْ لَوَجْهِ اللَّهِ خَالِصَةً
 ٦٧- وَمَنْ يَكُنْ لِيَقُولَ النَّاسُ يَطْلُبُهُ
 ٦٨- وَمَنْ بِهِ يَبْتَغِي الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ
 ٦٩- كَفَى بِهِ (مَنْ كَانَ) فِي شُورَى وَهُودٍ وَفِي الدِّ
 ٧٠- إِيَّاكَ وَاحْذَرْ مُرَارَةَ السَّفِيهِ بِهِ
 ٧١- فَإِنَّ أَبْغَضَ كُلِّ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ
 ٧٢- وَالْعُجْبَ فَاحْذَرُهُ إِنَّ الْعُجْبَ مُجْتَرِفٌ
 ٧٣- وَبِالْمُهْمِّ الْمُهْمِّ ابْدَأْ لِتُدْرِكَهُ
 ٧٤- قَدَّمَ وَجُوبًا عُلُومَ الدِّينِ إِنَّ بِهَا
 ٧٥- وَكُلَّ كَسْرٍ الْفَقَى فَالِدِّينُ جَابِرُهُ
 ٧٦- دَعُ عَنْكَ مَا قَالَهُ الْعَصْرِيُّ مُنْتَحِلًا
 ٧٧- مَا الْعِلْمُ إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ أَوْ أَثَرُ
 ٧٨- مَا تَمَّ عِلْمٌ سِوَى الْوَحْيِ الْمُبِينِ وَمَا
 ٧٩- وَالْكَتْمُ لِلْعِلْمِ فَاحْذَرْ إِنَّ كَاتِمَهُ
 ٨٠- وَمِنْ عَقُوبَتِهِ أَنْ فِي الْمَعَادِ لَهُ
 ٨١- وَصَائِنُ الْعِلْمِ عَمَّنْ لَيْسَ يَحْمِلُهُ
 ٨٢- وَإِنَّمَا الْكَتْمُ مَنَعُ الْعِلْمِ طَالِبُهُ
 ٨٣- وَأَتَّبِعِ الْعِلْمَ بِالْأَعْمَالِ وَادْعُ إِلَى
 ٨٤- وَاصْبِرْ عَلَى لَاحِقٍ مِنْ فِتْنَةٍ وَأَدَى
 ٨٥- لَوَاحِدٌ بِكَ يَهْدِيهِ إِلَهُ لَذَا
 ٨٦- وَاسْلُكْ سَوَاءَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا

لَوْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ قَدْرَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْمِ
 فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ وَالْأُسْتَاذَ فَاحْتَرِمَ
 وَفِيهِمْ أَحْفَظْ وَصَايَا الْمُصْطَفَى بِهِمْ
 إِنَّ الْبِنَاءَ بَدُونِ الْأَصْلِ لَمْ يَقُمْ
 أَخْسِرُ بِصَفَقَتِهِ فِي مَوْقِفِ النَّدَمِ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَظٍّ وَلَا قَسَمِ
 إِسْرَاءِ مَوْعِظَةٍ لِلْحَاذِقِ الْفَهْمِ
 كَذَا مُبَاهَاةَ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا تَرُمُ
 إِلَى الْإِلَهِ أَلَدَّ النَّاسِ فِي الْخِصَمِ
 أَعْمَالٌ صَاحِبِهِ فِي سَبِيلِهِ الْعَرَمِ
 وَقَدَّمَ النَّصَّ وَالْأَرَاءَ فَاتَّبِعْهُمْ
 يَبِينُ نَهْجُ الْهُدَى مِنْ مُوجِبِ التَّقَمِّ
 وَالْكَسْرُ فِي الدِّينِ صَعْبٌ غَيْرُ مُلْتَمِّ
 وَبِالْعَتِيقِ تَمَسَّكَ قَطُّ وَاعْتَصِمِ
 يَجْلُو بِنُورٍ هُدَاهُ كُلُّ مُنْبَهَمِ
 مِنْهُ اسْتُمِدَّ أَلَا طُوبَى لِمُعْتَمِنِ
 فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ
 مِنَ الْجَحِيمِ لِحَامًا لَيْسَ كَاللُّجَمِ
 مَاذَا بِكِتْمَانٍ بَلْ صَوْنٌ فَلَا تَلَمِ
 مِنْ مُسْتَحِقٍّ لَهُ فَافْهَمْ وَلَا تَهَمِ
 سَبِيلَ رَبِّكَ بِالتَّبَيُّانِ وَالْحِكْمِ
 فِيهِ وَفِي الرُّسُلِ ذِكْرَى فَافْتَدِهِ بِهِمْ
 خَيْرٌ غَدًا لَكَ مِنْ حُمْرٍ مِنَ التَّعَمِّ
 تَعَدِلْ وَقُلْ رَبِّي الرَّحْمَنُ وَاسْتَقِمِ

الوصية بكتاب الله ﷻ

- ٨٧- وَبِالتَّذَبُّرِ وَالتَّرْتِيلِ فَاتْلُ كِتَابَ
 ٨٨- حَكِّمْ بَرَاهِينَهُ وَاعْمَلْ بِمُحْكَمِهِ
 ٨٩- وَاطْلُبْ مَعَانِيَهُ بِالتَّقْلِ الصَّرِيحِ وَلَا
 ٩٠- فَمَا عَلِمْتَ بِمَخْضِ التَّقْلِ مِنْهُ فَقُلْ
 ٩١- ثُمَّ الْمِرَا فِيهِ كُفِّرْ فَاحْذَرْنَهُ وَلَا
 ٩٢- وَعَنْ مَنَاهِيهِ كُنْ يَا صَاحِبَ مُنْزَجِرٍ
 ٩٣- وَمَا نَشَابَهُ فَوِّضْ لِإِلَهِ وَلَا
 ٩٤- وَلَا تَطْعُ قَوْلَ ذِي زِيغٍ يُزْخِرْفُهُ
 ٩٥- حَيْرَانَ ضَلَّ عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ فَلَا
 ٩٦- هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي مَنْ قَامَ يَقْرُؤُهُ
 ٩٧- هُوَ الصَّرَاطُ هُوَ الْحَبْلُ الْمَتِينُ هُوَ الْ
 ٩٨- هُوَ الْبَيَانُ هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ هُوَ الشَّ
 ٩٩- هُوَ الْبَصَائِرُ وَالذِّكْرَى لِمَذَكِّرِ
 ١٠٠- هُوَ الْمُنْزَلُ نُورًا بَيْنًا وَهُدًى
 ١٠١- لِكِتَابِهِ لِأُولِي الْإِيمَانِ إِذْ عَمِلُوا
 ١٠٢- أَمَّا عَلَى مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ فَهُوَ عَمَى
 ١٠٣- فَمَنْ يَقْمُهُ يَكُنْ يَوْمَ الْمَعَادِ لَهُ
 ١٠٤- كَمَا يَسُوقُ أُولِي الْإِعْرَاضِ عَنْهُ إِلَى
 ١٠٥- وَقَدْ أَتَى النَّصُّ فِي الطُّوَلَيْنِ أَتَاهُمَا
 ١٠٦- وَأَنَّهُ فِي غَدٍ يَأْتِي لِصَاحِبِهِ
 ١٠٧- وَالْمُلْكُ وَالْخُلْدُ يُعْطِيهِ وَيُلْبِسُهُ
 ١٠٨- يُقَالُ اقْرَأْ وَرَتِّلْ وَارْقُ فِي غُرْفِ الْ
- بَ اللَّهُ لَا سِيَّما فِي حِنْدِسِ الظَّلَمِ
 جَلًّا وَحَظْرًا وَمَا قَدْ حَدَّهُ أَقِمِ
 تَخَضُّ بِرَأْيِكَ وَاحْذَرْ بَطْشَ مُنْتَقِمِ
 وَكُلْ إِلَى اللَّهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْزَغٍ بِهِمْ
 يَسْتَهْوِينَكَ أَقْوَامٌ بِزَيغِهِمْ
 وَالْأَمْرَ مِنْهُ بَلَا تَرْدَادٍ فَالْتَزِمِ
 تَخَضُّ فَخَوْضُكَ فِيهِ مُوجِبُ النَّقِمِ
 مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ فِي الدِّينِ مُتَّهِمِ
 يَنْفُكُ مُنْحَرِفًا مُعَوِّجَ لَمْ يَقُمْ
 كَأَنَّمَا خَاطَبَ الرَّحْمَنَ بِالْكَلِمِ
 مِيزَانُ وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى لِمُعْتَصِمِ
 تَفْصِيلُ فَاقْنَعْ بِهِ فِي كُلِّ مُنْزَغٍ بِهِمْ
 هُوَ الْمَوَاعِظُ وَالْبُشْرَى لِعَبْرِ عَمِي
 وَهُوَ الشِّفَاءُ لِمَا فِي الْقَلْبِ مِنْ سَقَمِ
 بِمَا أَتَى فِيهِ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكْمِ
 لِكُونِهِ عَنْ هُدَاهُ الْمُسْتَنْزِعِ عَمِي
 خَيْرَ الْإِمَامِ إِلَى الْفِرْدَوْسِ وَالتَّعَمِ
 دَارِ الْمَقَامِ وَالْأَنْكَالِ وَالْأَلَمِ
 ظِلًّا لِتَالِيهِمَا فِي مَوْقِفِ الْعَمَمِ
 مُبَشِّرًا وَحَاجِبًا عَنْهُ إِنْ يَقُمْ
 تَاجَ الْوَقَارِ الْإِلَهُ الْحَقُّ ذُو الْكَرَمِ
 جَنَّتْ كَيْ تَنْتَهِيَ لِلْمَنْزِلِ التَّعَمِ

١٠٩- وَحُلَّتَانِ مِنَ الْفِرْدَوْسِ قَدْ كُسِيَتْ
 ١١٠- قَالَا بِمَاذَا كُسِينَاهَا فَقِيلَ بِمَا
 ١١١- كَفَى وَحَسْبُكَ بِالْقُرْآنِ مُعْجِزَةً
 ١١٢- لَمْ يَغْتَرِهْ قَطُّ تَبْدِيلٌ وَلَا غَيْرٌ
 ١١٣- مُهِمِّنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ
 ١١٤- فِيهِ التَّفَاصِيلُ لِلْأَحْكَامِ مَعَ نَبَأٍ
 ١١٥- فَانْظُرْ قَوَارِعَ آيَاتِ الْمَعَادِ بِهِ
 ١١٦- وَانْظُرْ بِهِ شَرْحَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ هَلْ
 ١١٧- أَمْ مِنْ صِلَاحٍ وَلَمْ يَهْدِ الْأَنَامَ لَهُ
 ١١٨- أَمْ كَانَ يُغْنِي نَقِيرًا عَنْ هِدَايَتِهِ
 ١١٩- أَخْبَارُهُ عِظَّةٌ أَمْثَالُهُ عِبْرٌ
 ١٢٠- لَمْ تَلْبَثِ الْجَنُّ إِذْ أَصْغَتْ لِتَسْمَعَهُ
 ١٢١- اللَّهُ أَكْبَرُ مَا قَدْ حَازَ مِنْ عِبَرٍ
 ١٢٢- وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِذْ أُعِيَتْ بِلَاغَتُهُ
 ١٢٣- كَمْ مُلْحِدٍ رَامَ أَنْ يُبْدِيَ مُعَارَضَةً
 ١٢٤- هِيَئَاتَ بُعْدًا لِمَا رَامُوا وَمَا قَصَدُوا
 ١٢٥- خَابَتْ أَمَانِيَهُمْ شَاهَتْ وَجُوهُهُمْ
 ١٢٦- كَمْ قَدْ تَحَدَّى قَرِيشًا فِي الْقَدِيمِ وَهُمْ
 ١٢٧- بِمِثْلِهِ وَبِعَشْرٍ ثُمَّ وَاحِدَةٍ
 ١٢٨- الْجَنُّ وَالْإِنْسُ لَمْ يَأْتُوا لَوْ اجْتَمَعُوا
 ١٢٩- أَنَّى وَكَيْفَ وَرَبُّ الْعَرْشِ قَائِلُهُ
 ١٣٠- مَا كَانَ خَلْقًا وَلَا فَيْضًا تَصَوَّرَهُ
 ١٣١- بَلْ قَالَهُ رَبُّنَا قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ
 ١٣٢- وَاللَّهُ يَشْهَدُ وَالْأَمْلاكُ شَاهِدَةٌ

لَوَالِدَيْهِ لَهَا الْأَكْوَانُ لَمْ تَقُمْ
 أَفْرَأْتُمَا ابْنَكُمَا فَاشْكُرْ لِيذِي النَّعَمِ
 دَامَتْ لَدَيْنَا دَوَامًا غَيْرَ مُنْصَرِمٍ
 وَجَلَّ فِي كَثْرَةِ التَّرَادِدِ عَنْ سَأَمٍ
 مُصَدِّقًا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ فِي الْقِدَمِ
 عَمَّا سَيَأْتِي وَعَنْ مَاضٍ مِنَ الْأُمَمِ
 وَانْظُرْ لِمَا قَصَّ عَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمٍ
 تَرَى بِهَا مِنْ عَوِيصٍ غَيْرِ مُنْفَصِمٍ
 أَمْ بِأَبٍ هُلِكٍ وَلَمْ يَزْجُرْ وَلَمْ يَلْمِ
 جَمِيعُ مَا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ نُظْمٍ
 وَكُلُّهُ عَجَبٌ سُحْفًا لِيذِي صَمَمٍ
 أَنْ بَادَرُوا نُذْرًا مِنْهُمْ لِقَوْمِهِمْ
 وَمِنْ بَيَانٍ وَإِعْجَازٍ وَمِنْ حِكْمٍ
 وَحُسْنِ تَرْكِيبِهِ لِلْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
 فَعَادَ بِالذَّلِّ وَالْخُسْرَانِ وَالرَّعَمِ
 وَمَا تَمَنَّوْا لَقَدْ بَاؤُوا بِذَلِّهِمْ
 زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ هَدْيِهِ الْقِيمِ
 أَهْلُ الْبَلَاغَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
 فَلَمْ يَرَوْمُوهُ إِذْ ذَا الْأَمْرِ لَمْ يُرَمِ
 بِمِثْلِهِ وَلَوْ انْضَمُّوا لِمِثْلِهِمْ
 سُبْحَانَهُ جَلَّ عَنْ شِبْهِهِ لَهُ وَسَمِي
 نَبِيْنَا لَا وَلَا تَعْبِيرَ ذِي نَسَمِ
 وَحَيَّا عَلَى قَلْبِهِ الْمُسْتَيْقِظَ الْفَهْمِ
 وَالرُّسُلَ مَعَ مُؤْمِنِي الْعُرْبَانِ وَالْعَجَمِ

الوصية بالسنة

- ١٣٣- ارؤِ الحديثَ ولازمِ أهلهُ فهمُ النـ
١٣٤- سامتِ منابرهمُ وأحملِ محابرهمُ
١٣٥- اسلكُ منارهمُ والزِمِ شعارهمُ
١٣٦- همُ العدولُ لحملِ العلمِ كيفَ وهمُ
١٣٧- همُ الأفاضلُ حازوا خيرَ منقبةٍ
١٣٨- همُ الجهابذةُ الأعلامُ تعرفهمُ
١٣٩- همُ ناصرُ الدينِ والحامونَ حوزتهُ
١٤٠- همُ البدورُ ولكن لا أقولَ لهمُ
١٤١- لم يبقَ للشمسِ من نورٍ إذا أفلت
١٤٢- لهمُ مقامٌ رفيعٌ ليس يدركه
١٤٣- أبلغِ محجَّتِهمُ أرجحِ بكفَّتِهمُ
١٤٤- كفاهمُ شرفاً أن أصبحوا خلفاً
١٤٥- يُحيونَ سنتَهُ من بعدهِ فلهمُ
١٤٦- يروونَ عنه أحاديثَ الشريعةِ لا
١٤٧- ينفونَ عنها انتحالَ المبطلينَ وتحـ
١٤٨- أدوا مقاتلتهُ نصحاً لأمتهِ
١٤٩- لم يلههمُ قطُّ من مالٍ ولا حوْلٍ
١٥٠- هذا هو المجدُ لا مُلكٌ ولا نسبٌ
١٥١- فكلُّ مجدٍ وضيعٌ عندَ مجدهمُ
١٥٢- والأمنُ والثورُ والفوزُ العظيمُ لهمُ
١٥٣- فإن أردتَ رقيّاً نحو رُتبَتِهمُ
١٥٤- فاعمدُ إلى سُلَمِ التقوى الذي نصبوا
- ساجونَ نصّاً صريحاً للرّسولِ نبي
والزِمِ أكابرهمُ في كلِّ مُزدحمٍ
واحظُ رجالَكَ إن تنزلَ بسوحيهم
أولو المكارمِ والأخلاقِ والشيمِ
همُ الألى بهمُ الدينُ الحنيفُ حمي
بينَ الأنامِ بسيمَاهمُ ووسمِهم
منَ العدوِّ بجيشٍ غيرِ مُنهزمٍ
بلِ الشُّموسُ وقد فاقوا بنورهم
ونورهمُ مُشرقٌ من بعدِ رمسِهم
منَ العبادِ سوى الساعي كسغيهم
في الفضلِ إن قستهمُ وزناً بغيرهم
لسيّدِ الخنفا في دينهِ القيمِ
أولى بهِ من جميعِ الخلقِ كلهم
يألونَ حفظاً لها بالصّدرِ والقلمِ
ريفَ الغلاةِ وتأويلَ العويّ اللئيمِ
صانوا روايتَها عن كلِّ مُتهمٍ
ولا ابتياعٍ ولا حرثٍ ولا نعيمٍ
كلّا ولا الجمعُ للأموالِ والخدمِ
وكلُّ مُلكٍ فخدّامٌ لملكهمِ
يَوْمَ القيامةِ والبُشرى لحزبهمِ
ورُمتَ مجداً رفيعاً مثلَ مجديهمِ
واضعدُ بعزمٍ وجداً مثلَ جدّهمِ

- ١٥٥- واعْكُفْ عَلَى السُّنَّةِ الْمُثَلَّى كَمَا عَكَّفُوا
 ١٥٦- وَاَقْرَأْ كِتَابًا يُفِيدُ الْاَصْطِلَاحَ بِهِ
 ١٥٧- حَكِّمْ قَوَاعِدَهُ وَاحْرُزْ قَوَائِدَهُ
 ١٥٨- فَهِيَ الْمَحَجَّةُ فَاسْلُكْ غَيْرَ مُنْحَرِفٍ
 ١٥٩- وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ كَالْقُرْآنِ شَاهِدُهُ
 ١٦٠- خَيْرُ الْكَلَامِ وَمِنْ خَيْرِ الْأَنَامِ بَدَأَ
 ١٦١- وَهِيَ الْبَيَانُ لِأَسْرَارِ الْكِتَابِ فَبَالَ
 ١٦٢- حَكِّمْ نَبِيَّكَ وَانْقُدْ وَارْضَ سُنَّتَهُ
 ١٦٣- وَاعْضُضْ عَلَيْهَا وَجَانِبَ كُلِّ مُحَدَّثَةٍ
 ١٦٤- فَمَا لِذِي رِيَّةٍ فِي نَفْسِهِ حَرْجٌ
 ١٦٥- (فَلَا وَرَبِّكَ) أَفْوَى زَاجِرًا لِأُولَى الْ
- حَفْظًا مَعَ الْكَشْفِ عَنْ تَفْسِيرِهَا وَدُمْ
 تَذَرِي الصَّحِيحَ مِنَ الْمُوصُوفِ بِالسَّقَمِ
 تَحْزَنْ عَوَائِدَهُ كَالَّذَرَّ تَنْتَظِمُ
 وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَاءُ فَاعْتَصِمْ
 فِي سُورَةِ النَّجْمِ فَاحْفَظْهُ وَلَا تَهِمْ
 مِنْ خَيْرِ قَلْبٍ بِهِ قَدْ فَاهَ خَيْرٌ فَمِ
 إِعْرَاضٍ عَنْ حُكْمِهَا كُنْ غَيْرَ مُتَمَسِّمٍ
 مَعَ الْيَقِينِ وَحَوْلَ الشَّكِّ لَا تَحْمِ
 وَقُلْ لِيذِي بَدْعَةٍ يَدْعُوكَ لَا نَعَمِ
 مِمَّا قَضَى قَطُّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ قَسَمِ
 أَلْبَابِ وَالْمُلْحِدِ الرَّنْدِيقِ فِي صَمَمِ

في الفرائض والآلة والتحذير من العلوم المبتدعة

- ١٦٦- وبالفرائض نصف العلم فاعن كما
 ١٦٧- مِنْ فَضْلِهَا أَنْ تَوَلَّى اللَّهُ قِسْمَتَهَا
 ١٦٨- (يُوصِيكُمُ اللَّهُ) آيٍ بَعْدَهَا اتَّصَلَتْ
 ١٦٩- وَخُذْ إِذَا شِئْتَ مَا قَدْ تَسْتَعِينُ بِهِ
 ١٧٠- كَالْتَّخَوِ وَالصَّرْفِ وَالتَّجْوِيدِ مَعَ لُغَةٍ
 ١٧١- وَاحْذَرْ قَوَانِينَ أَرْبَابِ الْكَلَامِ فَمَا
 ١٧٢- قَامُوسُ فَلَسَفَةٍ مِفْتَاحُ زُنْدَقَةٍ
 ١٧٣- رَامُوا بِهَا عَزَلَ حُكْمِ اللَّهِ وَافْتَرَحُوا
 ١٧٤- يُرْوَكُ أَنْ تَزِنَ الْوَحْيَيْنِ مُجْتَرِّبًا
 ١٧٥- وَأَنْ تُحْكَمَهَا فِي كُلِّ مُشْتَجَرٍ
 ١٧٦- أَمَّا الْكِتَابُ فَحَرِّفْ عَنْ مَوَاضِعِهِ
- أَوْصَى الْإِلَهَ وَخَيْرُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ
 وَلَمْ يَكِلْهَا إِلَى عُرْبٍ وَلَا عَجَمِ
 وَفِي الْكَلَالَةِ أُخْرَى فَادْنُ وَاعْتَنِمْ
 مِنْ آلَةٍ تُلْفِهَا حَالًا لِمُنَبِّهِمْ
 يُدْرِي بِهَا حَلٌّ مَا يَخْفَى مِنَ الْكَلِمِ
 بِهَا مِنَ الْعِلْمِ غَيْرُ الشَّكِّ وَالثَّهْمِ
 كَمْ مِنْ مُلِمٍّ بِهِ قَدْ بَاءَ بِالتَّدَمِ
 لِلْحَقِّ رَدًّا وَإِنْفَادًا لِحُكْمِهِمْ
 عَلَيْهِمَا بِعُقُولِ الْمُغْفَلِ الْعَجَمِ
 إِذْ لَيْسَ فِي الْوَحْيِ مِنْ حُكْمٍ لِمُحْتَكِمِ
 إِذْ لَيْسَ يُعْجِزُكَ الشَّحْرِيفُ لِلْكَلِمِ

١٧٧- كذا الأحاديثُ آحادٌ وليس بها
 ١٧٨- وَقَدْ أَى اللَّهُ إِلَّا نَصَرَ مَا خَدَلُوا
 ١٧٩- كذا الكهانةُ والتنجيمُ إنَّهما
 ١٨٠- إسنادهَا حِزْبُ إبليسِ اللَّعينِ كَمَا
 ١٨١- مَا لِلتُّرَابِ وَمَا لِلْغَيْبِ يُدْرِكُهُ
 ١٨٢- لَوْ كَانَتْ الْجِنَّ تَدْرِي الْغَيْبَ مَا لَبِثَتْ
 ١٨٣- أَمَّا النُّجُومُ فَزَيْنٌ لِلسَّمَاءِ وَ(رُجُومُ
 ١٨٤- كَمَا بِهَا يَهْتَدِي السَّارِي لِوَجْهِتِهِ
 ١٨٥- وَالتَّيْرَانِ مُحْسَبَانِ وَذَلِكَ تَقَفَ
 ١٨٦- فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَاكَ قَفَا
 ١٨٧- كَالْمُقْتَفِينَ لِعِبَادِ الْهِيَائِلِ فِي
 ١٨٨- وَالْكَاتِبِينَ نِظَامًا فِي عِبَادَتِهَا
 ١٨٩- فَذَا سُعُودٌ وَذَا نَحْسٌ وَطَلَسُمُهُ
 ١٩٠- وَاحْذَرِ مَجَلَّاتِ سُوءٍ فِي الْمَلَا نُشِرَتْ
 ١٩١- تَدْعُو لِنَبَذِ الْهُدَى وَالَّذِينَ أَجْمَعِهِ
 ١٩٢- وَلِلرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا وَرُخْرِفَهَا
 ١٩٣- وَلِلتَّهْتِكِ جَهْرًا وَخَلَاةً مَعًا
 ١٩٤- وَالْاعْتِمَادِ عَلَى الْأَسْبَابِ مُطْلَقِهَا
 ١٩٥- وَالْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْأَمْلاكِ مَعَ رُسُلِ
 ١٩٦- وَلَا عِتْنَاكِ الطَّبِيعِيَّاتِ لَيْسَ لَهَا
 ١٩٧- قَامَتْ لَدَيْهِمْ بِلا قِيَوْمٍ أَبَدَعَهَا
 ١٩٨- سَمُوهُ مَدْحًا لَهُ الْعِلْمُ الْجَدِيدَ بَلِ الْ
 ١٩٩- تَقَسَّمُوهُ الْمَلَا حَيْدُ الطُّغَاةِ عَلَى
 ٢٠٠- وَكَلَّمَا مَرَّ قَرْنٌ أَوْ قُرُونٌ أَتَوْا
 ٢٠١- بَعْضُ الْحَبِيثِ عَلَى بَعْضٍ سَيَرُكُمُ

بُرْهَانٌ حَقٌّ وَلَا فَضْلٌ لِمُخْتَصِمٍ
 وَكُسْرَ مَا نَصَرُوا مِنْهُمْ عَلَى رَعَمٍ
 كُفْرَانٍ قَدْ عَبَثَا بِالنَّاسِ مِنْ قِدَمٍ
 مُتَوْنَهَا أَكْذَبُ الْمَنْقُولِ مِنْ كَلِمٍ
 مَا لِلتَّصَرُّفِ وَالْمَخْلُوقِ مِنْ عَدَمٍ
 دَهْرًا تُعَالِجُ أَصْنَافًا مِنَ الْأَلَمِ
 مَا لِلشَّيَاطِينِ طَرْدًا لِاسْتِمَاعِهِمْ
 فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَيْثُ السَّيْرِ فِي الظُّلَمِ
 دِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الْمُسْبِغِ النَّعَمِ
 مَا لَيْسَ يَعْلَمُهُ فَهُوَ الْكَذُوبُ سِمِ
 عَزُو التَّصَرُّفِ وَالتَّأْثِيرِ لِلنُّجُومِ
 عَقْدًا وَكَيْفًا وَتَوْقِيًّا لِنُسُكِهِمْ
 كَذَا وَنَاسَبَهُ ذَا كَمٍ بِخَرَصِهِمْ
 تَدْعُو جِهَارًا إِلَى نَشْرِ الْبَلَاءِ بِهِمْ
 وَالْعِلْمِ بَلْ كُلِّ عَقْلٍ كَامِلٍ سَلِمِ
 وَالرَّرَجِ كَالْحَيَوَانِ السَّائِمِ الْبَهْمِ
 نَبَذِ الْمُرُوءَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ
 دُونَ الْمُسَبِّبِ وَالْخَلَاقِ مِنْ عَدَمِ
 وَالْوَحْيِ مَعَ قَدَرٍ وَالتَّبْعِ لِلرَّمَمِ
 مُدَبَّرٍ فَاعِلٌ مَا شَاءَ لَمْ يَضْمِ
 مُسَخَّرَاتٍ لِغَايَاتٍ مِنَ الْحِكْمِ
 كُفْرَ الْقَدِيمِ وَمِنْهُ الْقَوْلُ بِالْقِدَمِ
 سَهْمٍ وَأَكْثَرُ لَا أَهْلًا بِذِي الْقِسَمِ
 بِهِ عَلَى صُورَةٍ أُخْرَى لِحُبِّهِمْ
 رَبِّي وَيَجْعَلُهُ فِي النَّارِ لِلضَّرَمِ

٢٠٢- وَاعْجَبْ لِعُدْوَانِ قَوْمٍ حَاوَلُوا سَفَهًا أَنْ يَجْمَعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي كَمَمٍ
٢٠٣- كَالْتَّارِ فِي الْمَاءِ أَوْ طُهْرٍ عَلَى حَدَثٍ فِي وَقْتِهِ أَوْ إِخَاءِ الذَّنْبِ وَالْغَنَمِ

خاتمة في تحصيل ثمرات العلم النافعة واجتناء قطوفه الدانية اليانعة

٢٠٤- وَحَاصِلُ الْعِلْمِ مَا أَمَلِي الصِّفَاتِ لَهُ فَأَصْغِ سَمْعَكَ وَاسْتَنْصِتْ إِلَى كَلِمِي
٢٠٥- وَذَاكَ لَا حِفْظَكَ الْفُتْيَا بِأَحْرِفِهَا وَلَا بِتَسْوِيدِكَ الْأَوْرَاقِ بِأَلْحَمِ
٢٠٦- وَلَا تَصْدُرْ صَدْرَ الْجَمْعِ مُحْتَبِيًّا تُمْلِيهِ لَمْ تَفْقَهُ الْمَعْنَى بِالْكَلِمِ
٢٠٧- وَلَا الْعِمَامَةَ إِذْ تُرْخِي ذُؤَابَتَهَا تَصْنَعًا وَخِصَابُ الشَّيْبِ بِالْكَنَمِ
٢٠٨- وَلَا بِقَوْلِكَ يَغْنِي دَائِبًا وَنَعَمَ كَلَّا وَلَا حَمْلِكَ الْأَسْفَارَ كَالْبَهَمِ
٢٠٩- وَلَا بِحَمْلِ شَهَادَاتٍ مُبْهَرَجَةٍ بِرُخْرِفِ الْقَوْلِ مِنْ نَثَرٍ وَمُنْتَظِمِ
٢١٠- بَلْ خَشْيَةُ اللَّهِ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ فَاعْلَمْ هِيَ الْعِلْمُ كُلُّ الْعِلْمِ فَالْتَزِمِ
٢١١- فَلْتَعْرِفِ اللَّهَ وَلْتَذْكُرْ تَصَرُّفَهُ وَمَا عَلَى عِلْمِهِ قَدْ حُطَّ بِالْقَلَمِ
٢١٢- وَحَقُّهُ اعْرِفْ وَقُمْ حَقًّا بِمُوجِبِهِ وَمَنْهَجَ الْحَقِّ فَاسْلُكْ عَنْهُ غَيْرَ عَمِي
٢١٣- أَشَقَى وَأَسْعَدَ مُحْتَارًا أَضَلَّ هَدَى أَذْنَى وَأَبْعَدَ عَدَلًا مِنْهُ فِي الْقِسَمِ
٢١٤- أَوْحَى وَأَرْسَلَ وَصَّى أَمْرًا وَنَهَى أَحَلَّ حَرَّمَ شَرَعََا كَامِلَ الْحِكَمِ
٢١٥- يُحِبُّ الْإِحْسَانَ وَالْعِصْيَانَ يَكْرَهُهُ وَالْبِرَّ يَرْضَاهُ مَعَ سُخْطٍ لِحُرْمِهِمِ
٢١٦- بِمُقْتَضَى دَيْنٍ فِي الدَّارَيْنِ مُطَرِّدٌ لَا ظُلْمَ يُخَشَى وَلَا خَيْرٌ بِمُنْهَضِمِ
٢١٧- فَاغْمَلْ عَلَى وَجَلٍ وَادَّأَبْ إِلَى أَجَلٍ وَاعْزِلْ عَنِ اللَّهِ سُوءَ الظَّنِّ وَالتَّهَمِ
٢١٨- لِلشَّرْعِ فَاثْقَدْ وَسَلِّمْ لِلْقَضَاءِ وَلَا تُخَاصِمَنَّ بِهِ كَالْمُلْجِدِ الْخَصِمِ
٢١٩- وَبِالْمَقَادِيرِ كُنْ عَبْدًا لِمَالِكِهِ وَعَابِدًا مُخْلِصًا فِي شَرْعِهِ الْقِيمِ
٢٢٠- إِيَّاهُ فَاعْبُدْ وَإِيَّاهُ اسْتَغْنِ قَبْدًا تَصِلْ إِلَيْهِ وَلَا حُرْتَ فِي الظُّلَمِ
٢٢١- وَخُذْ بِالْأَسْبَابِ وَاسْتَوْهَبْ مُسَبِّبَهَا وَثِقْ بِهِ دُونَهَا تَقْلِحْ وَلَمْ تُضَمِ
٢٢٢- بِالشَّرْعِ زِنْ كُلَّ أَمْرٍ مَا هَمَمْتَ بِهِ فَإِنْ بَدَأَ صَالِحًا أَفْدِمْ وَلَا تَجِمِ
٢٢٣- أَخْلِصْهُ وَاصْدُقْ أَصْبَ وَاهْضِمْ فَنِي شُرْطَ فِي صَالِحِ السَّعْيِ أَوْ فِي طَيِّبِ الْكَلَمِ

٢٢٤- أَخْلَصَهُ لِلَّهِ وَأَصْدُقَ عَازِمًا وَأَصْبَحَ
 ٢٢٥- لَا تُعْجَبَنَّ بِهِ يُحْبِطُ وَلَا تَرَهُ
 ٢٢٦- وَحَيْثُ كَانَ مِنَ التَّهْيِ اجْتَنِبْهُ وَإِنْ
 ٢٢٧- وَأَوْقِفِ النَّفْسَ عِنْدَ الْأَمْرِ هَلْ فَعَلْتَ
 ٢٢٨- فَإِنْ زَكَّ فَاحْمِدِ الْمَوْلَى مُطَهِّرَهَا
 ٢٢٩- وَإِنْ عَصَتْ فَاعْصِهَا وَاعْلَمْ عِدَاوَتَهَا
 ٢٣٠- وَانْظُرْ مَخَازِي الْمُسِيئِينَ الَّتِي أَخَذُوا
 ٢٣١- وَالزَّمْ صِفَاتِ أَوْلِيَ التَّقْوَى الَّذِينَ يَهَا
 ٢٣٢- وَاقْنُتْ وَبَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ قُمْ أَبَدًا
 ٢٣٣- فَالْخَوْفُ مَا أَوْرَثَ التَّقْوَى وَحَثَّ عَلَى
 ٢٣٤- كَذَا الرَّجَا مَا عَلَى هَذَا يَحُثُّ لِتَصْ
 ٢٣٥- وَالْخَوْفُ إِنْ زَادَ أَفْضَى لِلْقُنُوطِ كَمَا
 ٢٣٦- فَلَا تُفَرِّطْ وَلَا تُفْرِطْ وَكُنْ وَسْطًا
 ٢٣٧- سَدَّدْ وَقَارِبْ وَأَبْشِرْ وَاسْتَعِنْ بِعُدُو
 ٢٣٨- فَمِثْلُ مَا خَانَتْ الْكُسْلَانَ هِمَّتُهُ
 ٢٣٩- وَدُمَّ عَلَى الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَحَوْ
 ٢٤٠- وَاضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي التَّوْفِيقِ مُبْتَهَلًا
 ٢٤١- يَا رَبِّ يَا حَيُّ يَا قِيَوْمُ مَغْفِرَةً
 ٢٤٢- وَامْنُنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضِيكَ وَأَقْضِهِ لِي
 ٢٤٣- وَأَعْلِ دِينَكَ وَأَنْصُرْ نَاصِرِيهِ كَمَا
 ٢٤٤- وَأَقْصِمْ بِبَاسِكَ رَبِّي حِزْبَ خَاذِلِهِ
 ٢٤٥- وَاشْدُدْ عَلَيْهِمْ بَزْلَإِلٍ وَدَمْدَمَةً
 ٢٤٦- وَاجْعَلْهُمْو رَبَّنَا لِلْخَلْقِ مَوْعِظَةً
 ٢٤٧- ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمَعْصُومِ مِنْ خَطَا
 ٢٤٨- وَالْآلِ وَالصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ لَهُمْ

صِرَاطُهُ وَاهْضِمَنَّ النَّفْسَ تَنْهَضِمَ
 فِي جَانِبِ الذَّنْبِ وَالتَّقْصِيرِ وَالتَّعَمُّ
 زَلَلْتُ تَبْ مِنْهُ وَاسْتَغْفِرْ مَعَ التَّدَمِّ
 وَالتَّهْيِ هَلْ نَزَعْتَ عَنْ مَوْجِبِ النَّقَمِ
 وَنِعْمَةَ اللَّهِ بِالشُّكْرَانِ فَاسْتَدِمِ
 وَحَذَرْنَهَا وَرُودَ الْمَوْرِدِ الْوَحْمِ
 يَهَا وَحَاذِرْ ذُنُوبًا مِنْ عِقَابِهِمْ
 عَلَيْهِمُ اللَّهُ أَثْنَى وَاقْتَدِهِ بِهِمْ
 تَحْتَشَى الذُّنُوبَ وَتَرْجُو عَفْوَ ذِي الْكَرَمِ
 مَرْضَاةَ رَبِّي وَهَجِرِ الْإِثْمَ وَالْأَثْمِ
 دِيْقِ بِمَوْعُودِ رَبِّي بِالْحِزَا الْعَظْمِ
 يُفْضِي الرَّجَاءَ لِأَمْنِ الْمَكْرِ وَالتَّقَمِ
 وَمِثْلُ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فَاسْتَقِمِ
 وَبِالرَّوَاغِ وَأَذْلِجْ قَاصِدًا وَدُمِ
 فَطَالَ مَا حُرِمَ الْمُنْبِتُ بِالسَّامِ
 قِلْ وَاسْأَلِ اللَّهَ رِزْقًا حُسْنِ مُحْتَمِ
 فَهُوَ الْمُجِيبُ وَأَهْلُ الْمَنْ وَالْكَرَمِ
 لِمَا جَنَيْتُ مِنَ الْعِصْيَانِ وَاللَّمَمِ
 مِنْ اِعْتِقَادٍ وَمِنْ فِعْلٍ وَمِنْ كَلِمِ
 وَعَدْتَهُمْ رَبَّنَا فِي أَصْدَقِ الْكَلِمِ
 وَرَدَّ كَيْدَ الْأَعَادِي فِي نُحُورِهِمْ
 كَمَا فَعَلْتَ بِأَهْلِ الْحِجْرِ فِي الْقَدَمِ
 وَعِزَّةً يَا شَدِيدَ الْبَطْشِ وَالتَّقَمِ
 مُحَمَّدٍ خَيْرِ رُسُلِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
 وَتَمَّ نَظْمِي بِمُحَمَّدِ اللَّهِ ذِي التَّعَمِ

شرح المنظومة

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

- ١- الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى
- ٢- ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ الـ
- ٣- مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ مَا لَا يَعْلَمُونَ وَبَالَـ
- ٤- ثُمَّ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُخْتَارِ أَكْرَمَ مَبْـ
- ٥- وَالْأَلِّ وَالصَّحْبِ وَالْأَتْبَاعِ قَاطِبَةً
- ٦- مَا لَاحَ نَجْمٌ وَمَا شَمْسٌ الضُّحَى طَلَعَتْ
- آلَائِهِ وَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالنَّعَمِ
- بَرَّ الْمُهَيِّمِينَ مُبْدِي الْخَلْقِ مِنْ عَدَمِ
- بَيَانٍ أَنْطَقَهُمْ وَالْحَقُّ بِالْقَلَمِ
- عُوثٌ بِخَيْرِ هُدًى فِي أَفْضَلِ الْأُمَمِ
- والتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ لِنَهْجِهِمْ
- وَعَدُّ أَنْفَاسٍ مَا فِي الْكُونِ مِنْ نَسَمِ

بدأ رَحِمَهُ اللهُ بحمد الله عَزَّوَجَلَّ والثناء عليه - سبحانه - بما هو أهله.

والبدء بحمد الله عَزَّوَجَلَّ أمرٌ درج عليه أهل العلم؛ تأسياً بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ،
وتأسياً بالنبي ﷺ في خطبه ورسائله.

و«الحمد»: هو الثناء على الله جَلَّوَعَلَا بالصفات الكاملة والأفعال العظيمة،
وهو جَلَّوَعَلَا له الحمد كله أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً.

وحمد الله نوعان:

- ١- حمدٌ له تَبَارَكَوَتَعَالَى على أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة العليا.
 - ٢- وحمدٌ له على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، وآلائه التي لا تُستقصى.
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والحمد نوعان: حمدٌ على إحسانه
إلى عباده، وهو من الشُّكر؛ وحمدٌ لما يستحقُّه هو بنفسه من نعوت كماله، وهذا

الحمد لا يكون إلا على ما هو في نفسه مستحق للحمد، وإنما يستحق ذلك من هو متَّصف بصفات الكمال»^(١).

والناظم ﷺ جمع بين هذين النوعين؛ إذ حمد الله على الأسماء والصفات، وحمده جلَّ وعلا على الآلاء والنعم.

وقوله: «رَبِّ الْعَالَمِينَ»؛ أي خالقهم ورازقهم ومالكهم والمتصرِّف فيهم خفَضًا ورفَعًا، وقبْضًا وبسطًا، وحيَاةً وموتًا، فلا رَبَّ لهم سواه، ولا خالق لهم غيره جلَّ وعلا.

وقوله: «عَلَى آلَائِهِ»؛ «الآلاء»: النعم، قال تعالى: ﴿فَإِنِّي آءَاءٌ رَبِّكُمْ﴾ [الرَّحْمَنُ: ١٣]، والنعم كُلُّها منه، وهي لا تعدُّ ولا تحصى، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].
وقوله: «وَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالنَّعْمِ»؛ «أهل الحمد» أي: الحقيق بأن يُحمد جلَّ وعلا، وقد ثبت في «صحيح مسلم» فيما يُقال عند الرَّفْع من الرُّكُوع: «أَهْلُ الشَّانِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالِ الْعَبْدُ»^(٢)، أي أَهْلٌ - أَنْتَ يَا اللَّهُ - وَحَقِيقٌ أَنْ يُشْنَى عَلَيْكَ وَأَنْ تُمَجَّدَ.

وقوله: «النَّعْم» أي: مُسْدِي النعم والمتفضِّل بها وحده لا شريك له.
ثمَّ قال ﷺ: «ذِي الْمُلْكِ»؛ وهو بَدَلٌ مِنْ لَفْظِ الْجَلَالَةِ، أي صاحب الملك، والمُلْكُ يرجع إلى ثلاثة معانٍ:

(١) «مجموع الفتاوى» (٦ / ٨٤).

(٢) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه برقم (٤٧٧).

الأول: ثبوت صفات الملك له التي هي صفات العظمة والجلال والكمال والكبرياء؛ كالقوة والعزة والقدرة، ونحوها من الصفات.

الثاني: أن جميع الخلق مَمَالِكُهُ وعبِيدُهُ، ومَفْتَقِرُونَ إليه، ومَضْطَرُونَ إليه، ولا غنى لهم عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَسْتُمُ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

الثالث: أن له التدبيرات النافذة، يقضي في ملكه بما يشاء، ويحكم بما يريد، يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويقبض ويبسط، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، له الحكم فيه تقديرًا وشرعًا وجزاءً. وقوله: «والمملوكوت» بزيادة الواو والتاء، على وزن «فعلوت» صيغة مبالغة، مثل: «جبروت»، و«رغبوت»، و«رهبوت»؛ من الجبر والرغبة والرهبة^(١).

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وقال ﷺ: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]، وثبت من حديث عوف بن مالك الأشجعي رحمته الله أن النبي ﷺ كان يقول في الركوع والسجود: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»^(٢).

وقوله: «الواحد»؛ وهو اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، ومعناه: المتفرد بصفات المجد والجلال، والمتوحد بنعوت العظمة والكبرياء والجمال، فهو سُبْحَانَ اللَّهِ.

(١) راجع «لسان العرب»: باب رحم (١٢/ ٢٣٠).

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٨٠)، وأبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٨١٧).

واحدٌ في ذاته لا شبيهَ له، وواحدٌ في صفاته لا مثيلَ له، وواحدٌ في أفعاله لا شريكَ له، وواحدٌ في ألوهيته فليس له ندٌّ في المحبة والتَّعظيم والدُّلُّ والخضوع، وهو جَلَّ وَعَلَا الواحدُ الَّذي عَظُمَت صفاته حتَّى تفرَّد بكلِّ كمالٍ.

وقوله: «الصَّمَد»؛ وهو اسمٌ من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا ورد في سورة الإخلاص، ومعناه: السَّيِّدُ العَظِيمُ الَّذي كَمُلَ في علمه وحكمته وقدرته وعزَّته وجميع صفاته، فهو - سبحانه - واسعُ الصِّفَات عَظِيمُهَا، الَّذي صَمَدَت إليه جميعُ المخلوقات، وقصدته كلُّ الكائنات بأسرها في جميع شؤونها، فليس لها ربٌّ سواه^(١).

وقوله: «الْبَرُّ» وهو اسمٌ من أسماء الله الحسنَى، ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

ومعناه: الَّذي شَمَلَ الكائنات بأسرها ببرِّه وفضله ومنَّه وجوده وعطائه، وآثارُ هذا الوصف شَمَلَ جميعَ النِّعم الظَّاهرة والباطنة، فلا يَسْتَغْنِي مخلوقٌ عن إحسانه وبرِّه طَرَفَةً عَيْنٍ.

وقوله: «المُهَيِّم»؛ وهو اسمٌ ثابتٌ في القرآن في أواخر سورة الحشر ومعناه: «أي المَطَّلِع على خفايا الأمور وخبايا الصُّدور، الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، الشَّاهدُ على الخلق بأعمالهم، الرَّقِيبُ عليهم فيما يَصْدُرُ منهم من قولٍ أو فعلٍ»^(٢).

(١) انظر: «فتح الرَّحيم الملك العلام» للشيخ عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي (٣٨).

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنان» للعلامة ابن سعدي (٩٤٧).

وقوله: «مُبْدِي الْخَلْقِ مِنْ عَدَمٍ»؛ أي موجدهم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقوله: «من عَدَمٍ» دلَّ على ذلك نصوصٌ منها قوله تعالى: ﴿هَذَا أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣- مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ مَا لَا يَعْلَمُونَ وَبِأَلِّ — بَيَانٍ أَنْطَقَهُمْ وَالْحِطِّ بِالْقَلَمِ

«من علَّم النَّاسَ»: «مَنْ» اسمٌ موصولٌ بمعنى الَّذِي، أي الَّذِي علَّمَ النَّاسَ ما لا يعلمون، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، وقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فالعلم فضل الله ومنته.

وتعليمه - سبحانه - شاملٌ لكلِّ علمٍ مِنْ علومِ الدُّنيا وعلومِ الآخرة، وحظُّ الكافر من ذلك ظاهرٌ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وأكرمَ الله ﷻ المسلمين بخيرِ العلوم وأنفعها ألا وهو العلم بما خُلِقوا لأجله، وأوجدوا لتحقيقه على تفاوتٍ بينهم في ذلك قوَّةً وضعفًا.

وقوله: «وبالبيان أنطقهم والخط بالقلم»؛ أي أن الله عز وجل أنطق الإنسان بالبيان، كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرَّحْمَن: ١ - ٤]، فهو يتلفظ ويتكلم بلسانه ما يبين عما في ضميره، والإبانة عما في الضمير تكون باللسان وتكون - أيضًا - بالخط بالقلم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝﴾ [العلق: ٤]؛ ولهذا فإنَّ تعليم الله ﷻ للإنسان ما لم يعلم يشمل التَّعليم النَّطْقِي والتَّعليمَ الْخَطِّي، والنَّاطِم رَحِمَهُ اللهُ جمع بينهما بقوله: «وبالبيان أنطقهم والخط بالقلم».

وقوله: «والخط» معطوف على «البيان» أي أنطقهم بالبيان وأنطقهم بالخط، فيبين عما في ضميره بالنطق بلسانه، ويبين - أيضًا - عما في ضميره بالخط بقلمه.

□ قال النَّاطِم رَحِمَهُ اللهُ:

٤- ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ أَكْرَمُ مَبْنًى - عُوْثٌ بِخَيْرِ هُدًى فِي أَفْضَلِ الْأُمَمِ

عطف رَحِمَهُ اللهُ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ على الحمد والثناء على الله؛ جمعاً في صدر نظمه بين الحمد لله، والصَّلَاةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وصلاتنا على النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ﷺ هي - كما قال ابن القيم في كتابه «جلاء الأفهام»^(١) -: «الطَّلَبُ مِنْ اللهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ صَلَاتِهِ وَصَلَاةِ مَلَائِكَتِهِ، وَهِيَ ثَنَاءٌ عَلَيْهِ، وَإِظْهَارٌ لِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، وَإِرَادَةٌ تَكْرِيمِهِ وَتَقْرِيْبِهِ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ الْخَبَرَ وَالطَّلَبَ، وَسُمِّيَ هَذَا السُّؤَالُ وَالِدُّعَاءُ مِنَّا نَحْنُ «صَلَاةً عَلَيْهِ» لَوْجْهَيْنِ:

(١) (ص ٢٦٢ - ٢٦٣).

أحدهما: أنه يتضمّن ثناء المصلّي عليه، والإشادة بذكر شرفه وفضله،
والإرادة والمحبة لذلك من الله تعالى، فقد تضمّنت الخبر والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سمّي منّا صلاة؛ لسؤالنا من الله أن يصلي عليه،
فصلاة الله عليه ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه سؤالنا
الله تعالى أن يفعل ذلك به» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله: «على المختار»؛ أي محمّد ﷺ خاتم النبيّين، و«المختار» هو من
أوصافه - صلوات الله وسلامه عليه -، ومعناه: المصطفى والمجتبى، قال الله
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقوله: «أكرم مبعوث»، هذا وصف له - صلوات الله وسلامه عليه -،
فالنبي ﷺ أكرم مبعوث، أي أفضل رسول أرسل، و«المبعوث»: المرسل،
وقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «بِخَيْرِ هُدًى»؛ أي بأفضل هدى، وقد كان ﷺ في كلّ جمعة
إذا خطب الناس يقول: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى
هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٢).

فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المبعوث بخير هدى.

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ؛ ورواه الإمام أحمد (١٠٩٨٧)،
والترمذي (٣٦١٥) وصحّحه، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللهُ
بلفظ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ».

(٢) رواه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله: «في أفضل الأمم»؛ أي أمة محمد ﷺ، وهي أفضل أمم النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - كما قال الله ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد جاء في «مسند الإمام أحمد» رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ، عن حكيم بن معاوية عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم ومنازلهم في الجنة ومقاماتهم في الموقف»^(٢).

وقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، دالٌّ على خيرية هذه الأمة من وجوه:

♦ من جهة كمال إيمانهم بالله.

♦ ومن جهة أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

♦ ومن جهة كونهم خير الناس للناس.

وهذا المعنى استظهره بعض الصحابة من الآية؛ كما جاء عن أبي هريرة

(١) رواه أحمد برقم (٢٠٠١٥)، والترمذي (٣٠٠١) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٨٨) بلفظ:

«إِنَّكُمْ تَتَمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً...»، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٦٢٨٥).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٤٥).

ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: «خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا الْإِسْلَامَ»^(١)، وكذا قال غير واحد من السَّلف.

♦ ومن وجوه خيريَّة هذه الأُمَّة: أَنَّهَا أَكْثَرُ الْأُمَمِ اسْتِجَابَةً لِنَبِيِّهَا، كما في الحديث عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

♦ ومن وجوه خيريَّتها: أَنَّهَا أَكْثَرُ الْأُمَمِ دُخُولًا لِلْجَنَّةِ، كما جاء في حديث ابن مسعود ﷺ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، قلنا: نعم، قال: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، قلنا: نعم، قال: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، قلنا: نعم، قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ» متفق عليه^(٣).

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

هـ- وَالْآلِ وَالصَّحْبِ وَالْأَتْبَاعِ قَاطِبَةً وَالتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ لِنَهْجِهِمْ

قوله: «وَالْآلِ» معطوفة على «المختار»، أي: والصَّلَاةُ عَلَى الْآلِ وَالصَّحْبِ وَالْأَتْبَاعِ.

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٥٧).

(٢) رواه مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ برقم (١٩٦).

(٣) رواه البخاري برقم (٦٥٢٨)، ومسلم برقم (٢٢١).

والمراد بـ«الآل» هنا: آل النبي ﷺ، وهم الذين حُرِّمَتْ عليهم الصدقة،
 وهم أقاربه من جدّه الأقرب عبد المطلب، وذريّته ﷺ، ومن آله - أيضًا - زوجاته
 أمّهات المؤمنين كما يدلُّ لذلك قول الله ﷻ: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ
 إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (٣٣) وَقَرْنَ فِي
 بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿
 [الأحزاب: ٣٢ - ٣٣]، وجاء في «الصَّحِيحِينَ» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «ما
 شَبَعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزٍ بُرٍّ مَّا دُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ» (١).

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «والصَّحْب»؛ أي أصحاب النبي ﷺ، وهم الذين أكرمهم
 الله ببقاء النبي ﷺ والإيمان به وماتوا على ذلك.
 وقوله: «والأتباع قاطبة» أي الذين لقوا أصحاب النبي ﷺ؛ لأنَّه عطفهم
 عليهم.

وقوله: «والتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ لَّنْهَجِهِمْ»، والمراد بـ«التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ»: مَنْ
 أَخَذُوا عَنِ الْإِتْبَاعِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ
 إِلَى اللَّهِ يَرْزُقُهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].
 قوله: «لَّنْهَجِهِمْ»؛ أي ساروا على النَّهْجِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ.

(١) رواه البخاري برقم (٥٤٢٣)، ومسلم برقم (٢٩٧٠).

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

٦- ما لاح نجمٌ وما شمسُ الضُّحى طَلَعَتْ وَعَدُّ أَنْفَاسٍ ما في الكونِ مِنْ نَسَمٍ

قوله: «ما لاح»؛ أي ما ظهر وطلع.

قوله: «وما شمسُ الضُّحى طَلَعَتْ»؛ خَصَّ رَحِمَهُ اللهُ شمسَ الضُّحى بالذكر لأنَّها في ذلك الوقت تشتدُّ إضاءتها، وكثيرًا ما يَخْصُّها الشعراء بالذكر.

«وَعَدُّ أَنْفَاسٍ»؛ أي وَعَدُّ أَنْفَاسٍ ما في الكون من نسَم، سواء أنفاس النَّاس أو غيرهم.

قوله: «مِنْ نَسَمٍ» جمع نسمة، والمراد كلُّ ذي روح.

وقصد النّازم بذكر هذه الأمور الصّلاة عليه ﷺ بالكثرة، صلاةً كثيرةً مَزِيدَةً إلى يوم الدّين، فصلوات الله وسلامه عليه، وفاته رَحِمَهُ اللهُ هنا وفي خاتمة النّظم ذكر السّلام على النّبي ﷺ عقب الصّلاة عليه ولعلَّ ذلك وقع سهواً.

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

٧- وَبَعْدُ مَنْ يُرِدِ اللهُ الْعَظِيمُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ^(١) فِي دِينِهِ الْقِيمَ

قوله: «وبعد»؛ هي كلمة يُؤْتى بها للانتقال من أسلوبٍ إلى آخر، وقد كان النّبي ﷺ يأتي بها في خطبه ومكاتباته، ومعناها: «مهما يكن من شيء بعد».

(١) حُرِّكَ الهاء بالضم للضرورة الشعرية مراعاة للوزن العروضي، والأصل أنها بسكون الهاء لوقوعها في جواب الشرط وجزائه.

فلَمَّا أَنهى الحمدَ والثناءَ والصَّلَاةَ على رسول الله ﷺ، وعلى الصَّحْبِ والآل، قال: «وبعدُ» مُشعرًا بذلك إرادته الشُّروع في المقصود.

وشرع ﷺ بدأً من هذا البيت بذكر فضائل العلم، مشيرًا إلى الدلائل على مكانته العلية، ومنزلته العظيمة، وآثاره المباركة، وعوائده الحميدة.

وقوله: «مَنْ يُرِدِ اللهُ الْعَظِيمُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي دِينِهِ الْقِيمِ».

يدلُّ عليه ما ورد في «الصَّحيحين» من حديث معاوية رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١)، والمراد بـ«الدِّين»؛ أي أصوله وفروعه.

والفقه في الدِّين يشمل الفقه في أصول الدِّين، وهو ما يسمِّيه بعض أهل العلم «الفقه الأكبر»^(٢) وهو «العقيدة»، ويشمل - أيضًا - الأحكام وتفاصيل الشرائع وما يتعلَّق بالمعاملات، وأيضًا الآداب والأخلاق، فكلُّ ذلك يتناوله قول النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

(١) رواه البخاري برقم (٧١)، ومسلم برقم (١٠٣٧).

(٢) قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٣٠٧ / ١٩): «ويسمِّيها بعضهم «الفقه الأكبر». وهذا نظير تسمية سائر المصنِّفين في هذا الباب «كتاب السُّنَّة»؛ كـ«السُّنَّة» لعبد الله بن أحمد، والخلال، والطبراني، و«السُّنَّة» للجعفي، وللأثرم، وخلق كثير صَنَعُوا في هذه الأبواب، وسمَّوا ذلك كتب السُّنَّة؛ ليميّزوا بين عقيدة أهل السُّنَّة وعقيدة أهل البدعة». اهـ.

وقد أَلَفَ الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ كِتَابًا في هذا الباب سَمَّاهُ «الفقه الأكبر».

والفقه: الفهم، وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «في دينه القِيم» هكذا تُضبط «القِيم» بتخفيف الياء كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، والمراد بـ«القِيم» أي المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٨- وَحَثَّ رَبِّي وَحَضَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَفَقُّهِ الدِّينِ مَعَ إِذْذَارِ قَوْمِهِمْ
«حَضَّ» بمعنى حَثَّ، أي حَثَّهم على أن يتفقهوا في الدين، كما قال تعالى:
﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا
فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد جمعت الآية أمرين أشار إليهما النَّازِمُ:

الأول: الحثُّ على الفقه في الدين في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.
الثاني: الحثُّ على إندار القوم في قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٩- وَاُمْتَنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ عِبَادٍ وَكُلِّ — لِي الرُّسُلِ بِالْعِلْمِ فَادْكُرْ أَكْبَرَ النَّعَمِ
«وَاُمْتَنَّ رَبِّي»؛ أي منَّ اللهُ ﷻ على العباد وتفضَّل - ومن أسماؤه «الْمَنَّان» -
«بالعلم»؛ فالعلم منته جَلَّ وَعَلَا على عباده.

وقوله: «عَلَى كُلِّ عِبَادٍ» دليله قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].
وقوله: «وَكُلِّ الرُّسُلِ» دليله قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ

فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿ [النساء: ١١٣].

وقوله: «فاذْكُرْ أَكْبَرَ النَّعَمِ»؛ أي كُنْ على ذكر لأكبر نعمة أنعم الله بها على عباده أن فقههم ورزقهم البصيرة في دينهم.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٠- يَكْفِيكَ فِي ذَاكَ أُولَى سُورَةٍ نَزَلَتْ عَلَى نَبِيِّكَ أَغْنِي سُورَةَ الْقَلَمِ

«يكفيك في ذاك»؛ أي في بيان شرف العلم وفضله، وأنه من أعظم

من الله ﷻ على عباده به «أولى سورة نزلت»؛ يعني «سورة العلق» ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ

رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ

مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿ [العلق: ١-٥]، فهي أول سورة في القرآن نزولاً على نبينا ﷺ ①.

وقوله: «أغني سورة القلم» أي: السورة التي ذكر فيها القلم، وإلا فإن

السورة التي تُعرف بالقلم هي سورة ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

١١- كَذَاكَ فِي عِدَّةِ الْآلَاءِ قَدَّمَ ذِكْرًا وَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النَّعَمِ

«كذاك»؛ أي إضافةً إلى ما سبق؛ فإنَّ الله ﷻ قَدَّمَ العلمَ والمنَّةَ به «في

عِدَّةِ الْآلَاءِ»؛ مشيراً إلى سورة الرحمن التي عدَّدَ ﷻ فيها على عباده آلاءه ونعمه،

(١) وذلك في حديث «بدء الوحي» الذي رواه البخاري برقم (٤٩٥٣)، ومسلم برقم

(١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد تكرر فيها قوله: ﴿فِي آيَةٍ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة.

وبدا سبحانه ذكر النعم في هذه السورة بنعمة العلم فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ

﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

«وقدّمه في سورة النعم»؛ أي «سورة النحل»، ويسمّيها أهل العلم: «سورة النعم»؛ لكثرة ما عدّد الله ﷻ فيها من نعمه على عباده إلى أن ختم ذلك بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١] ^(١).

وتقديمه سبحانه العلم في هذه السورة هو قوله في أولها: ﴿أَفَئِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١﴾ يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ١ - ٢]، والمراد بـ«الروح» هو الوحي، و«الوحي» هو العلم النافع الذي فيه بيان دين الله ﷻ أصوله وفروعه، وجاء - أيضاً - ذكر نعمة العلم في مواضع من هذه السورة؛ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(١) أورد ابن كثير في «تفسيره» (٧٠٦ / ٢) عن قتادة قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾: «هذه السورة تسمى سورة النعم»؛ وعن عليّ بن زيد قال: كان يُقال لسورة النحل: «سورة النعم»؛ لكثرة تعداد النعم فيها، انظر: «زاد المسير» (٤ / ٤٢٥ - ٤٢٦)، و«الدّر المنثور» (١٠٧ / ٥).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٢- وَمَيَّزَ اللهُ حَتَّى فِي الْجَوَارِحِ مَا مِنْهَا يُعَلَّمُ عَنْ بَاغٍ وَمُغْتَشِمٍ

«ومَيَّزَ اللهُ» أي: بالعلم. «حتى في الجوارح» فليست سواء، بل بينها تمايز. والمراد بـ«الجوارح»: الكلاب والصُّقُور ونحوهما ممَّا يصيد بنابه أو بمخلبه، فالله جَلَّ وَعَلَا مَيَّزَ في القرآن ما كان منها معلِّماً، وما كان منها غير معلِّم، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]، فالكلبُ المعلِّم إذا صادَ جازَ أكل ما أمسك علينا من الصيد، وغيرُ المعلِّم إذا صاد لا يحلُّ صيده. وقوله: «ما منها يُعَلَّمُ عن باغٍ ومُغْتَشِمٍ»؛ أي مَيَّزَ الَّذِي يُعَلَّمُ منها عن الباغي والمُغْتَشِمِ، و«الباغي» أي المعتدي، و«المُغْتَشِم» هو الَّذِي يَأْتِي بالأمر خبطاً من غير فِكْرٍ ولا نَظَرٍ.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٣- وَذَمَّ رَبِّي تَعَالَى الْجَاهِلِينَ بِهِ أَشَدَّ ذَمِّ فَهُمْ أَذْنَى مِنَ الْبَهَمِ

وذَمَّ اللهُ تَعَالَى الجاهِلين بهذا الدِّينِ أَشَدَّ ذَمِّ، وجعل منزلتهم أَذْنَى من بهيمة الأنعام، و«الْبَهَمِ»: جمع بهيمة، يُشير بذلك إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَن لَّنْغِدٍ بَلْ هُمْ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٤- وَلَيْسَ غِبْطَةٌ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ هُمَا الْإِحْسَانُ فِي الْمَالِ أَوْ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمِ

أي لا يُغْبِطُ النَّاسَ إِلَّا عَلَى أَمْرَيْنِ: الإحسان ببذل المال، والإحسان ببذل العلم، كما في «الصَّحِيحِينَ» من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»^(١).

والمراد بالحسد في الحديث «الغِبْطَةُ» وهي أن تتمنى أن يكون لك مثل ما عند الغير من النعم^(٢)، أمَّا كره النعمة التي أنعم الله بها على الغير أو تمنى زوالها أو السعي في زوالها؛ فهذا حسدٌ مذموم، وهو محرَّم.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٥- وَمِنْ صِفَاتِ أُولِي الْإِيمَانِ نَهَمَتُهُمْ فِي الْعِلْمِ حَتَّى اللَّقَى أَغْبِطَ بِذِي النَّهَمِ

أي من أوصاف وزينة وحلية أهل الإيمان شدة حرصهم على العلم وطلبه وتحصيله؛ لأنهم هم الذين عرفوا قدر العلم ومكانته وفضله، فنهمتهم في العلم شديدة، ورغبتهم فيه قوية أكيدة.

(١) رواه البخاري برقم (٧٣)، ومسلم برقم (٨١٦).

(٢) يقال: غَبِطْتُ الرَّجُلَ أَغْبِطُهُ غَبْطًا؛ إِذَا اشْتَهَيْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَا لَهُ وَأَنْ لَا يَزُولَ عَنْهُ مَا هُوَ فِيهِ. «لسان العرب» (٧/ ٣٨٥).

«حَتَّى اللَّقَى»؛ أي نهتم فيه مستمرةً ودائمةً إلى الموت، ورُئي الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في آخر حياته ومعه المحابر والأقلام! قيل: إلى متى تطلب العلم؟! قال: «معي المحبرة إلى المقبرة»^(١).

«أَغِطْ»؛ أي اجعل هذا الأمر أعظم ما يَغِطُ النَّاسَ عليه، ونظير ذلك ما رُوي في الحديث عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله ﷻ: «الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْطِيهِمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ»^(٢). «بِذِي النَّهَمِ»؛ أي أصحاب النّهمة الشّديدة والحرص على العلم وتحصيله، وفي الحديث: «مَنْهُمَا لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا»^(٣)

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

١٦- الْعِلْمُ أَعْلَى وَأَحْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعْتَ أَذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِقَمِ

يشير رَحِمَهُ اللهُ إلى علو شأن العلم، وحلاوة طعمه ومذاقه، وأنه أعلى شيءٍ اعتنى به العبد وأحلى شيءٍ استمعت له أذنٌ، ولكن هذه الحلاوة لا يحظى بها

(١) انظر: «الآداب الشّرعية» (٢/ ٥٤) لابن مفلح.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصحّحه الشيخ الألباني

رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٧٧٦١) وغيره.

(٣) رواه البرار (٤٨٨٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٩٠٥)، و«الأوسط» (٥٦٧٠)

من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. ولكن له شواهد كثيرة أورد بعضها السّخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٢٠٦) وقال: «وإن كانت مفرداتها ضعيفة بمجموعها تقوى»؛ ولذلك صحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٠٠).

قلبٌ مريض، فالقلب المريض لا يذوق هذه الحلاوة، ولا يشعر بطعمها، بل ينفر قلبه من العلم الذي هو أحلى شيء، وأطيب شيء، وأجمل شيء. «وأعرب عنه ناطقٌ بقَم» أي: وهو أرفعُ شيء وأحلى شيء نطق به المرء بفهمه.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٧- الْعِلْمُ غَايَتُهُ الْقُصْوَى وَرُتْبَتُهُ الْـ عُلْيَاءُ فَاسْعُوا إِلَيْهِ يَا أُولِي الْهِمَمِ

في هذا إشارة إلى غاية العلم الشرعي الشريفة، وأنه يبحث في أعظم غاية، وأجل مقصود، وأشرف مراد، ألا وهو ما خلُق العباد لأجله وأوجدوا لتحقيقه، وهذا هو أعلى الأمور وأرفعها، فله ولأهله العلوُّ والرَّفعة، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله: «فاسعوا»؛ لَمَّا ذكر هذه الفضائل للعلم حثَّ على السَّعي إليه بالاجتهاد في طلبه وتحصيله ونيله.

وقوله: «يا أولي الهمم» أي: العالية؛ أمَّا من كانت همته دنيئة، فهو عن ذاك بعيد، وعنه بمعزل.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٨- الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ اللهُ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ

«الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ»؛ المراد بـ«العلم»: العلم الشرعي، وهو أشرف مطلوبٍ يسعى الإنسان في نيله وطلبه وتحصيله.

فبالعلم يُعرَفُ التَّوْحِيدُ والإيمان، وبه تُعرفُ أصولُ الإيمان وشرائعُ الإسلام، وبه تُعرفُ الأخلاقُ الفاضلة والآدابُ الكاملة، وبه يتمايز النَّاسُ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال أيضًا: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: «وطلبه لله أكرم من يمشي على قدم»؛ أي الذي يطلب العلم مخلصًا لله يبتغي به وجه الله أكرم من يمشي على قدم، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المالك: ٢٢]. وهذا فيه شرف أهل العلم وفضلهم وعلو مكانتهم.

وأما الذي يطلبه ليُقَالَ عالمٌ أو لِيُمارِيَ به السُّفهاء أو ليصرف به وجوه النَّاسِ إليه أو غير ذلك؛ فإنه من أول من تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة^(١). والعلمُ عبادةٌ، والعبادة شرطُ قبولها الإخلاص لله ﷻ؛ فمن طلب العلمَ يبتغي وجه الله ﷻ قبل منه طلبه للعلم وأثابه عليه عظيم الثواب، ولهذا ذكر الشيخُ هذا القيد فقال: «الله» أي مخلصًا له، ومن طلبه لغير ذلك لم يقبل منه، وفي الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرَكَهُ»^(٢).

(١) وسيأتي بيان هذا المعنى في كلام الناظم قريبًا إن شاء الله.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

١٩- الْعِلْمُ نَوْرٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالْجَهَّالُ فِي الظُّلَمِ
٢٠- الْعِلْمُ أَعْلَى حَيَاةٍ لِلْعِبَادِ كَمَا أَهْلُ الْجَهَالَةِ أَمْوَاتٌ بِجَهْلِهِمْ

ذكر النّازم رَحِمَهُ اللهُ في هذين البيتين فضل العلم من جهتين: من جهة أنّه نورٌ مبين، ومن جهة أنّه حياةٌ للقلوب.

فالييت الأول ذكر فيه فضل العلم من جهة أنّه نور، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فالعلم نورٌ لصاحبه، وضياءٌ له، يمشي به في الظلمات؛ ولهذا فإنّ مكانة العالم في النّاس مكانةٌ عليّةٌ.

وقد ضرب الإمام الأجرى رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «أخلاق العلماء» مثلاً عجيباً يبيّن فيه مكانة العالم في مجتمعه وبين النّاس، قال ما نصّه: «فما ظنكم - رحمكم الله - بطريقٍ فيه آفاتٌ كثيرة، ويحتاج النّاس إلى سلوكه في ليلةٍ ظلّماء، فإن لم يكن فيه مصباح وإلاّ تحيروا، فقيّض الله لهم فيه مصابيح تُضيء لهم؛ فسلوكه على السّلامة والعافية، ثمّ جاءت طبقات من النّاس لا بدّ لهم من السّلك فيه فسلكوا، فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح، فبقوا في الظّلمة، فما ظنكم بهم؟! هكذا العلماء في النّاس، لا يعلم كثيرٌ من النّاس كيف أداء الفرائض وكيف اجتناب المحارم، ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبد به خلقه إلّا بقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحيّر النّاس، ودرّس العلم بموتهم، وظهر الجهل، فإنّا لله وإنّا

إليه راجعون؛ مصيبة ما أعظمها على المسلمين»^(١) انتهى كلامه ﷺ.

ولهذا قال الحسن البصري ﷺ: «لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم»^(٢)، كيف يعرف الناس الدين والأحكام والحلال والحرام والسنة والبدعة والإيمان والكفر لولا أن قيض الله ﷻ لهم علماء يبينون لهم دين الله ﷻ.

وقوله: «أهل السعادة»؛ فيه أن السعادة مرتبطة بالعلم، فأهل السعادة يستضيء لهم الطريق بنور العلم وضيائه.

وقوله: «والجهال في الظلم» أي أن الجهال الذين لا علم لهم يمشون في حُلْكة الجهل وظلماته.

وفرق بين من يمشي في نور وضياء، وبين من يمشي في ظلمة ظلمات، فقد جاء في «الجامع لأخلاق الراوي»^(٣) للخطيب بسنده عن مالك ﷺ أنه قال: «إن العلم ليس بكثرة الرواية، إنما العلم نورٌ يجعله الله في القلوب».

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه؛ أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه، فقال: «إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية»^(٤).

(١) «أخلاق العلماء» (ص ٢٨).

(٢) انظر: «التبصرة» لابن الجوزي (٢/٢٠٣).

(٣) (٢/١٧٤).

(٤) راجع «إعلام الموقعين» (٤/٢٨٤)، و«الجواب الكافي» (٣٤) لابن القيم ﷺ.

وجاء في «ديوان»^(١) الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ قوله:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأنَّ العلمَ نورٌ ونور الله لا يَهْدِي لعاصي

ولابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كلام عظيم في هذا الباب في مقدِّمة كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية»، منه قوله رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ القلبَ الحيَّ المستنيرَ هو الَّذي عقل عن الله وفهمَ عنه وأذعنَ وانقادَ لتوحيده، ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ، والقلب الميت المظلم الَّذي لم يُعقل عن الله ولا انقاد لما بُعث به رسول الله ﷺ؛ ولهذا يصفُ - سبحانه - هذا الضرب من النَّاسِ بأنَّهم أمواتٌ غير أحياء، وبأنَّهم في الظُّلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظُّلْمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة ترى الحقَّ في صورة الباطل، والباطل في صورة الحقِّ، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كُلُّها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قُسمت الأنوار دونَ الجسر للعبور عليه بقوا في الظُّلمات» إلى آخر كلامه رَحِمَهُ اللهُ^(٢).

والبيت الثاني ذكر فيه فضل العلم من جهة أنَّه حياة القلوب؛ أي أنَّ حياة العبد الحقيقية إنَّما تكون بالعلم، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالعلم أعلى حياة للعباد؛ لأنَّها الحياة الحقيقية.

(١) (ص: ٧٠).

(٢) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٧).

وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي أحييناه بالعلم والإيمان والهدى، وطاعة الله ﷻ، ولهذا يُشَبَّه الوحي في إحيائه للقلوب بالماء في إحيائه للنَّبات والأرض؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦-١٧]، أي كما أن الله ﷻ يحيي الأرض بعد موتها بالماء؛ فإنه ﷻ يحيي القلوب بعد موتها بالوحي، فأهل العلم أحياء بالعلم.

وقوله: «وأهل الجَهالة أَمَوَاتٌ بِجَهْلِهِمْ» هذا فيه أن من أعرض عن الوحي ولم يرفع به رأسًا فهو في عداد الأموات، قال تعالى: ﴿أَمَوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، والحياة التي يحيونها ليست حقيقية، بل هي حياة بهيمية، فالأنعام تأكل وتشرب وتلعب وتذهب وتجيء وتنام وتقوم وتقعّد.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١- لَا سَمْعَ لَا عَقْلَ بَلْ لَا يُبْصِرُونَ فِي السَّ - سَعِيرٍ مُعْتَرِفٍ كُلِّ بِذَنْبِهِمْ

وهذا حال ومآل من قال عنهم في البيت الذي قبله: «أهل الجَهالة أَمَوَاتٌ بِجَهْلِهِمْ» أي لا سمع لهم يسمعون به، ولا عقل يعقلون به، ولا بصر يبصرون به، وسوف يعترفون بذلك يوم القيامة إذا دخلوا نار جهنم اعترافًا لا يجدي ولا ينفع، يشير النَّازِمُ إلى قول الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ

السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ [الملك: ١٠-١١]، وأيضًا في هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢- فالجهلُ أصلُ ضلالِ الخلقِ قاطبةً وأصلُ شِقْوَتِهِمْ طُرًّا وظُلْمِهِمْ
٢٣- والعِلْمُ أصلُ هُدَاهُمْ مَعَ سَعَادَتِهِمْ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ذَوُو الْحِكَمِ
٢٤- والخَوْفُ بالجهلِ والحُزْنُ الطَّوِيلُ بِهِ وعن أولي العِلْمِ مَنْفِيَّانِ فَأَعْتَصِمِ

قوله: «فالجهلُ أصلُ ضلالِ الخلقِ قاطبةً»؛ وهذا أمرٌ واضحٌ بينٌ، فأصلُ كلِّ ضلالٍ وُجد في كلِّ إنسانٍ هو الجهلُ بالله وبدينه ووعيده وعقابه والجنة والنَّار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، قال قتادة: «أجمع أصحابُ رسول الله أن كلَّ ما عُصِيَ الله به فهو جهالةٌ».

نقله ابن القيم في «مدارج السَّالِكِينَ»^(١)، ثمَّ قال: «وسمِّي عدمُ مراعاة العلم جهلاً إمَّا لأنَّه لم ينتفع به فنزل منزلة الجاهل، وإمَّا لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله».

وقوله: «وأصلُ شِقْوَتِهِمْ طُرًّا وظُلْمِهِمْ»؛ أي: والجهلُ أصلُ شِقْوَةٍ وظلمٍ جميع الخلق، وأساس كلِّ بليَّةٍ وشرٍّ، وقوله: «طُرًّا» أي جيمعاً^(٢).

(١) (١/ ٤٧٠).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة (طرر).

وقوله: «والعلم أصل هداهم مع سعادتهم»؛ فأصل الهدى وأصل السعادة: العلم.

وقوله: «فلا يضل ولا يشقى ذوو الحكم»؛ فقوله: «فلا يضل» متعلق بقوله: «أصل هداهم»، وقوله: «ولا يشقى» متعلق بقوله: «مع سعادتهم» أي أهل العلم بالله وبكتابه منفي عنهم الضلال والشقاء.

ونفي الضلال فيه ثبوت الهداية، ونفي الشقاء فيه ثبوت السعادة، فأصل الهدى والسعادة هو العلم، كما قال الله ﷻ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «فنفي عن متبع هداه أمرين: الضلال والشقاء، قال عبد الله بن عباس عليه السلام: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]»^(١).

قال: «والآية نفت مسمى الضلال والشقاء عن متبع الهدى مطلقاً، فاقتضت الآية أنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى، ولا يضل في الآخرة ولا يشقى فيها؛ فإنَّ المراتب أربعة: هدى وشقاوة في الدنيا، وهدى وشقاوة في الآخرة،

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣٦/٧) من طريق عكرمة عنه، لكن قال: «صَمِنَ» بدل «تكفل»؛ وجاء من طرق أخرى عن ابن عباس بنحوه. انظر: «الدرر المنثور» (٢٥٤/١٠-٢٥٥).

لكن ذكر ابن عباس رضي الله عنهما في كل دار أظهر مرتبتها»^(١).

وقوله: «ذوو الحِكم»؛ أي ذوو العلوم النافعة المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وقوله: «والخوف بالجهل والحزن الطويل به»؛ أي يحصل الخوف والحزن بسبب الجهل؛ فمما يثمره الجهل في الجاهل ومما يترتب على وجود الجهل في الإنسان الخوف والحزن الطويل؛ والخوف والحزن إذا اجتمعا في الذكر؛ فإن الحزن يتعلق بما فات، والخوف يتعلق بما هو آت، فصاحب الجهل في أحزان دائمة على ما مضى؛ لأنها أيام وسنون متراكمة في الجهل والضلال، وهو كذلك في خوف مما هو آت.

وهذان متفتيان عن أولي العلم، يدلُّ لذلك نصوص؛ منها قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وهذه الآية صريحة في المعنى الذي قرره رحمته الله.

ومما هو مشتمل على تقرير هذا المعنى أيضًا قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٤-٣٥).

[فصلت: ٣٠]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

«فاعتصم»؛ أي اعتصم بالعلم واستمسك به وحافظ عليه؛ تسلم من مغبة الجهل وسوء عاقبته، وتظفر بثمرة العلم، وحسن نتيجته.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٥- الْعِلْمُ وَاللَّهُ مِيرَاثُ التُّبُوَّةِ لَا مِيرَاثَ يُشْبِهُهُ طُوبَى لِمُقْتَسِمِ
«العلم والله» هذا قسمٌ، وفيه الحلف على مكانة العلم اهتمامًا بالمقام وتأكيدها.
«ميراث التُّبُوَّةِ»؛ كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ»^(١).

وقوله: «لا ميراث يشبهه»؛ أي ليس هناك ميراث - مهما كان من قُصورٍ أو أموالٍ أو تجاراتٍ أو مزارعٍ أو غير ذلك - يشبهه.
«طوبى لمقتسم»؛ أي طوبى لمن أخذ قسمه وحظه ونصيبه من العلم:
﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَثَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، ف«طوبى» قيل: هي الجنة، أو الثواب العظيم، وقيل: شجرة في الجنة يسير في ظلها الراكب مئة عام^(٢).

(١) رواه أحمد برقم (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٩٧) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم: (٦٢٩٧).
(٢) وفي معناها أقوال كثيرة ذكرها ابن كثير في تفسيره لسورة الرعد؛ فلتنظر (٢/٦٢٣).

ومن لطائف ما يُذكر هنا: ما رواه الطبراني في «الأوسط»^(١) بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مرَّ بسوق المدينة فوقف عليها فقال: «يا أهل السوق! ما أعجزكم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟! قال: ذاك ميراثُ رسول الله يُقسَم وأنتم ها هنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه! قالوا: وأين هو؟! قال: في المسجد، فخرجوا سِراعاً إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتَّى رجعوا؛ فقال لهم: ما لكم؟! قالوا: يا أبا هريرة! فقد أتينا المسجدَ فدخلنا فلم نَر فيه شيئاً يُقسَم! فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحداً؟! قالوا: بلى رأينا قوماً يصلُّون، وقوماً يقرؤون القرآن، وقوماً يتذكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: وَيَحْكُمُ فذاك ميراثُ محمَّد».

□ قال الناظم رحمته الله:

٢٦- لَأَنَّهُ إِرْثٌ حَقٌّ دَائِمٌ أَبَدًا وَمَا سِوَاهُ إِلَى الْإِفْنَاءِ وَالْعَدَمِ

هذا تعليل لما سبق، أي لكونه إرث حق دائم أبداً، فلا شيء يشبهه من الأشياء الموروثة، فهو إرث حق، وأيضاً إرث دائم أبداً، يبقى مع الإنسان في الدنيا والآخرة، وبه يدخل الجنة، بل بدون هذا الإرث وبانتفائه مطلقاً ليس هناك دخول للجنة.

«وما سواه»؛ أي من أنواع الإرث مآله ومصيره «إلى الإفناء والعدم»؛ فإن كان الإنسان قد ورث مالا فكما أنه ورثه من غيره؛ فإن غيره سيرثه منه، كما قال الشاعر:

(١) برقم (١٤٢٩) وحسنه الألباني رحمته الله في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٨٣).

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ تَجْمَعُهَا وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٧- وَمِنْهُ إِرْثُ سُلَيْمَانَ النَّبُوءَةِ وَالْـ فَضْلُ الْمُبِينِ فَمَا أَوْلَاهُ بِالتَّعَمِّ

«ومنه» أي من هذا الإرث «إرث سليمان» عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «النَّبُوءَةِ وَالْفَضْلُ

المُبِين»؛ يشير إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ

الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

أي ورث سليمان علم أبيه ونبوته، فانضمَّ علم أبيه إلى علمه^(١).

وقوله: «فَمَا أَوْلَاهُ بِالتَّعَمِّ» أي: أن هذا أعظم النعم وأجل المنى.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٨- كَذَا دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ بِوَلِي أَلَّالِ^(٢) خَوْفِ الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِهِمْ

يشير إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَكَرْ رَحِمَتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا﴾^(٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ،

نِدَاءً خَفِيًّا^(٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ

بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا^(٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ

لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا^(٥) يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا^(٦) [مريم: ٢-٦]،

والمراد بـ«الإرث»: إرث العلم والنبوّة.

(١) انظر: «تفسير ابن سعد» (ص ٦٠٢).

(٢) بقطع الهمزة مراعاة للوزن العروضي.

قال ابن رجب: «إِنَّمَا أُريدَ به ميراثُ العِلْمِ والنُّبُوَّةِ، لا المال؛ فَإِنَّ الأنبياءَ لا يجمعون ما لا يتركونه»^(١)، كما في «الصَّحَّاحِينَ»^(٢) من حديث عمر رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنا صَدَقَةً».

وقوله: «بُولِي الْآلِ خَوْفُ الْمَوَالِي مِنَ وَرَائِهِمْ» مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ قال ابن سعدي: «أي: وإِنِّي خِفْتُ من يتولَّى على بني إسرائيل من بعد موتي، أَن لا يقومَ بدينِكَ حَقَّ القيام، ولا يدعو عبادَكَ إِلَيْكَ، وظاهر هذا أَنَّهُ لم ير فيهم أَحَدًا فيه لياقَةٌ للإمامة في الدِّين، وهذا فيه شفقة زكريَّا عليه السلام ونصحه، وَأَنَّ طلبه للولد ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدُّنيويَّة، وإِنَّمَا قصده مصلحة الدِّين والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيئته من البيوت المشهورة في الدِّين ومعدن الرِّسالة ومظنَّة للخير، فدعا الله أَن يرزقه ولدًا، يقوم بالدِّين من بعده»^(٣).

□ قال النَّاطِمُ رحمته الله:

٢٩- الْعِلْمُ مِيزَانُ شَرْعِ اللَّهِ حَيْثُ بِهِ قِوَامُهُ وَبِدُونِ الْعِلْمِ لَمْ يَقُمْ

أي بالعلم يوزن الشَّرْع، ويُعرَفُ الحلال والحرام، وبه تُتميَّز الأحكام، ويُعرَفُ الحقُّ من الباطل، والهدى من الضَّلال؛ ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ يقول

(١) «شرح حديث أبي الدَّرْداء في فضل طلب العلم» (ص ٥١).

(٢) البخاري (٤٢٤٠)، ومسلم (١٧٥٩).

(٣) «تفسير ابن سعدي» (ص ٤٨٩ - ٤٩٠).

كُلَّ يوم بعد صلاة الصُّبح: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا صَالِحًا»^(١)، وفي رواية: «مُتَقَبَّلًا».

فبدأ بالعلم النَّافع؛ لأنَّه الميزان الَّذي به يميِّز الإنسانُ بين الرِّزق الطَّيِّب والخبِيث، وبين العمل الصَّالح والطَّالِح، أمَّا إذا لم يكن مع الإنسان علمٌ نافعٌ؛ فكيف يميِّز بين الحلال والحرام، والطَّيِّب والخبِيث؟!

ولهذا من لطيف ما يُذكر أنَّ مُحَمَّد بن الحسن الشَّيباني - صاحب أبي حنيفة رَحِمَهُمَا اللَّهُ - قال له نَعْرُ: أَلْفَ لنا كتابًا في الزُّهد، قال: قد أَلَفْتُ كتابًا في البيوع^(٢).

يَقْصِدُ إذا أردتَ أن تكون زاهدًا ورِعًا؛ تَعَلَّمَ البيوعَ واعرف أحكامها، وميِّز بين ما أحلَّه الله وما حرَّمه، أمَّا من يشتري ويبيع ولا يسأل ولا يتعلَّم؛ من أين له الورع؟! ومتى يكون ورِعًا من لا علم له، ولا فقه له في دين الله ﷻ.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

- ٣٠- وَكَلَّمَا ذَكَرَ السُّلْطَانُ فِي حُجَجٍ فَالْعِلْمُ لَا سُلْطَةَ الْأَيْدِي لِمُحْتَكَمٍ
٣١- فَسُلْطَةُ الْيَدِ بِالْأُبدَانِ قَاصِرَةٌ تَكُونُ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالظُّلْمِ وَالْغَشَمِ
٣٢- وَسُلْطَةُ الْعِلْمِ تَنْقَادُ الْقُلُوبُ لَهَا إِلَى الْهُدَى وَإِلَى مَرَضَاتِ رَبِّهِمْ

جاء في آياتٍ عديدةٍ في القرآن ذكرُ السُّلْطَان، منها قوله تعالى: ﴿قَالُوا

(١) رواه أحمد برقم (٢٦٥٦٤)، وابن ماجه برقم (٩٢٥) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (رقم: ٧٥٣).

(٢) انظر: «المبسوط» للسرخسي (١٢/ ١٩٤).

أَتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ
مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ [يونس: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ مَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِي إِلَّا أَصْنََاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾
[يوسف: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾
[الصافات: ١٥٦ - ١٥٧] والمراد به في جميع المواضع الحجة القائمة على العلم.

ولهذا روى عبد الرزاق، وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» عن ابن عباس رضي الله عنهما
أنه قال: «كل سلطان في القرآن فهو حجة»^(١)، يعني المراد به الحجة.

وتُسمَّى الحجة: سلطاناً؛ لأنَّ لها سلطةً على القلب، فلا يستطيع أحدٌ
ردّها، بخلاف المغالطات والأباطيل وطُرق أهل الدَّجل، فإنَّها لا سلطان لها
على القلوب.

قال ابن القيم رحمته الله: «إنَّ الله - سبحانه - سمَّى علم الحجة سلطاناً؛ لأنَّها
توجب تسلُّطَ صاحبها واقتداره، فله بها سلطانٌ على الجاهلين، بل سلطان العلم
أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد النَّاسُ للحجة ما لا ينقادون لليد، فإنَّ الحجة
تنقاد لها القلوب؛ وأمَّا اليد، فإنَّها ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده
وتذلُّ المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضعٌ لها، ذليلٌ مقهورٌ تحت
سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علمٌ يُسأس به؛ فهو بمنزلة سلطان
السَّباع والأُسود ونحوها، قدرةٌ بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة؛

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٩٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٠٩٧)، وانظر: «تفسير
الطبري» (١٩/ ٤٤٤).

فإنَّه قدرةٌ بعلمٍ ورحمةٍ وحكمةٍ، ومن لم يكن له اقتدارٌ في علمه؛ فهو إمَّا لضعف حجَّته وسلطانِه، وإمَّا لقهر سلطانِ اليدِ والسَّيفِ له، وإلَّا فالحجَّةُ ناصرةٌ لنفسها، ظاهرةٌ على الباطل، قاهرةٌ له» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ (١).

ومن لطيف ما يروى هنا ما جاء في كتاب الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ عن أشعث بن شعبة المصيصي قال: «قدم هارون الرَّشيد أمير المؤمنين الرَّقَّة؛ فأنجفل النَّاس خلفَ عبدِ الله بن المبارك، وتقطَّعت النُّعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفتُ أمُّ ولید لأُمير المؤمنين من بُرج من قصر الخشب، فلَمَّا رأت النَّاس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالمٌ من أهل خُرَاسان قدم الرَّقَّة يقال له: «عبد الله ابن المبارك»، فقالت: هذا - والله! - المُلْك! لا مُلْك هارون الَّذي لا يجمع النَّاس إلَّا بشرطٍ وأعوانٍ» (٢).

□ قال النَّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٣١- فُسْلَطَةُ الْيَدِ بِالْأَبْدَانِ قَاصِرَةٌ تَكُونُ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالظُّلْمِ وَالْغَشَمِ

«فُسْلَطَةُ الْيَدِ»؛ يعني سلطة الحاكم أو الأمير أو نحوهما باليد، «بالأبدان قاصرة»؛ أي لا تؤثرُ في القلوب؛ وإنَّما على الأبدان فقط فتَنقَاد وتُطَاوَع، وهي تارةً تكون بالعدل، وتارةً تكون بالظُّلم والغشَم.

(١) «مفتاح دار السَّعادة» لابن القيم (١/ ٥٩).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٥٦).

٣٢- وَسُلْطَةُ الْعِلْمِ تَنْقَادُ الْقُلُوبُ لَهَا إِلَى الْهُدَى وَإِلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ

بينما إذا جاءت سُلْطَةُ الْعِلْمِ انْقَادَتِ الْقُلُوبُ إِلَى هُدَى اللَّهِ وَنِيلِ رِضَاهِ،
وَالْقِصَصُ فِي التَّارِيخِ وَالشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَمِنَ الشَّوَاهِدِ الْقَدِيمَةِ:
الْخَوَارِجُ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَعَهُ
حُجَجُ الْعِلْمِ فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَلْفَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ: أَرْبَعَةُ أَلْفٍ^(١)، انْقَادَتِ قُلُوبُهُمْ
لِسُلْطَةِ الْعِلْمِ لَا أَبْدَانِهِمْ فَقَطْ.

وَفِي زَمَانِنَا هَذَا فِي الْجَزَائِرِ لَمَّا تَحَصَّنَ أَعْدَادُ كَبِيرَةٌ مِنَ الْخَوَارِجِ فِي الْجِبَالِ
وَتَسَلَّطُوا عَلَى النَّاسِ وَحَاولَتْ مَعَهُمُ الدَّوْلَةُ مَحَاولَاتٍ عَدِيدَةً وَهُمْ مَعْتَصِمُونَ
فِي الْجِبَالِ؛ كَتَبَ لَهُمُ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَتَوَى عَظِيمَةً، وَنَصِيحَةً ثَمِينَةً
أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ؛ فَنَزَلَ أَعْدَادُ مِنْهُمْ، وَانْقَادَتِ قُلُوبُهُمْ لِلْحَقِّ؛ وَلِهَذَا سُلْطَةُ الْعِلْمِ
سُلْطَةٌ عَلَى الْقُلُوبِ، وَأَمَّا سُلْطَةُ الْحُكَّامِ فَهِيَ عَلَى الْأَبْدَانِ.

□ قَالَ النَّازِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

٣٣- وَيَذْهَبُ الدِّينُ وَالْدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْعِلْمُ الَّذِي فِيهِ مَنَاجَاةٌ لِمُعْتَصِمٍ

إِذَا ذَهَبَ الْعِلْمُ فَإِنَّ الدِّينَ وَالْدُّنْيَا يَذْهَبَانِ بِذَهَابِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي
«الصَّحَّاحِينَ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ»^(٢).

(١) راجع «البداية والنهاية» لابن كثير (١٠/ ٥٦٨ - ٥٦٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٨٠)، ومسلم برقم (٢٦٧١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجاء فيها عنه عليه السلام أنه قال: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُزْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْمَرْجُ»، و«الهرج»: القتل^(١).

وزهابُ العلمِ بذهابِ أهله كما في «الصَّحَّاحِينَ» عن النَّبِيِّ عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(٢).

وفي آخر الزَّمان يُرْفَعُ الْقُرْآنُ مِنَ الْمَصَاحِفِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، فَلَا تَبْقَى مِنْهُ آيَةٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ؛ لَمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَغَيْرُهُ مِنْ طَرِيقِ شَدَّادِ ابْنِ مَعْقِلٍ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةَ، وَآخِرَ مَا تَفْقِدُونَ الصَّلَاةَ، وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يُوْشِكُ أَنْ يُرْفَعَ»، قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ: كَيْفَ يُرْفَعُ وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي صُدُورِنَا وَأَثْبَتْنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟ قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا فَلَا يُتْرَكُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي صَدْرِ رَجُلٍ وَلَا مَصْحَفٍ؛ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَانَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(٣).

(١) رواه البخاري برقم (٧٠٦٤)، ومسلم (٢٦٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري عليه السلام.

(٢) رواه البخاري برقم (١٠٠)، ومسلم برقم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو عليه السلام.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنّفه» برقم (٣٥٨٧٨)، وعبد الرَّزَّاق في «مصنّفه» (٥٩٨١)، والحاكم في «المستدرک» (٨٥٣٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٣٤- الْعِلْمُ يَا صَاحِبِ يَسْتَغْفِرُ^(١) لِصَاحِبِهِ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مِنْ لَمَمٍ
٣٥- كَذَلِكَ تَسْتَغْفِرُ الْحَيْتَانُ فِي لُجْجِ مِنَ الْبَحَارِ لَهُ فِي الضُّوْءِ وَالظُّلَمِ

هذان البيتان بينَ فيهما رَحِمَهُ اللهُ فضيلةً عظيمةً لأهل العلم، وهي أَنَّ أهل السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يستغفرون له حتَّى الحيتان في الماء، كما جاء في حديث أبي الدرداء، وفيه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «وَأَنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَيْتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ»^(٢).

وجاء في حديث أبي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ذَكَرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلَانِ؛ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ، وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنَاكُم»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ» رواه التِّرْمِذِيُّ^(٣) وصَحَّحَهُ، وَحَسَّنَهُ لغيره الألباني في «صحيح التَّرجيب»^(٤).

(١) بإسكان الرَّاء مراعاة للوزن العروضي.

(٢) رواه أحمد برقم (٢١٧١٥)، وأبو داود برقم (٣٦٤١)، والتِّرْمِذِيُّ برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه برقم (٢٢٣)، وصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الألباني في «صحيح التَّرجيب والتَّرهيب» (١/ ٦٣ و ٦٨)، وينظر في شرح حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى رسالة نافعة لابن رجب رَحِمَهُ اللهُ مطبوعة بعنوان: «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم»، وهو شرح حافل بفوائد عظيمة في هذا الباب.

(٣) رواه التِّرْمِذِيُّ برقم (٢٦٨٥).

(٤) «صحيح التَّرجيب والتَّرهيب» رقم (٨١).

«الْعِلْمُ يَا صَاحِبُ»؛ ترخيم يا صاحب، «لصاحبه أهل السماوات والأرضين»؛ أي مَنْ في السَّمَوَاتِ وَمَنْ في الأَرْضِينَ يستغفرون لطالب العلم؛ أهل السَّمَوَاتِ: الملائكة، وجاء ذكر استغفار الملائكة لعموم المؤمنين في القرآن: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، لكن هذا الاستغفار لأهل العلم فيه خصوصية.

«من لم»؛ اللّم: مقاربة المعصية من غير واقعة، ويعبر به عن صغار الذُّنُوب^(١)، وفي هذا تنبيهٌ إلى فضيلة لأهل العلم، وهي بُعْدُهم عن الكبائر والمعاصي والآثام بما آتاهم الله من بصيرةٍ بدينه وبأسماؤه وصفاته، وإذا وقعوا في الذُّنُوب يَقْعُون في أمورٍ هي من اللّم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

قال: «كَذَاكَ تَسْتَغْفِرُ الْحَيَّتَانُ فِي لُجَجٍ مِنَ الْبَحَارِ»؛ أيضًا إضافةً إلى استغفار الملائكة لمن في الأرض، فالحيّتان التي في البحار تستغفر لأهل العلم، ومرّ معنا في الحديث: «حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا»، وبعض أهل العلم تلمّس في هذا بعض الحكم فقالوا: نفع العالم لا يختصّ بالناس، بل يشمل الحيوانات وما في البحار والنمل ونحوه؛ لأنّ العالم أوّلاً يبصر النَّاسَ بالدين فإذا استقاموا حصَلَت الخيرات والبركات، بينما إذا بقي النَّاس على ضلالهم وانحرفوا فسَدَت السَّمَوَات والأرض، فتضرّر الحيّتان والهوامُّ والدّوابُّ.

ومن جانب آخر؛ فإنّ العالم - أيضًا - يبيّن للنَّاس الرِّفْقَ مع بهيمة الأنعام

(١) راجع «تاج العروس» (٤٣٥ / ٣٣) باب: «لم».

وَحُسْنَ التَّعَامُلِ، فهذه الأشياء مِنْ خَيْرِ الْعَالَمِ وَبِرَكَتِهِ تَصِلُ إِلَيْهَا بِمَا آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِلْمٍ، وَبَذَلٍ لَهُ، وَنَصَحٍ لِلنَّاسِ، وَتَوْجِيهِ وَإِرْشَادٍ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي الضُّوْءِ وَالظُّلَمِ»؛ أَي فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مُسْتَغْفِرَةً لَهُ، مُسْتَمِرَّةً فِي الْإِسْتِغْفَارِ.

٣٦- وَخَارِجٌ فِي طِلَابِ الْعِلْمِ مُحْتَسِبًا مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيُّ كَمِيٍّ

«طِلَابٌ» بِكَسْرِ الطَّاءِ، يُقَالُ: طَالِبُهُ مُطَالِبَةٌ وَطِلَابًا، أَي طَلَبُهُ بِحَقٍّ، «مُحْتَسِبًا»؛ أَي يُحْتَسَبُ فِي خُرُوجِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَجْرَ اللَّهِ ﷻ وَثَوَابَهُ، وَيُطَلَّبُ رِضَاهُ جَلَّ وَعَلَا.

«مُجَاهِدٌ» خَبَرٌ «خَارِجٌ» أَي أَنَّ الَّذِي يُخْرَجُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مُحْتَسِبًا الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، جَاءَ فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ»^(١) وَغَيْرِهِ، وَحَسَنَهُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ».

وَجَاءَ فِي «سُنَنِ ابْنِ مَاجَه»^(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا خَيْرٌ يَتَعَلَّمُهُ، أَوْ يُعَلِّمُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ جَاءَ لْغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعٍ غَيْرِهِ»؛ أَي أَنَّ الْفَائِدَةَ وَالْخَيْرَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَحَرَمَ نَفْسَهُ مِنْهُ.

(١) برقم (٢٦٤٧).

(٢) برقم (٢٢٧) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ» (٨٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وإنَّما جُعِلَ طَلِبُ العلم من سَبِيلِ الله؛ لأنَّ به قِوامَ الإسلام، كما أنَّ قِوامه بالجهاد؛ فِقِوام الدِّين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهادُ نوعين:

- جهادٌ باليد والسِّنَّان، وهذا المشارِك فيه كثير.

- والثَّاني: الجهادُ بالحِجَّة والبيان، وهذا جهادُ الخاصَّة من أَتباع الرُّسل، وهو جهادُ الأئمَّة، وهو أَفضلُ الجهادين؛ لِعِظَمِ منفعتِهِ، وشِدَّةِ مُؤَنَّتِهِ، وكثَرَةِ أعدائِهِ»^(١) انتهى.

وقول النَّازِم: «مُجاهِدٌ في سَبِيلِ الله أَيُّ كِمِّي»؛ قوله: «أَيُّ» جاء في «مغني اللَّيِّب»^(٢) لابن هشام أنَّ من استعمالات «أَيِّ» مُشَدَّدَةٌ أن تكون دالَّةً على معنى الكمال؛ فتقع صِفَةٌ للنِّكرة، نحو: زَيْدٌ رَجُلٌ أَيُّ رَجُلٍ! أي كاملٌ في صفات الرِّجال.

وقوله هنا: «مُجاهِدٌ في سَبِيلِ الله أَيُّ كِمِّي» جاءت صِفَةٌ للنِّكرة «مُجاهِدٌ» وهي تُعطي معنى الكمال، و«كِمِّي» من أَكَمَى نَفْسَهُ أي سترها بالدَّرْع، و«الكَمِّي» لابس السِّلَاح، وأيضًا يُطلق «الكَمِّي» على الشُّجاع المُقدام الجريء، سواء كان عليه السِّلَاح أو لم يكن^(٣).

(١) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٧٠).

(٢) (ص ١٠٩).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٣٩/ ٤١٨).

والمعنى: مجاهدٌ في سبيل الله أي مجاهد؛ بياناً لكمال جهاده، وهذا جهادُ
الخاصّة من أتباع الرُّسل، وهو جهاد العلماء الأعلام الرّاسخين.

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٣٧- وَإِنْ أَجْنَحَةَ الْأَمْلاكُ تَبَسُّطُهَا لِطَالِبِيهِ رَضَى مِنْهُمْ بِصُنْعِهِمْ

يشير في هذا البيت إلى ما جاء في حديث أبي الدرداء^(١)، وفيه قال ﷺ: «وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضَى لِّطَالِبِ الْعِلْمِ بِمَا يَصْنَعُ»، ومعنى «تضع أجنحتها»: أي تبسطها - كما قال النّازم - لطالبي العلم رضى منهم بصنعهم، وطالب العلم إذا عرف هذه الفضيلة العظيمة الّتي خصّه الله جلّ وعلا بها وهي أن الملائكة تضع أجنحتها له رضى بما يصنع، وأنها تحفُّ طُلاب العلم بأجْنَحَتِها كما جاء في «الصّحيح»: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(٢) زاد حرصه وإقباله على العلم.

ولئن كان طُلاب العلم لا يرون الملائكة تحفُّهم إلا أنّهم من ذلك على يقين؛ لأنّ النّبِيَّ ﷺ - الصّادق المصدوق - أخبر بذلك، وقد ذكر ذلك عليه الصّلاة والسّلام في مقام الحُض على العلم والتّغيب فيه، وبيان فضيلة أهله.

(١) تقدّم تخريجه ص (٥٧).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

□ قال النّازم رحمه الله:

٣٨- والسّالكون طريق العلم يسلكهم إلى الجنان طريقاً بارئ النّسم

هذه الجملة - أيضاً - جاء تقريرها في حديث أبي الدرداء قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»، وجاءت هذه اللفظة في «صحيح مسلم»^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في سياق طويل، قال عليه الصّلاة والسّلام: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرْتُ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ...» الحديث.

وقد شرحه ابن رجب رحمه الله في شرحه للأربعين النّووية^(٢).

قوله: «السّالكون طريق العلم» أي السّائرون في طلبه الماضون في تحصيله. «يسلكهم إلى الجنان طريقاً بارئ النّسم»؛ «بارئ» فاعل «يسلك» أي: يسلكهم بارئ النّسم أي الله طريقاً يوصل إلى الجنان والفوز برضى الرّحمن. والبارئ اسم من أسماء الله كما في الآيات الأخيرة من سورة الحشر، وكما في قوله في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

(١) برقم (٢٦٩٩).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» الحديث السّادس والثلاثين (ص: ٦٣٢) ط. دار ابن الجوزي.

وهذا من باب الجزاء من جنس العمل، فمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم مشتمل على أمور عديدة كلها من هذا الباب.

والجنة لا تُدخل ولا تُنال إلا بالإيمان وطاعة الله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ ولا سبيل إلى معرفة الإيمان والعمل الصالح إلا بالعلم النافع.

□ قال الناظم رحمته الله:

٣٩- والسَّامِعُ الْعِلْمَ وَالْوَاعِي لِيَحْفَظَهُ مُؤَدِّيًّا نَاشِرًا إِيَّاهُ فِي الْأَمَمِ
٤٠- فَيَا نَضَارَتَهُ إِذْ كَانَ مُتَّصِفًا بِذَا بِدْعُوَةِ خَيْرِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ

من فضائل طالب العلم، بل يكفيه فضلاً وشرفاً ونبلاً وخيريةً أن النبي ﷺ دعا له دعوة مباركة ميمونة فقال: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا فَأَذَاهَا كَمَا سَمِعَهَا»، وهذا الحديث تواتر عن رسول الله ﷺ رواه عنه غير واحد من الصحابة؛ منهم زيد بن ثابت، كما في «السُّنَنِ» و«المُسْنَدِ»، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ لَيْسَ بِفِقْهِهِ»^(١)، وورد

(١) رواه أحمد برقم (٢١٦٣٠)، وأبو داود برقم (٣٦٦٠)، والترمذي برقم (٢٦٥٦) وحسنه، وغيرهم، وللوالد - حفظه الله - دراسة موسَّعة في تخريج هذا الحديث وشرحه، وهي بعنوان: «دراسة حديث «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي...» روايةً ودراسةً»، مطبوعة في ضمن مؤلفاته (٢٩٧/٣).

لفظه من حديث ابن مسعود أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «نَضَرَ اللهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا»^(١).

ومن يتأمل الحديث بألفاظه الواردة يجد أَنَّ هذه الدَّعوة المباركة من النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالنَّضارة ينالها العبد بمراتب أربعة يفعلها:

الأولى: السَّماع بأن يحرص على الجلوس للعلم وسماعه وتلقّيه.

الثَّانية: الوعي بأن يعقل ما يسمع، ويعي ما يُقال ويبيّن له.

الثَّالثة: الحفظ بأن يتعاهد هذا الَّذي يسمعه من العلم ويكرّره حتّى يثبت عنده.

الرَّابعة: الإبلاغ بنشر العلم وتعليمه للآخرين وبذله للنَّاس.

وبهذه المراتب الأربعة ينال العبد هذه الدَّعوة المباركة بقول نبيِّنا ﷺ: «نَضَرَ اللهُ أَمْرًا».

و«النَّضارة»: هي البهجة والحُسن الَّذي يُكساه الوجه من أثر الإيمان والعلم النَّافع وابتهاج القلب بذلك، وإنَّما دعا ﷺ لسامع السُّنَّة ومبلِّغها بالنَّضارة جزاءً وفاقاً لما قام به من بثّها وجعلها بذلك غُصَّةً طريّةً في أوساط النَّاس؛ فجزاه الله من جنس عمله بأن نَضَرَ وجهه؛ سعى في نضارة العلم وإحياء السُّنَّة فدعا له النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما يناسبُ حاله، وقد جاء عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قال: «ما من أحدٍ يطلبُ الحديثَ إلَّا وفي وجهه نَضْرَةٌ»^(٢).

(١) رواه أحمد برقم (٤١٥٧)، والترمذي برقم (٢٦٥٧).

(٢) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (ص ١١).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٤١- كَفَاكَ فِي فَضْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ رُفِعُوا مِنْ أَجْلِهِ دَرَجَاتٍ فَوْقَ غَيْرِهِمْ

يعني يكفي فضيلة في العلم، وبيان شرفه وشرف أهله أن رفعهم الله جَلَّوَعَلَا من أجل العلم درجات، وهو رَحِمَهُ اللهُ يشير إلى ما جاء في سورة المجادلة قول الله ﷻ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «يعني على الَّذِينَ آمَنُوا ولم يؤتوا العلم، كذا قال ابن مسعود وغيره من السلف»^(١).

أي يرفع الله الَّذِينَ آمَنُوا وأُوتُوا الْعِلْمَ على الَّذِينَ آمَنُوا ولم يُؤْتُوا العلم درجات.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٤٢- وَكَانَ فَضْلُ أَيْبِنَا فِي الْقَدِيمِ عَلَى الْـ أُمَلَاكِ بِالْعِلْمِ مِنْ تَعْلِيمِ رَبِّهِمْ

«وَكَانَ فَضْلُ أَيْبِنَا»؛ أي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ «فِي الْقَدِيمِ عَلَى الْأُمَلَاكِ»؛ أي على الملائكة «بِالْعِلْمِ»؛ يعني أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضِّلَ على الْأُمَلَاكِ وشَرَّفَ بالعلم الذي مَيَّزَهُ اللهُ ﷻ به كما جاء في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنْبِئُهُمْ

(١) «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم» (ص ٣٤).

بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣١﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

فذكر جلَّ وعلا في هذا السياق شرف آدم على الملائكة بما اختصَّ به من علم أسماء كل شيء دون الملائكة.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٤٣- كَذَاكَ يَوْسُفُ لَمْ تَظْهَرْ فَضِيلَتُهُ لِلْعَالَمِينَ بِغَيْرِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمِ

أي فضيلة يوسف عليه الصلاة والسلام ظهرت للعالمين بالعلم والحكم؛ كما قال الله تعالى في سورة يوسف وفيها ذكرت قصته العظيمة المباركة مفصلة، جاء في أولها قوله جلَّ وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِشْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، وقال في أثنائها: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، وجاء في آخرها ذكر دعاء يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وللشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ رسالة مستطابة بعنوان «الفوائد المستنبطة من قصَّة يوسف عليه السلام» وهي جديرة بأن تُقرأ.

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٤٤- وما اتّباعُ كَلِيمَ اللهِ لِلْخَضِرِ إلَ - مَعْرُوفٍ إلّا لِعِلْمٍ عَنْهُ مُنَبِّهِم

هذا يشير إلى ما جاء في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿[الكهف: ٦٥ - ٦٦]، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه وواعده ربُّ العالمين وسمع كلامَ الله مِنْ الله، يرحل إلى الخَضِرِ ويقول: ﴿أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

قوله: «عَنْهُ» أي عن موسى، «مُنَبِّهِم» أي لم يطَّلِع عليه موسى وخفيَ عليه؛ لكنَّ الله منَّ به على الخضر، ولَمَّا علم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ عند الخَضِرِ علماً خَفِيَّ عليه؛ ذهب في طلبه ورحل في تحصيله - وهي قصَّة مشهورة وردَ ذكرها في آواخر سورة الكهف، وكذلك جاء ذكرها في «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) من حديث ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ولم يَمْنَعْهُ ما أتاها الله من علم غزير واصطفاء وتكليم إلى غير ذلك من الفضائل والخيرات والبركات أن يرحل في طلب العلم مع ما فيه من نصبٍ وتعبٍ ومشقَّةٍ.

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٠).

□ قال النّازم رحمه الله:

٤٥- مَعَ فَضْلِهِ بِرِسَالَاتِ الْإِلَهِ لَهُ وَمَوْعِدٍ وَسَمَاعٍ مِنْهُ لِلْكَلِمِ

«مع فضله برّسالات الإله»؛ يشير إلى قوله ﷺ: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

«وموعِد»؛ أي فضله بذلك: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

«وسماعٍ منه للكلّم»؛ أي سماعه لكلام الله من الله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].
مع هذه الفضائل كلّها رَحَلَ ﷺ في طلب العلم؛ وفي هذا دلالة على فضل العلم وفضل الرحلة في تحصيله.

والشيخ عبد الرحمن بن السّعدي رحمه الله من عاداته في «تفسيره» عندما يذكر قصص الأنبياء وغيرها من القصص التي في القرآن يتبعها بذكر الفوائد المستنبطة من القصّة، ففي تفسيره لسورة الكهف لما انتهى من قصّة موسى مع الخضر أخذ يعدّد الفوائد المستنبطة من هذه القصّة وبدأها بقوله: «فمنها فضيلة العلم والرحلة في طلبه، وأنّه أهمُّ الأمور، فإنَّ موسى ﷺ رحل مسافةً طويلةً ولقي النَّصَب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم واختار السّفر لزيادة العلم على ذلك».

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

- ٤٦- وَقَدَّمَ الْمُصْطَفَى بِالْعِلْمِ حَامِلَهُ أَعْظَمَ بِذَلِكَ تَقْدِيمًا لِذِي قَدَمٍ
٤٧- كَفَاهُمُ أَنْ غَدَوْا لِلْوَحِيِّ أَوْعِيَةً وَأَضَحَّتِ الْآيُ مِنْهُ فِي صُدُورِهِمْ
٤٨- وَأَنْ غَدَوْا وَكَلَاءَ فِي الْقِيَامِ بِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا وَتَعْلِيمًا لغيرِهِمْ
٤٩- وَخَصَّهُمْ رَبُّنَا قَصْرًا بِخَشْيَتِهِ وَعَقَّلَ أَمْثَالَهُ فِي أَصْدَقِ الْكَلِمِ

هذه جملة من الفضائل لطالب العلم؛ منها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قدَّم حامل العلم وحامل القرآن على غيره في مناسباتٍ عديدة.

منها التّقديم في الإمامة، يؤمّمهم أقرؤهم لكتاب الله، كما جاء في حديث عمرو بن سلّمة رحمته الله أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤَمِّمْكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا»، قال عمرو بن سلّمة: فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي، لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ^(١).

ومنها التّقديم في الدّفن، كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رحمته الله قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مَنْ قَتَلَ أَحَدًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُم أَكْثَرُ أَخْذَاً لِلْقُرْآنِ؟»؛ فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ^(٢).

وقوله: «لِذِي قَدَمٍ»؛ أي قَدَم في العلم والتّعلّم، أي: له فضلٌ في العلم وسابقة، ويقال: له قدمٌ صدق، وقدمٌ فضل وكرم.

(١) رواه البخاري برقم (٤٣٠٢).

(٢) رواه البخاري برقم (١٣٤٣).

«كفاهُمُو»؛ أي فضلاً وشرفاً يعني أهل العلم، «أَنْ غَدَوْا لِلْوَحْيِ أَوْعِيَةً»؛ أي أصبحت قلوبهم أوعية تحمل العلم، والقلوب أوعية للعلم، منها ما يحمل علماً كثيراً، ومنها ما يحمل علماً قليلاً، ومنها قلوب فارغة لا علم فيها. ومعنى وعَت الوحي أي: حفظته، كما يوضح هذا المعنى الشَّطْر الَّذِي يليه حيث قال: «وَأَضَحَّتِ الْآيُ مِنْهُ» أي من الوحي «فِي صُدُورِهِمْ» كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقوله: «وَأَنْ غَدَوْا وَكَلَاءَ فِي الْقِيَامِ بِهِ»؛ هذه - أيضاً - فضيلة للعلم، وهي أَنَّ أهل العلم أصبحوا وكلاء في القيام بالعلم في أنفسهم قولاً وفعلًا، وفي غيرهم تعليمًا ونصحًا.

ولهذا: فَإِنَّ الْعَالَمَ يَوْقِعُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وينقل للنَّاسِ حُكْمَهُ جَلَّ وَعَلَا، وبهذا عَنْوَنَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَحَدَ كُتُبِهِ بقوله: «إِعْلَامُ الْمَوْقِعِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» يعني العلماء. «وَحَصَّهُمْ رَبُّنَا»؛ أي خَصَّ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَهْلَ الْعِلْمِ «قَصْرًا» يُقَالُ: قَصَرْتُ الشَّيْءَ عَلَى كَذَا إِذَا لَمْ تَجَاوِزْ بِهِ غَيْرَهُ»^(١) أي أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَصَرَ خَشْيَتَهُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ، وفي هذا فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْعِلْمِ، قال ابن سعدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَكُلُّ مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْلَمَ، كَانَ أَكْثَرَ لَهُ خَشْيَةً، وَأَوْجِبَتْ لَهُ خَشْيَةُ اللَّهِ الْإِنْكَفَافَ عَنِ الْمَعَاصِي، وَالِاسْتِعْدَادَ لِلْقَاءِ مَنْ يَخْشَاهُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَةِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَى خَشْيَةِ اللَّهِ، وَأَهْلُ خَشْيَتِهِ هُمْ أَهْلُ كِرَامَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]»^(٢).

(١) «تاج العروس» (مادة قصر).

(٢) «تفسير ابن سعدِي» (ص ٦٨٩).

«وَعَقْلٍ أَمْثَالِهِ»؛ وعقل معطوفٌ على خشية، أي خَصَّهم بالخشية، وأيضًا خَصَّهم بعقلٍ «أَمْثَالِهِ» أي الأمثال التي في القرآن، قال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره»^(١) عن عمرو بن مُرَّة، قَالَ: «مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنَنِي؛ لِأَنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ، يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾».

وكان بعض السلف إذا قرأ مثلاً من القرآن لم يفهمه يشتدُّ بكاءه ويقول: لستُ من العالمين^(٢).

«في أصدق الكلام»؛ أي في القرآن، كما في الحديث: «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ»، ويُنظر كتابُ «إعلام الموقعين» لابن القيم ففيه فصلٌ نافعٌ جدًّا في أمثال القرآن^(٣).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٠- وَمَعَ شَهَادَتِهِ جَاءَتْ شَهَادَتُهُمْ حَيْثُ اسْتَجَابُوا وَأَهْلُ الْجَهْلِ فِي صَمَمٍ

«ومع شهادته»؛ أي مع شهادة الله ﷻ لنفسه بالوحدانية بقوله سبحانه:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣٠٦٤).

(٢) انظر: «الكافية الشافية» لابن القيم (ص ٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٩٤)، (٤/ ٣٦٩).

(٣) «إعلام الموقعين» (١/ ١٥٠ - ١٩٣).

الْحَكِيمُ ﴿آل عمران: ١٨﴾ جاءت شهادتهم، أي قرن الله شهادتهم بشهادته، فهذه فضيلة لأهل العلم، وتشريف لهم، وتعلية لمقامهم أن قرن جلّ وعلا شهادتهم بشهادته في أعظم مشهود به وهو توحيد الله ﷻ.

قال ابن القيم رحمه الله: «استشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجل مشهود به، وهو التوحيد، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم؛ فإنه ﷻ لا يستشهد بمجروح»^(١) انتهى كلامه رحمه الله.

وقوله: «حيث استجابوا»؛ أي استجابوا لله وللرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].
وقوله: «وأهل الجهل في صمم»؛ أي عن الخير، وعن العلم، وعن الفضل، وعن الهدى.

□ قال الناظم رحمه الله:

٥١- وَيَشْهَدُونَ عَلَى أَهْلِ الْجَهَالَةِ بِالْ - مَوْلَى إِذَا اجْتَمَعُوا فِي يَوْمِ حَشْرِهِمْ

يشير إلى قول الله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ

عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والجار والمجرور في قوله: «بالمولى» متعلق بقوله: «إذَا اجْتَمَعُوا» أي: إن من

فضائل أهل العلم أنهم يشهدون على أهل الجهالة إذا اجتمعوا بالله يوم القيامة.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٧٠).

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٥٢- وَالْعَالِمُونَ عَلَى الْعِبَادِ فَضْلُهُمْ كَالْبَدْرِ فَضْلًا عَلَى الدَّرِّيِّ فَاعْتَنِمْ

في هذا البيت بيان فضيلة العالم على العابد، وأن العلماء أفضل من العباد، وأن فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، و«البدر» هو القمر ليلة التمام والكمال في منتصف الشهر.

«كالبدرِ فضلاً على الدَّرِّيِّ»؛ يعني على الكوكب، يدلُّ لذلك حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»^(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذا المثل تشبيهٌ للعالم بالقمر ليلة البدر، وهو نهاية كماله وتمام نوره، وتشبيهٌ للعابد بالكواكب، وأنَّ بين العالم والعابد من التَّفاوت في الفضل ما بين القمر ليلة البدر والكواكب، والسَّرُّ في ذلك - والله أعلم - أنَّ الكوكبَ ضوؤه لا يعدو نفسه، وأمَّا القمر ليلة البدر؛ فَإِنَّ نوره يشرقُ على أهل الأرض جميعاً، فيعمُّهم نوره فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في مسيرهم»^(٢).

«فَاعْتَنِمْ»؛ أي اغتنم حياتك في طلب العلم وتحصيله.

(١) تقدَّم ص (٥٧).

(٢) «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم» (ص ٣٢ - ٣٣).

□ قال النّازم رحمه الله:

٥٣- وعالم من أولي التّقوى أشدُّ على الـ شيطان من ألف عبّادٍ بجمعهم

قوله: «عبّادٍ» صيغة مبالغة من عبّاد، يعني لو اجتمع ألف عبّاد، فعالم واحد تقى الله ﷻ أشدُّ على الشيطان من هؤلاء؛ لأنّ هؤلاء نفعهم قاصرٌ عليهم، أمّا العالم فنفعه يمضي إلى الدنيا ويسري في النّاس، وهذا المعنى يروى فيه حديث أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «فقيه أشدُّ على الشيطان من ألف عبّادٍ»^(١)، وهو ضعيفٌ جدّاً كما في «ضعيف التّرجيب»^(٢) للألباني رحمه الله.

وجاء عند الدارقطني من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ما عبّد الله بشيءٍ أفضل من فقهه في دين، ولّفقيه أشدُّ على الشيطان من ألف عبّادٍ، ولكلّ شيءٍ عبّادٌ، وعماد هذا الدّين الفقه»، فقال أبو هريرة: لأنّ أجلس ساعة فأفقه أحبُّ إليّ من أن أحيي ليلةً إلى الغداة؛ والحديث حكم عليه الألباني في «الضعيفة»^(٣) بالوضع.

وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان»^(٤) الشّطر الأوّل منه من حديث ابن عمر، وقال: «والمحفوظ في هذا اللفظ من قول الزّهري».

(١) «جامع الترمذي» برقم (٢٦٨١)، و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٢٢).

(٢) برقم (٦٦).

(٣) برقم (٤٤٦١).

(٤) (٢/٢٦٥).

□ قال النّازم رحمه الله:

٥٤- وَمَوْتُ قَوْمٍ كَثِيرٌ وَالْعَدَدُ أَيْسَرُ مِنْ حَبْرِ يَمُوتُ مُصَابٌ وَاسِعُ الْأَلَمِ

أي عندما يموت الحَبْر - وهو العالم - يكون موته أعظم من موت أقوام؛ ولهذا يموت أقوامٌ وأعدادٌ كثيرة من البشر وما يشعر بهم النَّاسُ كثيرًا، ويموت العالم فتشعر به الدنيا كلها، ويتألم أهل الإيمان وأهل الإسلام وأهل الفضل لموته. «مُصَابٌ وَاسِعُ الْأَلَمِ»؛ أي موت العالم مصابٌ ألمه واسع، بينما موت غير العالم مصابه ليس واسعًا، وإنّا في محيط أولاده وقرابته ومعارفه ومن لهم به صلة خاصّة.

كما قال الشاعر:

يَمُوتُ قَوْمٌ وَلَا يَأْسَى لَهُمْ أَحَدٌ وَوَاحِدٌ مَوْتُهُ هَمٌّ لَأَقْوَامِ

□ قال النّازم رحمه الله:

٥٥- كَمَا مَنَافِعُهُ فِي الْعَالَمِ اتَّسَعَتْ وَلِلشَّيَاطِينِ أَفْرَاحٌ بِمَوْتِهِمْ

«كَمَا مَنَافِعُهُ فِي الْعَالَمِ اتَّسَعَتْ»؛ أي: أنّ المصائب فيه واسعة؛ لأنّ منافعها اتّسعت في العالم، وهذا كالتعليل لما قبله.

«وَلِلشَّيَاطِينِ أَفْرَاحٌ بِمَوْتِهِمْ»؛ شياطين الإنس والجنّ يفرحون بموت العالم، كما جاء عن أبي جعفر محمد بن عليّ أنّه قال: «والله! لموت عالم أحبّ إلى إبليس من موت سبعين عابدًا» رواه البيهقي في «شعب الإيمان»^(١).

(١) برقم (١٧١٤).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ: مستدرَكًا:

٥٦- تَاللهِ لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا لَمَا فَرَحُوا لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ حَتْفِهِمْ

«تالله»؛ يقسم بالله، «لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا»؛ يعني ولو يسيرًا وقليلًا عن العلم وفضله ومكانة حَمَلَتِهِ، «لما فرحوا» بموت أهل العلم؛ لكن بلاؤهم ومصيبَتُهُمْ من جهة الجهل الذي هو أساس كل شر وبلاء.

«لَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ حَتْفِهِمْ»؛ أي إذا خلت الأرض من العلم ونوره ونور العلماء قامت الساعة.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٥٧- هُمُ الرُّجُومُ بِحَقِّ كُلِّ مُسْتَرَقٍّ سَمْعًا كَشُهِبِ السَّمَاءِ أَعْظَمُ بِشْهِيمٍ

٥٨- لَأَنَّهَُا لِكَلَا الْجَنَسَيْنِ صَائِبَةٌ شَيْطَانِ إِنْسٍ وَجِنَّ دُونَ بَعْضِهِمْ

هنا يبيِّن فضيلة أخرى لأهل العلم، وهي أنَّهم مثل النُّجوم رجومًا للشَّيَاطِينِ. «أَعْظَمُ بِشْهِيمٍ»؛ أي أعظم بشْهِبِ أهل العلم، ومراده أنَّ أهل العلم يتصدَّون لكلِّ مُبْطِلٍ بالرَّدِّ والتَّفْنِيدِ وإبطال الشُّبُهَاتِ وكشف الزَّيغِ، ولهذا سمَّى بعض أهل العلم كتبهم في الرَّدود بـ«الشُّبُهاتِ المرسلة»، «الصَّوَاقِعِ المحرقة» إلى آخره؛ لأنَّ ردود أهل العلم بالحجج البيِّنات بمثابة الشُّبُهات التي تدمِّر باطل أهل الباطل وتكشف زيغ أهل الضَّلال.

«أَعْظَمُ بِشْهِيمٍ» أي: أَمَّا عَظِيمَةٌ جَدًّا؛ «لَأَنَّهَا»؛ أي شُهِبَ أَهْلُ الْعِلْمِ، «لِكَلَا الْجِنْسَيْنِ»؛ يَعْنِي الْجَنِّ وَالْإِنْسَ، «صَائِبَةً، شَيْطَانِ إِنْسٍ وَجِنٍّ دُونَ بَعْضِهِمْ».

يَقُولُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ شَبَّهَ الْعُلَمَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنُّجُومُ فِيهَا ثَلَاثُ فَوَائِدَ: يُهْتَدَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ، وَهِيَ زِينَةُ لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ مِنْهَا، وَالْعُلَمَاءُ فِي الْأَرْضِ تَجْتَمِعُ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَوْصَافُ الثَّلَاثَةُ: بِهِمْ يُهْتَدَى فِي الظُّلُمَاتِ، وَهُمْ زِينَةُ لِلْأَرْضِ، وَهُمْ رُجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يَخْلُطُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُدْخِلُونَ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ»^(١).

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٩- هُمُ الْهُدَاةُ إِلَى أَهْدَى السَّبِيلِ وَأَهْلُ الْجَهْلِ عَنْ هَدْيِهِمْ ضَلُّوا لِلْجَهْلِهِمْ

قَالَ: «هُمُ الْهُدَاةُ»؛ وَهَذَا مِنْ فَضَائِلِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ هُدَاةٌ لِأَهْدَى السَّبِيلِ، وَهُوَ سَبِيلُ النَّبِيِّ ﷺ، «وَأَهْلُ الْجَهْلِ عَنْ هَدْيِهِمْ ضَلُّوا لِلْجَهْلِهِمْ»؛ الْجَهَّالُ ضَلُّوا عَنْ السَّبِيلِ وَعَنِ الْهُدَى بِسَبَبِ تَمَادِيهِمْ فِي الْجَهْلِ.

□ ثُمَّ خَتَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْفَصْلَ بِقَوْلِهِ:

٦٠- وَفَضْلُهُمْ جَاءَ فِي نَصِّ الْكِتَابِ وَفِي الْ- حَدِيثِ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ

لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الْفَضَائِلَ الْكَثِيرَةَ؛ خَتَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْإِشَارَةِ بِأَنَّ فَضْلَهُمْ جَاءَ فِي

(١) «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» (ص ١٦ - ١٧)، وانظر هذه الفوائد في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٥ - ٦٦).

نصّ الكتاب، يعني في مواضع كثيرة جدًّا من القرآن، وكذلك في السُّنَّة ففضائل أهل العلم «أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ» والعَلَم هو الجبل الطَّوِيل وإذا كان في أعلاه نارٌ زاد وضوحًا، وهذا من الأمثال السَّائرة الَّتِي تضرب لما كان مشهورًا شهرة واسعة.

وقد أفرد أهل العلم النُّصوص الواردة في فضل العلم وفضل طَلَّابه في كتب كثيرة، مثل «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البرِّ، و«الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب؛ ليكون فيها شحذٌ للهمم، وطالب العلم بَيْنَ وقت وآخر يحتاج إلى أن يقرأ في فضل طلب العلم وفضل العلماء؛ لأنَّ هذه الفضائل إذا حضرت في ذهنه زاد حرصه على الطَّلب والتَّحصيل، وكذلك - أيضًا - يقرأ في سِيرِ أهل العلم الأفاضل النُّبلاء الَّذِينَ عرفوا فضل العلم ومكانته فصرفوا فيه أوقاتهم وبذلوا فيه جهودهم؛ فانتفعوا ونفعوا، والموفق ربُّ العرش لا شريك له.



نبذة في وصية طالب العلم

بدأ الناظم رَحِمَهُ اللهُ بِذِكْرِ هَذِهِ النُّبْذَةِ الطَّيِّبَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْوَصَايَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، فَقَالَ: «نُبْذَةٌ فِي وَصِيَّةِ طَالِبِ الْعِلْمِ»؛ أَيِ مَا يُوصَى بِهِ طَالِبُ الْعِلْمِ مِنَ الْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي هِيَ عُنْوَانُ فَلَاحِهِ وَسَعَادَتِهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ طَالِبُ الْعِلْمِ مُتَحَلِّيًا بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالْآدَابِ الرَّفِيعَةِ لَا يَنَالُ ثَمَرَةَ الْعِلْمِ.

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٦١- يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَبْغِي^(١) بِهِ بَدَلًا فَقَدْ ظَفِرْتَ وَرَبَّ اللَّوْجِ وَالْقَلَمِ

بدأ هذه النُّبْذَةُ الطَّيِّبَةُ بِهَذَا النَّدَاءِ اللَّطِيفِ: «يَا طَالِبَ الْعِلْمِ»؛ أَيِ يَا مَنْ أَكْرَمَكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَمَنْ عَلَيْكَ بِاللَّحَاقِ بِهَذَا الرِّكْبِ الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ، وَيَسَّرَ لَكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَطَلَّابِهِ، قَاصِدًا بِهَذَا النَّدَاءِ التَّنْبِيهِ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ هَذَا الْإِنْتِسَابُ مِنْ حَقُوقٍ وَآدَابٍ وَوَاجِبَاتٍ تَلْزِمُ كُلَّ سَالِكٍ هَذَا الْمَسْلَكِ الْمُبَارَكِ. وَقَوْلُهُ: «لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا»؛ أَيِ: لَا تَبْغِ بِالْعِلْمِ بَدَلًا آخَرَ، فَالْعِلْمُ أَفْضَلُ مُطْلُوبٍ، وَأَشْرَفُ أَمْرٍ تُشْغَلُ فِيهِ الْأَنْفَاسُ، وَتُمْضَى فِيهِ الْأَوْقَاتُ، فَأَنْتَ فِي خَيْرٍ عَظِيمٍ، وَفَضْلٍ عَمِيمٍ.

وَيُلِمَحُ بِهَذَا إِلَى أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَا بَدَأَ أَنْ يَمُرَّ عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا مَا يَشْغُلُهُ عَنِ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَيَصْرِفُهُ عَنْ تَحْصِيلِهِ، فَالْصَّوَارِفُ كَثِيرَةٌ، وَالصَّوَادُ

(١) لم تحذف الياء لضرورة الوزن.

عديدة، ولا بدَّ من مجاهدة النَّفس والاستمرار في طلب العلم والمداومة على تحصيله كلَّما ورد صارفٌ أو عرض صاُدُّ «فَقَدْ ظَفَرْتُ وَرَبَّ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ»؛ أي: إن مضيت صابراً محتسباً جاداً مجتهداً في العلم وتحصيله فُزْتُ بأعظم ربحٍ وأكبر غنيمةٍ.

«وَرَبَّ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ»؛ يُقَسِّمُ بالله جَلَّ وَعَلَا، وَخَصَّ اللَّوْحَ وَالْقَلَمَ بِالذِّكْرِ فِي هَذَا الْقِسْمِ؛ لِأَنَّهَا زَادُ طَالِبِ الْعِلْمِ، وَلَا غِنَى لَطَالِبِ الْعِلْمِ عَنِ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وَذَكَرَ رَبُوبِيَّةَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا لِلَّوْحِ وَالْقَلَمِ يَتَضَمَّنُ تَذْكِيرَ طَالِبِ الْعِلْمِ بِاسْتِشْعَارِ مَنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يَسَّرَ لَهُ أَنْ يُمَسِكَ الْأَوْرَاقَ وَالْأَقْلَامَ، وَيَسْطَرَّ بِهَا خَيْرَ الْكَلَامِ وَخَيْرِ الْهُدَى، وَإِلَّا كَمِ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْمِلُونَ الْأَقْلَامَ وَالْأَوْرَاقَ وَيَكْتُبُونَ بِهَا الْبَاطِلَ وَالضَّلَالَ وَالْكَفَرَ، وَالصَّدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ.

٦٢- وَقَدِّسِ الْعِلْمَ وَاعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْآدَابِ فَالْتَزِمِ

«وَقَدِّسِ الْعِلْمَ»؛ «التَّقْدِيسُ»: التَّنْزِيهِ أَي نَزَّهَ الْعِلْمَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ وَمَا لَا يَلِيقُ بِطُلَّابِهِ؛ وَلِهَذَا يَنْبَغِي عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَحْتَرِمَ الْعِلْمَ وَأَنْ يَحْتَرِمَ كِتَابَ الْعِلْمِ وَأَنْ يَحْتَرِمَ حَمَلَةَ الْعِلْمِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلِّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالَمِنَا حَقَّهُ»^(١).

وقوله: «فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ»؛ أَي لِيَكُنْ تَقْدِيسُكَ لِلْعِلْمِ وَمَعْرِفَتُكَ بِقَدْرِهِ

(١) رواه أحمد برقم (٢٢٧٥٥) والحاكم (٢١١ / ١) من حديث عبادة بن الصَّامِتِ رضي الله عنه، وحسنه الشَّيْخُ الْأَبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ» برقم (١٠١).

في أقوالك وأفعالك، مشيرًا بذلك إلى أن الآداب التي تُراعى في حقِّ العلم منها آدابٌ قوليةٌ، ومنها آدابٌ فعليةٌ، وسيأتي عند الناظم رَحِمَهُ اللهُ ذكر شيءٍ منها.

قال: «والآدابُ فالترزيمُ»؛ «الآدابُ» مفعول به مقدَّم، أي التزم بآداب طلب العلم.

وهذا بابٌ عظيم، أفردَه أهل العلم بكتابات نافعة، ومصنَّفات مفيدة.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٦٣- واجْهَدْ بِعَزْمٍ قَوِيٍّ لَا انْتِنَاءَ لَهُ لَوْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ قَدْرَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْمِ

«وَاجْهَدْ بِعَزْمٍ قَوِيٍّ»؛ أي ابذل جُهدَكَ في طلب العلم بعزيمةٍ قويةٍ، وفي الدُّعاء الماثور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ»^(١).

«لَا انْتِنَاءَ لَهُ»؛ أي لا يكون مع هذا العزم القويَّ والجِدُّ والاجتهاد ما يُثنيه أو يُضعفه ويجعله يتوانى ويكسل وَيَفُتِّرُ.

«لَوْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ قَدْرَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْمِ»؛ لو أنَّ المرءَ يعرف قدر العلم ومكانته وآثاره وثماره عليه في الدنيا والآخرة؛ لم يَنْمِ، وليس المراد بعدم النَّوم أن لا ينام مطلقًا إذ هذا غير ممكن، وإنَّما المراد أنَّه لا ينام إِلَّا عند غلبة النَّوم عليه وشدة احتياجه له، لا أنَّه ينام النَّوم المتواصل الطَّويل الَّذي يجلب له الفتور والكسل والخمول وضعفَ الذَّهن، ولهذا كان العلم الَّذي هو الشُّغل الشَّاغل للسَّلف يقطع

(١) رواه الطَّبْراني في «المعجم الكبير» (٣٣٥/٧) من حديث شَدَّاد بن أَوْس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وإسناده جيّد، كما في «السُّلسلة الصَّحيحة» رقم (٣٢٢٨).

عليهم نومهم كلما استذكروا شيئاً من مسائله.

جاء في ترجمة الإمام البخاري رحمته الله أنه كان يستيقظ في الليلة الواحدة أكثر من مرة، فيوقد السراج، ويكتب الفائدة تمرُّ على خاطره، ثم ينام، قال محمد بن حاتم الوراق: «كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ، فكنت أراه يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة فيؤري ناراً بيده ويسرج، ويخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه»^(١)، وقد قال الله في وصف أهل الإيمان: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

□ قال الناظم رحمته الله:

٦٤- والتَّصَحَّحُ فابْذُلْهُ لِلطُّلَابِ مُحْتَسِبًا فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ وَالْأُسْتَاذَ فَاحْتَرِمِ

«والتَّصَحَّحُ فابْذُلْهُ لِلطُّلَابِ»؛ أي كُنْ ناصحاً لهم، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديث تميم بن أوس الدَّارِي: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»^(٢).

و«التَّصَحَّحُ» هو إرادة الخير للغير، وأنْ تحبَّ لهم ما تحبُّ لنفسك، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ أَكْرَمَكَ بحظٍّ من العلم ونصيبٍ منه؛ فأوصلْ هذا الخيرَ الَّذِي أَكْرَمَكَ الله به إلى الآخرين؛ لينتفعوا به كما انتفعت، وليُفيدوا منه كما استفدت. «فابْذُلْهُ»؛ أي قدِّمه للآخرين بقلبٍ شفيق، ووجهٍ طليق، ومعاملةٍ حسنة.

(١) «هدي السَّاري» (ص ٤٨١).

(٢) رواه مسلم برقم (٥٥).

«محتسباً»؛ أي الأجر والثواب من الله ﷻ في بذل العلم لطلابه، لا ترجو منهم شيئاً، وإنما ترجو من الله وتحتسب ذلك ثواباً وأجرًا عند الله ﷻ، وتجعل ذلك من جملة قرباتك وطاعاتك التي تتقرب بها إلى الله ﷻ.

«في السرّ»؛ أي ابذل لهم النصيحة سرّاً بينك وبين آحاد الطلاب، ولا سيما عند إرادة نصحه وتنبهه على بعض الأخطاء والمخالفات؛ فإنّ النصيحة إذا أُسديت سرّاً كانت أبلغ في التأثير والفائدة، ذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ أَنْ السَّلف كانوا يكرهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان على وجه التشهير بالمخطئ على رؤوس الملائم، ثم قال: «ويحبون أن يكون سرّاً فيما بين الأمر والمأمور، فإنّ هذا من علامات النصيحة، فإنّ الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها؛ وأمّا الإشاعة وإظهار العيوب فهو ممّا حرّمه الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآيتين [النور: ١٩، ٢٠]، والأحاديث في فضل السرّ كثيرة جدّاً»^(١).

قوله: «والجهر»؛ أي الجهر في الدروس العامة كالخطابة والمحاضرات والكلمات التي تشمل الجميع والنفع العام في المجالس وإفادة الناس، فتكون دائماً حريصاً على بذل الخير بجميع الوسائل، وفي عصرنا استجدّت بعض الوسائل يمكن الاستفادة منها في بث العلم ونشره كـ«الانترنت» و«الجوّالات».

(١) «الفرق بين النصيحة والتّعير» (ص ١٧).

وهذا البذل يزيدُ العلم، كما قال الإليريُّ في وصيَّته لابنه^(١):

وكنز لا تخاف عليه لَصًّا خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفا شددتا

فالعلم إذا أمسكه صاحبه ولم يُفد به الآخرين نقص، كما قال عبد الله ابن المبارك: «من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إمّا موتٌ يذهب علمه، وإمّا ينسى، وإمّا يلزمُ السُّلطان، فيذهب علمه»^(٢).

ولكن إذا بذلت العلم وقدمت النصيحة إلى الآخرين زاد علمك ونمي، وهذا من جزاء الحسنة بالحسنة، فمن أحبَّ الخير لعباد الله وفقه الله للخير، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وجرى لك ثوابه بعد موتك للحديث: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٣).

وقوله: «والأستاذ فاحترم»؛ وهذا مهمٌ جدًّا في الطُّلب: أن يكون طالب العلم على قدر عال من الاحترام لمعلمه.

وعلى قدر هذا الاحترام تتحقّق الفائدة ويعظم الخير، والعكس بالعكس.

قال الشَّيخ مُحَمَّد بن مانع رَحِمَهُ اللهُ: «ولا ينبغي له أن يكون لئيمًا يغتاب معلّمه ومن يشاركه في الدّرس من الطُّلبة، ويقابل الحسنة بالسيّئة، كما شاهدنا

(١) «ديوان أبي إسحاق الإليري» (ص ٢٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٣٩٨).

(٣) رواه مسلم برقم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ.

ذلك من كثير من الطلاب، حتَّى حُرِّموا العلم بسبب ذلك، بل الواجبُ عليه الاعتراف بفضله، والدُّعاء له، ونشر محاسنه، والكفُّ عن مساوئه»^(١).

ولهذا يُخصَّص أهل العلم في كُتُب الآداب فصولاً في أدب طالب العلم مع شيخه، وحديث جبريل فيه جملةٌ من هذه الآداب.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٥- وَمَرْحَبًا قُلْ لِمَنْ يَأْتِيكَ يَطْلُبُهُ وَفِيهِمْ أَحْفَظُ وَصَايَا الْمُصْطَفَى بِهِمْ
أي إذا أصبحت مؤهلاً للتعليم، وأتاك طلاب العلم يتلقون العلم على يديك؛ فعليك أن تُقابلهم بصدرٍ رَحِبٍ، ولتكن نفسك معهم طيِّبةً، ومعاملتك معهم حسنةً، تتلقَّاهم بالبِشْرِ والخفاوة والترَّحيب؛ لأنَّهم تغرَّبوا عن أوطانهم وتركوا ديارهم، وعطَّلوا كثيراً من مصالحهم رغبةً في هذا العلم، فهم جاؤوا لأمرٍ شريف، ومقصدٍ نبيل، فأمثال هؤلاء حقُّهم أن يُتلقَّوا بالترَّحيب وحسن المعاملة؛ ولهذا في تراجم أهل العلم يذكر في أوصاف بعضهم أنَّه كان حَسَن التَّوَدُّد، وهذه خصلة طيِّبةٌ مهمَّةٌ في العالم والأستاذ؛ أن يكون حسن التَّوَدُّد بالبشاشة والطلاقة والابتسامة وحسن المعاملة.

روى الإمام أحمد بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم قال: نزل علينا أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالكوفة، قال: فكان بينه وبين مولانا قرابة (وهو مولى الأحمس)، فاجتمعت أحمس، قال قيس: فأتينا نسلِّم عليه، فقال له أبي: يا أبا هريرة! هؤلاء

(١) «إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب» (ص ٨٢).

أَنْسِبَاؤُكَ أَتَوْكَ يَسْلُمُونَ عَلَيْكَ، وَتَحَدِّثُهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَرْحَبًا بِهِمْ وَأَهْلًا»^(١).

فهذا التَّرحيب الرَّفيع يَزِيد من هَمَّةِ الطَّالِبِ وَيَقْوِي رَغْبَتَهُ، وَلِهَذَا أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ يُتَلَقَّى طُلَّابُ الْعِلْمِ بِالتَّرحيبِ، وَكَانَ هَذَا مِنْ هَدْيِهِ إِذَا أَتَتْهُ الْوُفُودُ لَطَلِبِ الْعِلْمِ وَالْأَخْذُ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَفَدَ عَبْدُ الْقَيْسِ - وَالْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحِينَ» - قَالَ: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ غَيْرِ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى»^(٢).
و«مَرْحَبًا»؛ هِيَ كَلِمَةُ تَرْحِيبٍ، أَيْ حَلَلَتْ فِي مَكَانِ رَحْبٍ وَبَيْنِ إِخْوَةٍ يُحِبُّونَكَ.

«وَفِيهِمْ أَحْفَظُ وَصَايَا الْمُصْطَفَى بِهِمْ»؛ أَيْ كُلُّ مَا أَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَقِّ طَالِبِ الْعِلْمِ فَاحْفَظْهُ، وَمِنْ ذَلِكَ التَّرحيبُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَأَنْ يُتَلَقَّى بِهِذِهِ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ: «مَرْحَبًا».

وَالنَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ يُشِيرُ إِلَى مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَأْتِي أَبَا سَعِيدٍ فَيَقُولُ: «مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ، وَإِنَّ رِجَالًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَفْطَارِ الْأَرْضِينَ؛ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا»^(٣).

(١) «المسند» (٧٩٨٦).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٣)، ومسلم برقم (١٧) من حديث أبي حمزة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه التِّرْمِذِيُّ برقم (٢٦٥٠)، وابن ماجه برقم (٢٤٧).

وَفِي إِسْنَادِهِ أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ وَهُوَ ضَعِيفٌ؛ وَلَكِنْ لَهُ طَرِيقٌ آخَرٌ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي «المستدرک» (١/ ١٦٤) عَنْ أَبِي نُضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ

فهذه وصية ثابتة عن رسول الله ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بطلاب العلم، ولم يحدّد شيئاً معيّناً يوصي نحوهم به وهذا يفيد العموم يفيد تنكير «خَيْرًا»، فشمّل ذلك كلّ ما يمكن أن يقدّمه العالم من خير قوليّ أو فعليّ لطلاب العلم.

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

٦٦- وَالنِّيَّةَ اجْعَلْ لَوَجْهِ اللهِ خَالِصَةً إِنَّ الْبِنَاءَ بَدُونِ الْأَصْلِ لَمْ يَقُمْ

أي: اجعل نيّتك خالصةً لوجه الله، وفي الحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(١).

وطلب العلم عبادةً، كما قال الإمام الزُّهري رَحِمَهُ اللهُ: «ما عبد الله بمثل العلم»^(٢)، والعبادة لا تُقبل إلّا بالإخلاص لله ﷻ.

فعلى طالب العلم أن يصحّح نيّته في كلّ وقت وحين بمجاهدة مستمرة للنفس، يقول سفيان الثوري: «ما عالجْتُ شيئاً أشدَّ عليّ من نيّتي؛ لأنّها تنقلب

رسول الله ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يوصينا بكم»، وصحّحه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال العلائي في «بغية الملتبس»: «إسناده لا بأس به»، وللحديث طرق أخرى ذكرها الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٨٠).

(١) رواه البخاري برقم (١)، ومسلم برقم (١٩٠٧).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٤٦٩٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٠).

عليّ»^(١)، فالشيطان يأتي طالب العلم إذا جلس في مجالس العلم يقول: اجتهد حتى يقال: عالم! حتى يكون لك شهرة! حتى يكون لك صيت! وينفخ فيه ليفسد عليه نيته، ولهذا فالنية تحتاج إلى معالجة، والطالب يحتاج أن يصحح نيته دائماً، وأن يبعد نفسه عن الرياء والسُّمعة وحبِّ الظهور وحبِّ الشهرة وما إلى ذلك، ويجعل طلبه للعلم من جملة أعماله الصالحة التي يتقرب بها إلى الله ﷻ، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «العلم لا يعدُّه شيء»^(٢). وقال مهنا: «قلت لأحمد: حدثنا ما أفضل الأعمال؟ قال: طلب العلم، قلت: لمن؟ قال: لمن صحَّت نيته. قلت: وأي شيء يصحُّ النية؟ قال: ينوي؛ يتواضع فيه وينفي عنه الجهل»^(٣). «إِنَّ الْبِنَاءَ بِدُونِ الْأَصْلِ لَمْ يَقُمْ»؛ أي لا يقوم البناء إلا على أصوله وأعمدته، فكَذَلِكَ الدِّينَ لَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى أَصْلِهِ وَعِمَادِهِ، أَلَا وَهُوَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا وابتغاء وجهه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

و«الإخلاص»: هو قصد وجه الله - تعالى - وحده، وهو التَّوْحِيد. وفي هذا إشارة إلى أهميَّة علم التَّوْحِيد، فكما أنَّ البيت لا يقوم إلا على عِمَادِهِ، والشَّجَرَةُ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى أَصْلِهَا؛ فَكَذَلِكَ بِنَاءُ الدِّينِ لَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى أَصْلِهِ وَأَسَاسِهِ وَهُوَ التَّوْحِيد، فإذا لم يكن العلم قائماً على التَّوْحِيد فلا نفع فيه.

(١) «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب البغدادي (٦٩٢).

(٢) انظر: «الآداب الشَّرعية» لابن مفلح (٣٥ / ٢).

(٣) نفسه (٣٧ / ٢).

□ ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحَدِّثًا مِنْ بَعْضِ الْأُمُور الَّتِي تَحْرِمُ النَّيَّةَ الصَّالِحَةَ:

٦٧- وَمَنْ يَكُنْ لِيَقُولَ النَّاسُ يَطْلُبُهُ أَخْسِرُ بِصَفْقَتِهِ فِي مَوْقِفِ النَّدَمِ

قوله: «وَمَنْ يَكُنْ لِيَقُولَ النَّاسُ يَطْلُبُهُ»؛ أي: من يطلب العلم؛ لأجل أن يقول النَّاسُ عنه طالب علم أو عالم أو فقيه، أو يقال عنه كذا وكذا من الأوصاف والألقاب، فَإِنَّ صَفْقَتَهُ خَاسِرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ حَصَلَ شَيْئًا مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا.

«أَخْسِرُ بِصَفْقَتِهِ»؛ أي قُلْ مَا أَخْسِرُ صَفْقَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَمَا يَحْصُلُ النَّاسُ الْأَجُورَ عَلَى الْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، وَأَمَّا هُوَ لَا يَحْصُلُ شَيْئًا عَلَى جَدِّهِ وَاجْتِهَادِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَطْلُبِ الْعِلْمَ لَوَجْهِ اللَّهِ ﷻ، وَإِنَّمَا طَلَبَهُ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَرْوِيهِ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيٌّ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ مُحِبٌّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ

فَعَلَتْ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).
فهذا اجتهد في الحياة الدنيا حفظًا وتعلُّمًا وتفقهًا ومجالسةً لأهل العلم
وكتابةً للعلم، وبذل في ذلك جهودًا كثيرة ثم يأتي يوم القيامة ويُسحب إلى
النَّار، بل يكون من أوَّل من تُسَعَّرُ بهم النَّار؛ لفساد نيَّته.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي شرحه لهذا الحديث: «فيه دليلٌ على تغليظ تحريم
الرِّياء، وشِدَّة عقوبته، والحثُّ على وجوب الإخلاص في الأعمال كما قال الله
تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وفيه أنَّ العمومات
الواردة في فضل الجهاد إنَّها هي لمن أراد الله - تعالى - بذلك مخلصًا، وكذلك
الثَّناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات كُلُّهُ محمولٌ على من فعل ذلك
لله تعالى مخلصًا»^(٢) انتهى.

وقوله في تمام البيت «فِي مَوْقِفِ النَّدَمِ»؛ أي يوم القيامة، حيث يندم أكثر
الخلق، ولا ينفعهم يومئذٍ ندمهم.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٨- وَمَنْ بِهِ يَبْتَغِي الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَظٍّ وَلَا قَسَمٍ
«وَمَنْ بِهِ يَبْتَغِي الدُّنْيَا»؛ أي يطلب العلم للدُّنيا؛ كالرَّئاسة والرَّعامة والمال
والجاه والمناصب إلى غير ذلك.

(١) رواه مسلم برقم (١٩٠٥).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (٣/١٥١٣).

«فليس له يوم القيامة من حظ ولا قسم»؛ أي ليس له يوم القيامة حظ ولا نصيب من ثواب الله ﷻ وأجره؛ لأنه كان يريد به الدنيا، وسيشير الناظم رحمه الله إلى بعض الأدلة في هذا الباب، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أي ربحها. رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه ابن حبان والحاكم^(١).

□ ثُمَّ ذَكَرَ النَّاطِمُ الْأَدْلَةَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ:

٦٩- كَفَى بِ (مَنْ كَانَ) فِي شُورَى وَهُودٍ وَفِي الْإِسْرَاءِ مَوْعِظَةً لِلْحَازِقِ الْفَهْمِ

أي يكفي دليلاً على ما قرّر في البيت السابق قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ﴾ في هذه السور الثلاث في سورة الشورى، وفي سورة هود، وفي سورة الإسراء. في سورة الشورى قال جلّ وعلا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وفي سورة هود قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾^(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا التَّكَاُفُّ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وفي سورة الإسراء قال جلّ وعلا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا

(١) «سنن أبي داود» برقم (٣٦٦٤)، و«ابن ماجه» برقم (٢٥٢)، و«صحيح ابن حبان»

برقم (٧٨)، و«المستدرک» (١/ ١٦٠).

مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿[الإسراء: ١٨]﴾، فهذه ثلاثة مواضع في القرآن كُلُّهَا صُدِّرَتْ بقوله: ﴿مَنْ كَانَ﴾، وَكُلُّهَا تَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ يَبْتَغِي بِالْعِلْمِ الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حِظٍّ وَلَا نَصِيبٍ.

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧٠- إِيَّاكَ وَاحْذَرْ مُمَارَاةَ السَّفِيهِ بِهِ كَذَا مُبَاهَاةَ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا تَرْمِ

جاء في «جامع» الترمذي عن كعب بن مالك، عن أبيه رحمته الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(١)؛ ولهذا قال النّازم: «إِيَّاكَ وَاحْذَرْ مُمَارَاةَ السَّفِيهِ بِهِ»؛ أي لا يكن من مسلكك في العلم أن تحصله وتطلبه من أجل مماراة السفهاء أو من أجل مباهاة العلماء، يتباهى بعلمه في مجالس أهل العلم أو يبرز نفسه ليُقَال هو أعلم من العالم الفلاني وأدرى منه، فإنّ هذا ممّا يخرجُ النّيّة، وبعض المبتلين بهذا ربّما أنّه يبحث مسألة من الدقائق، ويحرص على إتقانها ثمّ يثيرها في بعض المجالس وليس له همٌّ في تدقيق هذه المسألة وبحثها، والتّوسّع فيها إلّا أن يبرز من أجل المباهاة، وآخر يبحث في المسائل من أجل مماراة السفهاء والخصومات والجدل.

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٤) وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلّا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم تُكَلَّم فيه من قبل حفظه». وحسّنه الشّيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٢٥٩).

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٧١- فَإِنَّ أَبْغَضَ كُلِّ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ إِلَى الْإِلَهِ أَلَدُّ النَّاسِ فِي الْخِصَمِ
كما في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا المتفق على صحّته أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ
أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ أَلَدُّ الْخِصَمِ»^(١).

«الألدُّ»: مأخوذٌ من لَدَيْهِ الوادي وهما جانباه؛ لَأَنَّهُ كَلَّمَا احتجَّ عليه
بحجّة أخذ في جانب آخر، وقيل: مشتقٌّ مِنْ لَدَيْهِ العنق وهما صَفْحَتاه؛
و«الخصم»: المولع بالخصومة، والماهر بها^(٢).

فمن كان بهذه الصّفة صاحبٌ لَدَدٍ في الخصومة، يتفنّن، وعنده مهارة
يذهب بخصمه هنا وهناك، همُّهُ أَنْ يظْهَرَ وَيَغْلِبَ وَيُفْحِمَ خصمه، فمن كان
بهذه الصّفة فهو أبغض الرّجال إلى الله ﷻ، وقد قال الله في القرآن في سورة
البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٧٢- وَالْعُجْبَ فَاخْذَرُهُ إِنَّ الْعُجْبَ مُجْتَرِفٌ أَعْمَالَ صَاحِبِهِ فِي سَبِيلِهِ الْعَرِمِ
«والعُجْبَ فَاخْذَرُهُ»؛ هذا - أيضًا - من الأمور الّتي تخلُّ بالنيّة، والعُجب:

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٥٧)، ومسلم برقم (٢٦٦٨).

(٢) راجع «شرح النووي على مسلم» (٢١٩/١٦).

رؤية النفس والتَّعالي على النَّاس والتَّرفُّع عليهم، وهو خلقٌ ذَمِيمٌ لا يليقُ بآحاد النَّاس من المسلمين؛ فكيف بطالب العلم الَّذي أكرمه الله ﷻ بالعلم ومنَّ عليه بالفهم والفقهِ، وطالب العلم كلَّما كان مستشعرًا مِنَّة الله عليه وتفضُّله عليه بالعلم، وأنَّه لو لا فضلُ الله عليه ورحمته ما حصَّل من العلم شيئًا؛ ذهب عنه العُجب، وعُمِر قلبه بالإخلاص.

ولهذا؛ فإنَّ دواء العُجب كما في القرآن أن تقول: «ما شاء الله لا قوَّة إلَّا بالله»: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]، أن تذكر نعمة الله عليك، وأنَّ الأمور كلَّها بمشيئته، وأنَّه لا قوَّة لك إلَّا بالله ﷻ، وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وأنَّه ﷻ المعطي المانع الرَّافع الخافض القابض الباسط، والأمر كلُّه بتدبيره ومنَّه وفضله جَلَّ وَعَلَا.

ثمَّ بيَّن - رحمه الله عليه - خطورة العُجب الشَّديدة على الإنسان بقوله: «إِنَّ الْعُجْبَ مُجْتَرِفٌ أَعْمَالَ صَاحِبِهِ فِي سَبِيلِهِ الْعَرِمِ».

فشبه العُجب بالسَّيل الجارف العَرِم الَّذي يدمِّر ما أمامه، فالإنسان عندما يُصاب بداء العُجب؛ يجترِفُ أعماله الصَّالحة كلَّها فلا يبقى منها شيئًا.

أورد الحافظ المنذري في كتابه «التَّرجيب والتَّرهيب» تحت باب «التَّرهيب من الدَّعوى في العلم والقرآن»، أورد فيه أحاديث؛ منها حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُظْهَرُ الْإِسْلَامُ حَتَّى تَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي الْبَحْرِ، وَحَتَّى تَخُوضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ يَقُولُونَ:

مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟! ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ فِي أَوْلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: «أَوْلَيْكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَوْلَيْكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».

قال المنذري: «رواه الطبراني في «الأوسط»، والبيزار بإسناد لا بأس به»، وحسنه الألباني لغيره رَحِمَهُمُ اللَّهُ^(١).

والعُجب عندما يُصاب به طالبُ العلم يُجرُّه إلى الكِبَر، وإلى التَّعالي على النَّاسِ، والتَّرفُّع على عباد الله، والعلوُّ في الأرض، وقد جاء في الحديث عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٢).

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ:

٧٣- وَبِالْمُهَمِّ الْمُهِمِّ ابْدَأْ لِتُدْرِكَهُ وَقَدِّمِ النَّصَّ وَالْآرَاءَ فَاتَّهِمِ

هذه وصية عظيمة جدًا، ما أحوج طالب العلم المبتدئ لمعرفة.

وكثيرًا ما يتخبط المبتدئون في هذا الأمر، وربما تسبب لهم ذلك بعدم المواصلة والمضي في طلب العلم، بينما إذا أخذ الأمور مأخذًا صحيحًا، وأتى الأمور من أبوابها الصحيحة؛ أدرك بإذن الله جَلَّ وَعَلَا مع الأيام والوقت خيرًا عظيمًا.

«وَبِالْمُهَمِّ الْمُهِمِّ ابْدَأْ لِتُدْرِكَهُ»؛ أي العلم وتحصل منه خيرًا كثيرًا، تدرج في طلبه، وهذه قاعدة مفيدة لطالب العلم وهي مستفادة من قوله تعالى:

(١) «صحيح التَّرمِيز والتَّهْيِيب» رقم (١٣٥).

(٢) رواه مسلم برقم (٩١).

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٨].
وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

مَا أَكْثَرَ الْعِلْمَ وَمَا أَوْسَعُهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَجْمَعَهُ
إِنْ كُنْتَ لَا بَدَلَهُ طَالِبًا مُحَاوَلًا فَالْتَمِسْ أَنْفَعَهُ

ولهذا؛ فإنَّ طالب العلم ينبغي له أن يتدرَّج في أخذ العلم، لا أن يروم أخذه جملةً واحدةً، وحفظه في مرَّةٍ واحدةٍ أو في جلسات قلائل، بل يتدرَّج في مسائل العلم شيئاً فشيئاً حتَّى يحصلَ مع مرَّ الأيام منه خيراً كثيراً.

يقول الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، نُقل عن بعض السلف أنَّه قال في معنى الرِّبَّاني، قال: «الَّذِي يَرِيَّ النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ»، ذكره البخاريُّ في «صحيحه»^(١)، قال الحافظ في «مقدمة الفتح»^(٢): «أي بالتدريج».

وهذا أمر يحتاج إليه المبتدئ حاجةً شديدةً، وإذا وُقِّعَ لعالم يتدرَّج به في طلب العلم؛ يحصل - بإذن الله - مع الأيام خيراً كثيراً.

(١) تحت باب: العلم قبل القول والعمل (ص ١٦) ط. دار السلام.

(٢) (ص ١٢١).

قد يسأل بعض المبتدئين بعض طلاب العلم عما يبدأ به في الطَّلَب، فيُملَى عليه كتبًا كثيرة! ومثل هذا لا يصلح أن يُملَى عليه قائمة من الكتب، بل يُعطى كتابًا واحدًا فيه أمّهات مسائل الدِّين وأصوله وقواعد الشريعة، ويوصى بحفظه وتكراره حتّى يكون له كالقاعدة، ثمّ بعد ذلك يدخل شيئًا فشيئًا بالتدرّج، ولهذا أحسن ما يوصى به المبتدئ «الأربعين النووية»، ولا يعطى غيرها، ثمّ بعد ذلك يُتدرّج معه في الكتب: في التَّوحيد، وفي العبادات، وفي الآداب، وفي التفسير، وفي الفقه، وغير ذلك.

جاء عن الإمام الزَّهري رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ جَمَلَةً فَاتَهُ جَمَلَةٌ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُ الْعِلْمَ حَدِيثٌ وَحَدِيثَانٌ»^(١).

أي يمضي به بالتدرّج شيئًا فشيئًا، وهذا المعنى مستفاد من قول النَّبِيِّ ﷺ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوُمُهَا وَإِنْ قَلَّ» متَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

نَحْفَظُ فِي الْيَوْمِ حَدِيثًا وَاحِدًا، وَتَسْتَمِرُّ عَلَى هَذَا، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَحْفَظَ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ مِائَةَ حَدِيثٍ وَتَقِفَ، فَالْشَّيْءُ الَّذِي يَأْتِي بِالتَّدرِّجِ، بِالصَّبْرِ وَالْإِنَاتَةِ وَالْإِتْقَانِ، هُوَ الَّذِي يَكُونُ لَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ الثَّمَرَةُ النَّافِعَةُ وَالْعَاقِبَةُ الطَّيِّبَةُ، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

الْيَوْمَ شَيْءٌ وَغَدًا مِثْلُهُ مِنْ نَحْبِ الْعِلْمِ الَّتِي تُلْتَقَطُ
يَحْصُلُ الْمَرْءُ بِهَا حِكْمَةٌ وَإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقْطِ

(١) «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب البغدادي (٤٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٢)، و«صحيح مسلم» برقم (٧٨٣) - واللفظ له -

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

ثُمَّ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدَّمَ النَّصَّ وَالْأَرَءَ فَاتَّهِمُوا»؛ وَهَذَا فِيهِ الْحُثُّ عَلَى تَقْدِيمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى الْآرَاءِ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّهِمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ»^(١)، وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ بَاطِنُ الْخَفِّ أَحَقَّ بِالْمَسْحِ مِنْ أَعْلَاهُ»، وَأَثَرُ عَلِيٍّ فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» وَ«سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ»^(٢)، وَقَالَ عَنْهُ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»^(٣): «رَجَالَ إِسْنَادِهِ ثِقَاتٌ»، وَحَسَّنَ إِسْنَادَهُ فِي «بُلُوغِ الْمَرَامِ»^(٤)، وَأَيْضًا: جَوْدَ إِسْنَادِهِ ابْنَ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «إِعْلَامُ الْمُوقِّعِينَ»^(٥) فِي أَوَائِلِ الْكِتَابِ، وَلَهُ كَلَامٌ عَظِيمٌ جَدًّا وَتَقْسِيمٌ مُفِيدٌ حَوْلَ الرَّأْيِ الْمَذْمُومِ.

وَالوَاجِبُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَقْدَّمَ النَّصَّ (كَلَامَ اللَّهِ وَكَلَامَ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)، وَأَنْ يَتَّهِمَ الرَّأْيَ فِي الدِّينِ، وَالْأَمْرُ كَمَا قِيلَ: «إِذَا جَاءَ الْأَثَرُ بَطَلَ النَّظَرُ، وَإِذَا جَاءَ نَهْرُ اللَّهِ بَطَلَ نَهْرُ مَعْقِلٍ».

وَمَنْ أَرَادَ الْإِعْتِبَارَ فِي هَذَا الْبَابِ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَى قِصَّةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، يَقُولُ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لِقَاتَلْنَا، فَجَاءَ

(١) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ» بِرَقْمِ (٥٥٨)، وَاللَّالِكَايْنِي فِي «أَصُولِ الْإِعْتِقَادِ» بِرَقْمِ (٢٠٨).

(٢) «الْمُسْنَدُ» بِرَقْمِ (٧٣٧)، وَ«سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» بِرَقْمِ (١٦٢)، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِرْوَاءِ الْغَلِيلِ» بِرَقْمِ (١٠٣).

(٣) (٤/١٩٢).

(٤) رَقْمُ (٥٧).

(٥) (١/٦٠).

عمر بن الخطّاب فقال: يا رسول الله! ألسنا على الحقّ وهم على الباطل؟! فقال: «بلى»، فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟! قال: «بلى»، قال: فعَلَامَ نُعطي الدِّينَةَ في ديننا، أنرجع ولَمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟! فقال: «يا ابنَ الخطّابِ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا»، فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ فقال: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، ولن يضيّعه الله أبَدًا، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمرَ إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله! أو فتح هو؟ قال: «نعم»، والحديث متفق عليه^(١).

فطالبُ العلم واجبه تقديم النُصوص، وأن يتَّهم الرَّأي في الدين، وأن يقدم كلامَ ربِّه وكلامَ رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوه إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

□ قال النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧٤- قَدَّمَ وَجُوبًا عُلُومَ الدِّينِ إِنَّ بِهَا يَبِينُ نَهْجُ الْهُدَى مِنْ مُوجِبِ النَّقِمِ

أي: عندما تشرع في الطَّلَب والتَّحصيل؛ قَدَّمَ علوم الدين على العلوم الدُّنيويَّة، وخاصَّة ضروريَّات الدين، وما لا يتمُّ الواجب إلَّا به، فهذه كُلُّها مقدَّمة، وبها يبدأ قبل تعلُّم أيِّ أمرٍ آخر.

«وجوبًا»؛ أي ليس استحبابًا، وإنَّما هو واجب.

(١) رواه البخاري برقم (٣١٨٢)، ومسلم برقم (١٧٨٥).

«إِنَّ بِهَا يَبِينُ نَهْجُ الْهُدَى مِنْ مُوجِبِ التَّقَمِّ»؛ أي إِنَّ علوم الدين هي التي يميّز بها طالب العلم بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والسنة والبدعة، والطيب والخبيث.

٧٥- وكلُّ كَسِرِ الْفَتَى فَالَّذِينَ جَابِرُهُ وَالْكَسْرُ فِي الدِّينِ صَعْبٌ غَيْرُ مُلْتَمِّمٍ

يقول: انتبه يا طالب العلم! «كُلُّ كَسِرٍ» وكلُّ مصيبة يُصاب بها الإنسان في غير الدين يجبرها الدين، كما يوضح ذلك قول النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

بينما إذا كان كَسِرَ الْإِنْسَانِ - والعياذ بالله - في دينه؛ فهذا أمر صعبٌ جدًّا، وهو غير ملتئمٍ إِلَّا إِنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَهَدَاهُ لِلْأُوبَةِ.

فقوله: «وَالْكَسْرُ فِي الدِّينِ صَعْبٌ غَيْرُ مُلْتَمِّمٍ»؛ فيه أَنَّ المصائب متفاوتة، وَأَنَّ أعْظَمَ المصائب المصيبةُ في الدين، وقد جاء في الدعاء عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا» رواه الترمذي^(٢) وحسنه.

ومعنى قوله: «وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا»؛ أي لا تصبنا بما ينقص ديننا ويذهبه؛ من اعتقادٍ سيِّئٍ أو تقصيرٍ في الطَّاعة أو فعلٍ محرَّم، وذلك لأنَّ المصيبة

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٩٩).

(٢) في «الجامع» برقم (٣٥٠٢).

في الدين أعظم المصائب وليس عنها عوض، بخلاف المصيبة في الدنيا كما قيل:
من كل شيء إذا ضيَّعته عَوْضٌ وليس في الله إن ضيَّعت من عَوْضٍ

□ قال النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٧٦- دَعُ عَنْكَ مَا قَالَهُ الْعَصْرِيُّ مُنْتَحِلًا وبالْعَتِيقِ تَمَسَّكَ قُطٌّ وَاَعْتَصِمَ

«دَعُ»؛ أي احذر وتجنب «ما قاله العصرِيُّ»؛ أي: أهل العصر وأهل الزَّمان، والمراد بالعصرِيُّ الَّذي ليس له ارتباطٌ بعلوم السَّلف، وأمَّا العالم من أهل العصر المتمسِّكُ بنهج السَّلف والماضي على جادَّتْهم، فيحرصُ على الأخذ عنه والتَّلقِي منه.

وقوله: «منتحلاً»؛ يعني يتَّحلَّ العلم ويتنسَّبُ إلى السُّنَّة، وليس واقعُه كذلك، وإنَّها يدَّعي ذلك ادِّعاءً.

قال: «وبالْعَتِيقِ تَمَسَّكَ قُطٌّ وَاَعْتَصِمَ»؛ يعني كُنْ دائماً متمسِّكاً بالعتيق، جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنَّا فليستَنْ بِمَنْ قَدْ مَاتَ؛ فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تَوْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبْرَها قُلُوبًا وَأَعَمَّقَها عِلْمًا وَأَقَلَّها تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهم اللهُ لَصَحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ فَاعْرِفُوا لَهُمُ فَضْلَهُمْ وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيرِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»^(١)، وجاء عنه - أيضًا - أَنَّهُ قَالَ: «عليكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضُه أن يُذهَبَ بأصحابه، عليكم بالعلم فإنَّ أحدكم لا يدري متى يُفتقر إليه أو يُفتقر إلى ما

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٥)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١٨١٠).

عنده، إنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم! فعليكم بالعلم، وإياكم والتبذع! وإياكم والتنطع! وإياكم والتعمق! وعليكم بالعتيق» رواه الدارمي^(١).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٧٧- ما العلمُ إلا كتابُ الله أو أثرٌ يَجْلُو بُرْهَانُهُ كُلُّ مُنْبِهِم

حقيقة العلم الذي ينبغي أن يُقبَلَ عليه الطالب، ويسعى في تحصيله الرَّاغِبُ لزوم الكتاب والسُّنَّة، جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «العلم ثلاثة: كتابٌ ناطق، وسُنَّةٌ ماضية، ولا أدري» رواه الطبراني^(٢).

وقد أنشد بعضهم:

العلمُ قال الله قال رسوله قال الصَّحابةُ ليس خُلْفٌ فيه
ما العلمُ نصبك للخلاف سفاهةً بين التُّصوص وبين رأي سَفِيه
كلًّا ولا نصبَ الخلاف جهالةً بين الرِّسول وبين رأي فَقِيه

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٧٨- مَا تَمَّ عِلْمٌ سِوَى الْوَحْيِ الْمُبِينِ وَمَا مِنْهُ اسْتِمَدَّ أَلَا طُوبَى لِمُغْتَنِمِ

«مَا تَمَّ عِلْمٌ سِوَى الْوَحْيِ الْمُبِينِ»؛ أي كتاب الله وسُنَّة نبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،
«وما منه استمدَّ»؛ أي ما كان مستمدًّا من الوحي، متلقًى منه، «ألا طُوبَى لِمُغْتَنِمِ»؛

(١) برقم (١٤٢)، وفي إسناده انقطاع.

(٢) في «المعجم الكبير» برقم (٢٥١)، وقَوَاهُ الألباني في «السُّلسلة الضَّعيفة» (٨/ ٤١١).

أي مغتنم أوقاته في تحصيل هذا العلم المبارك والخير العظيم.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٧٩- وَالْكُتْمَ لِلْعِلْمِ فَاحْذَرِ إِنَّ كَاتِمَهُ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْأَقْوَامَ كُلَّهُمْ

أي: احذر أن تكتُم العلم عن أهله والمحتاجين إليه والرَّاغِبِينَ في تحصيله،
ثُمَّ بَيَّنَّ العقوبة: «إِنَّ كَاتِمَهُ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْأَقْوَامَ كُلَّهُمْ»؛ يشير إلى قول الله ﷻ
في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وجاء في
«الصَّحِيحِينَ»^(١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ:
أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ! وَلَوْ لَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ
أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وَالْآيَةُ الَّتِي تَلِيهَا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ
تَابُوا وَاصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٨٠- وَمِنْ عُقُوبَتِهِ أَنْ فِي الْمَعَادِ لَهُ مِنَ الْجَحِيمِ لِحَامًا لَيْسَ كَاللُّجْمِ

«وَمِنْ عُقُوبَتِهِ»؛ يعني كُتْمُ الْعِلْمِ: «أَنْ فِي الْمَعَادِ لَهُ مِنَ الْجَحِيمِ لِحَامًا لَيْسَ
كَاللُّجْمِ»؛ أي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعَدَّ لِكَاتِمِ الْعِلْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِحَامًا؛ لَكِنْ لَيْسَ كَاللُّجْمِ

(١) رواه البخاري برقم (١١٨)، ومسلم برقم (٢٤٩٣).

المعروفة التي تكون من الجلد ونحو ذلك؛ لكنه لجأ من النار، يشير بذلك إلى ما رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وصححه ابن حبان والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أُجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» رواه ابن حبان والحاكم^(٢).

فواجب من أكرمه الله - تعالى - بالعلم إذا سُئِلَ عنه؛ أن يبيّنه وأن لا يكتمه، قال الله ﻋَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

□ ثم ذكر رحمته الله احترازًا في هذا الباب حتى لا يُظَنَّ أنَّ هذا داخلٌ في كتمان العلم قال:

٨١- وصائِنُ الْعِلْمِ عَمَّنْ لَيْسَ يَحْمِلُهُ ما ذا بِكِتْمَانٍ^(٣) بَلْ صَوْنٌ فَلَا تَلْمِ

إذا كان الغرض صيانة العلم بأن يُسأل فلا يجيب، فليس هذا من باب الكتمان، وإنما هو من باب صيانة العلم، فمثل هذا لا يعدُّ كتمانًا له.

(١) «سنن أبي داود» برقم (٣٦٦٠)، و«الترمذي» برقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه برقم

(٢٦٦)، و«صحيح ابن حبان» برقم (٩٥)، و«المستدرک» (١/ ١٨٢).

(٢) «صحيح ابن حبان» برقم (٩٦)، و«المستدرک» (١/ ١٨٢).

(٣) لم تصرف مراعاة للوزن العروضي.

مثل من يسأل لا للفائدة؛ وإنما يسأل للوقعة أو يسأل لأمر أخرى
ومآرب دنيئة وإشاعة للباطل، فهذا لا يُجاب ولا يعدُّ ذلك من كتمان العلم.
«فَلَا تَلْمُ»؛ أي لا تلم العالم إذا صان العلم ولم يبيِّن لهذا الغرض، ولهذا
المقصد.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٨٢- وَإِنَّمَا الْكَتْمُ مَنْعُ الْعِلْمِ طَالِبُهُ مِنْ مُسْتَحِقِّ لَهُ فَافْهَمْ وَلَا تَهِم
هذا القيد: «مِنْ مُسْتَحِقِّ لَهُ» يوضح أنَّ كتم العلم يذمُّ إذا كان بهذه
الصفة، أمَّا كتمه عن غير المستحقِّ فلا يعدُّ كتمانًا، ولا يذمُّ.
«وَلَا تَهِمُ»؛ أي لا تقع في الوهم في هذا الباب، وتخلط الأمور، وتجعل
صيانة العلم نوعًا من كتمان العلم.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٨٣- وَاتَّبِعِ الْعِلْمَ بِالْأَعْمَالِ وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالتَّبَيَّنِ وَالْحِكَمِ
«وَاتَّبِعِ الْعِلْمَ بِالْأَعْمَالِ»؛ أي عليك بالعناية بالعمل، ومقصود العلم
العمل، وهذا باب عظيم ومهمٌّ للغاية، قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَهْتَفُ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ،
فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ»^(١).

وللخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ مؤلَّفٌ عظيمٌ في هذا الباب سمَّاه «اقتضاء

(١) رواه ابن عساكر في «ذم من لم يعمل بعلمه» (ص ٣٨).

العلم العمل»، أورد فيه نصوصًا كثيرة من السُّنَّة، وأثارًا عن السَّلف، جديرٌ بطالب العلم أن يقفَ عليه.

قال رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «اقتضاء العلم العمل»:

«إني موصيك - يا طالبَ العلم - بإخلاص النِّيَّة في طلبه، وإجهاد النَّفس على العمل بموجبه، فإنَّ العلم شجرةٌ، والعمل ثَمرةٌ، وليس يُعَدُّ عالمًا من لم يكن بعلمه عاملاً.

فلا تأنس بالعمل ما دمتَ مستوحشًا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنتَ مقصِّرًا في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قلَّ نصيبك منهما.

وما شيءٌ أضعف من عالم ترك النَّاسُ علمه لفساد طريقتِه، وجاهلٍ أخذ النَّاسَ بجهله لنظرهم إلى عبادتِه.

والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة، إذا تفضَّل الله بالرحمة، وتمَّ على عبده النِّعمة، فأَمَّا المدافعةُ والإهمال، وحبُّ الهوينى والاسترسال، وإيثارُ الخفضِ والدَّعة، والميلُ مع الرَّاحة والسَّعة، فإنَّ خواتيم هذه الخصال ذميمة، وعقباها كريهة وخيمةٌ.

والعلم يُراد للعمل كما العمل يُراد للنَّجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كَلًّا على العالم، ونعوذُ بالله من علم عاد كَلًّا وأورث ذُلًّا، وصار في رقبة صاحبه غلًّا.

وَهَلْ جَامِعُ كُتُبِ الْعِلْمِ إِلَّا كَجَامِعِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ؟ وَهَلِ الْمَنْهُومُ بِهَا إِلَّا كَالْحَرِيصِ الْجَشِعِ عَلَيْهِمَا؟ وَهَلِ الْمُغْرَمُ بِحُبِّهَا إِلَّا كَكَائِنْزِهِمَا؟ وَكَمَا لَا تَنْفَعُ

الْأَمْوَالُ إِلَّا بِإِنْفَاقِهَا، كَذَلِكَ لَا تَنْفَعُ الْعُلُومُ إِلَّا لِمَنْ عَمِلَ بِهَا، وَرَاعَى وَاجِبَاتِهَا». يقول: ما فائدة الذهب والفضة إذا كان يكنز الإنسان ولا يستفيد منه ولا يُنفقه؟! والعلم ما فائدته إذا كان يجمعه الإنسان ولا يعمل به ولا يبذله؟! قال: «كَذَلِكَ لَا تَنْفَعُ الْعُلُومُ إِلَّا لِمَنْ عَمِلَ بِهَا، وَرَاعَى وَاجِبَاتِهَا فَلْيَنْظُرْ امْرُؤٌ لِنَفْسِهِ، وَلِيَعْتَمِدَ وَقْتَهُ، فَإِنَّ الشَّوَاءَ قَلِيلٌ، وَالرَّحِيلَ قَرِيبٌ، وَالطَّرِيقَ مَخُوفٌ، وَالْإِعْتِرَازَ غَالِبٌ، وَالْخَطَرَ عَظِيمٌ، وَالنَّاقِدَ بَصِيرٌ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - بِالْمِرْصَادِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَعَادُ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ (١).

وقد جاء في الحديث الصحيح في «الترمذي» (٢) وغيره، عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ». وجاءت نصوص كثيرة في الترهيب ممن لا يعمل بعلمه، ومن يقول ما لا يفعل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿[الصف: ٢-٣].

وجاء في «الصحيحين» (٣) عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص ١٨).

(٢) «جامع الترمذي» برقم (٢٤١٦) من حديث أبي برزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري برقم (٣٢٦٧)، ومسلم برقم (٢٩٨٩).

النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيُّ
فُلَانٍ! مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ
أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

ولهذا كان من شأن السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ عند سماعهم للحديث؛ المبادرة إلى
العمل به.

جاء عن سفيان الثوري أَنَّهُ قَالَ: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث
قَطُّ إِلَّا عَمَلْتُ بِهِ وَلَوْ مَرَّةً»^(١).

وقوله: «ولو مرّة» يقصد أحاديث الفضائل والرغائب، أمّا أحاديث
الفرائض والواجبات لا يكفي فيها إلّا المحافظة والمداومة.

ومثله قول عمرو بن قيس الملائي: «إذا بلغك شيء من الخير فاعمل به
ولو مرّة، تكن من أهله»^(٢).

وكان الإمام أحمد يقول: «ما كتبت حديثاً إلّا وقد عملت به، حتّى مرّ بي أنّ
النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، فأعطيت الحجام ديناراً حين احتجمت»^(٣).

ولهذا كان من شأن السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنّ العلم يظهر عليهم في أخلاقهم،
وفي آدابهم، وفي معاملاتهم، كما قال الحسن البصري رَحِمَهُمُ اللَّهُ: «كان الرجل إذا
طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في بصره وتحشّعه ولسانه ويده وصلاته

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٧٩ / ١٣).

(٢) «الجامع لأخلاق الرّواي وآداب السّامع» للخطيب البغدادي (١٤٤ / ١).

(٣) المصدر السّابق.

وصلته وزهده»^(١).

قال: «وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالتَّبَيَّنِ وَالْحَكَمِ»؛ أي هذا العلم الذي أكرمك الله به ومنّ عليك به أبلغه الآخرين، وادعُ إليه كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

فحثَّ الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ على الدَّعوة إلى سَبِيلِ اللَّهِ جَلَّوَعَلَا بالتَّبَيَّنِ والحكم، وهذا فيه التَّنبيه على أنَّ الدَّعوة إلى الله تكون بالتَّبَيَّنِ والحكم، أي بالعلم المبنيَّ على كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، ويدلُّ لذلك الآية: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، أمَّا من دعا بدون بصيرة فإنَّ ما يُفسد أكثر ممَّا يُصلح.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٨٤- وَاصْبِرْ عَلَى لَاحِقٍ مِّنْ فِتْنَةٍ وَأَذَى فِيهِ فِي الرُّسُلِ ذِكْرِي فَاقْتَدِهِ بِهِمْ
يعني اصبر على ما يلحقك إثر الدَّعوة إلى الله من فتنة وأذى.

«وَفِي الرُّسُلِ ذِكْرِي فَاقْتَدِهِ بِهِمْ»: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ولك في الرُّسل والأنبياء أسوةٌ حسنةٌ، فقد نالهم - وهم خيار الخلق وأفضل النَّاس - من الأذى ما نالهم، فتلقَّوا ذلك ﷺ بالصَّبر، كما حكي الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نُنَوِّكَلْ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ﴾

(١) رواه الدَّارمي في «سننه» برقم (٣٨٥)، وأورده المِزِّي في «تهذيب الكمال» (١١١/٦)

في ضمن ترجمة الحسن.

عَلَى مَاءٍ أَذِيتُمْونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ [إبراهيم: ١٢].

ولا شكَّ أنَّ الَّذِي يشتغل بالدَّعوة لا بدَّ أن يعرض له شيءٌ من الأذى من المدعوِّين، وهذا يتطلَّب من الدَّاعية أن يوطِّن نفسه على الصَّبْر وتحمُّل المشاقِّ في سبيل تبليغ دين الله ﷻ وإقامة الحجَّة على الخلق، اقتداءً بالأنبياء والمرسلين، واتِّسَاءً بسيدِّ الخلق أجمعين الَّذي أمره ربُّه جَلَّ وَعَلَا بالصَّبْر على أذى قومه، ومقابلة حمقهم بالحلم والرَّفق، كما قال ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومراعاة الصَّبْر والرَّفق في الدَّعوة إلى الله له الأثر البالغ في نفوس المدعوِّين ولا سيما في عصرنا هذا، قال الشَّيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ: «هذا العصر عصر الرَّفق والصَّبْر والحكمة، وليس عصر الشَّدة، النَّاسُ أكثرهم في جهل، في غفلة وإيثارٍ للدُّنيا، فلا بدَّ من الصَّبْر، ولا بدَّ من الرَّفق».

وإذا تأملنا الآيات المتقدِّمة نجد أنَّ النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ جمع فيها أمورًا أربعة على التَّرتيب:

الأوَّل: طلب العلم وتحصيله.

والأمر الثَّاني: العمل به.

والأمر الثَّالث: الدَّعوة إليه.

والأمر الرَّابع: الصَّبْر على الأذى فيه.

وقد جُمعت هذه الأمور الأربعة في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

وجعلها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللهُ في رسالة بعنوان «المسائل الأربعة»، واستدلَّ لها بسورة العصر، وقد جاء عن الشافعي رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قال: «لو فُكِّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ في سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ لَكَفَتْهُمْ»^(١).

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٨٥- لَوَاحِدٌ بِكَ يَهْدِيهِ الْإِلَهُ لَذَا خَيْرٌ غَدًا لَكَ مِنْ حُمْرٍ مِنَ النَّعَمِ

جاء في «الصَّحِيحِينَ»^(٢) عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».

أي: خيرٌ لك من الإبل الحُمْر، وهي أَنْفُسُ أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشَّيْءِ.

وفي الحديث فضيلة الدَّعوة إلى الله، وفضيلة من اهتدى على يديه رجلٌ واحدٌ.

(١) أورده ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٥٦) وله تعليق نفيس عليه، فليراجع.

(٢) رواه البخاري برقم (٢٩٤٢)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).

□ ثم ختم هذه النبذة بقوله:

٨٦- واسلُكْ سَوَاءَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَعْدِلْ وَقُلْ رَبِّي الرَّحْمَنُ وَاسْتَقِيمِ

«واسلُكْ سَوَاءَ الصِّرَاطِ»؛ أي الزم صراط الله المستقيم، ولا تمل عنه يمينا ولا شمالا، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وفي سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

«وَقُلْ رَبِّي الرَّحْمَنُ وَاسْتَقِيمِ»؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزِّلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، وفي وصية النبي ﷺ لسفيان بن عبد الله الثقفي رحمه الله قال: قلت: يا رسول الله! حدثني بأمر أعتصم به، قال: «قُلْ رَبِّي اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِيمِ» رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه، وصححه - أيضا - ابن حبان والحاكم ^(١).

وهي وصية عظيمة جامعة، جمعت الدين كله والخير أجمعه، بها ختم الناظم رحمته الله هذه النبذة الطيبة المباركة في الوصية لطالب العلم.

(١) «جامع الترمذي» برقم (٢٤١٠)، و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٩٧٢)، و«صحيح ابن حبان» برقم (٥٦٩٨)، و«المستدرک» (٤/ ٣٤٩).

الوصية بكتاب الله ﷻ

عقد رَحِمَهُ اللهُ هذا العنوان لبيان مكانة كتاب الله ﷻ وعظيم شأنه، وعلو منزلته، ومكانة تدبره، ومعرفة أحكامه، والعمل بمُحكمه، والإيمان بمُتشابهه، وذكر - أيضًا - فضائل كثيرة لتلاوته وتدبره إلى غير ذلك من الوصايا العظيمة المتعلقة بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٨٧- وَبِالتَّدْبِيرِ وَالتَّرْتِيلِ فَاتُّلُ كِتَابَ اللَّهِ لَا سِيَّمَا فِي حِنْدِسِ الظَّلَمِ

الجارُّ والمجرور في قوله: «وبالتدبر والترتيل» متعلق بقوله: «فاتل كتاب الله»؛ أي اتل كتاب الله بالتدبر والترتيل؛ والله جَلَّ وَعَلَا أمر بتدبر كتابه في مواضع من القرآن، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْقَرَّأَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْقَرَّأَتْ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَكِّرُوا الْقَوْلَ أَمْرٌ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

فهذه آيات فيها الحثُّ على تدبر كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، والتدبر يكون بالتأمل للمعاني والتفكير في الدلالات وعقل مراد الله ﷻ بحيث يكون حظُّ العبد من القرآن التلاوة للحروف والفهم للمعاني والدلالات ولا يكون حظُّه منه مجرد

إقامة حروفه.

وقوله ﷺ: «الترتيل»؛ الترتيل: هو القراءة بتمهل، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، أي اقرأه بتمهل؛ فإنه يكون عونًا لك على فهمه وتدبره. وهناك فرق بين من يقرأ السورة وهو يريد أن يعقل خطاب الله ﷻ له فيها، وبين من يقرأها وهو يريد أن ينتهي منها وأن يفرغ من قراءتها.

وبدأ الناظم رحمه الله بالحث على تلاوة القرآن بالتدبر والترتيل موافقةً للآيات الكثيرة في كتاب الله عز وجل والأحاديث العديدة في سنة النبي ﷺ التي جاء فيها الحث على العناية بالقرآن قراءةً وترتيلًا وتدبرًا كقوله جل وعلا: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقوله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقوله جل وعلا: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَكْثُرَ﴾ [فاطر: ٢٩].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وجاء في السنة أحاديث عديدة في الحث على قراءة القرآن وتلاوته وترتيله وتدبره وفضل ذلك، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأُتْرَجَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ» متفق عليه^(١).

(١) رواه البخاري برقم (٥٤٢٧)، ومسلم برقم (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلصَّحَابَةِ: «إِيَّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ - أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ - فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوَماوَيْنِ (الكَوْماء: النَّاقَةُ الْعَظِيمَةُ السَّنَام) فِي غَيْرِ إِيَّامٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فقالوا: يا رسول الله! نَحَبُ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمَنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ؟»
رواه مسلم من حديث عقبة بن عامر^(١).

وقوله ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» رواه مسلم من حديث أبي هريرة^(٢).

وقوله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿آلَ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ «أَلِفٌ» حَرْفٌ، و«لَامٌ» حَرْفٌ، و«مِيمٌ» حَرْفٌ»، رواه الترمذي^(٣) من حديث ابن مسعود، وصحَّحه.

وقول النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا سِيَّما فِي حِنْدِسِ الظُّلَمِ»، «حِنْدِس» - بالكسر -:
الليل المظلم، أي خاصَّة في هذا الوقت المبارك.

يقول النُّووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «التَّبَيَّان في آداب حملة القرآن»^(٤): «فصل: في

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٩).

(٣) برقم (٢٩١٠).

(٤) ص (٧٥).

الأوقات المختارة للقراءة، اعلم أن أفضل القراءة ما كان في الصلاة، وأمّا القراءة في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير من الليل أفضل من النصف الأوّل».

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٨٨- حَكَمُ بَرَاهِينِهِ وَاعْمَلْ بِمُحْكَمِهِ حِلًّا وَحَظْرًا وَمَا قَدْ حَدَّهُ أَقِمِ

«حَكَمُ بَرَاهِينِهِ»؛ أي حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ، والمعنى: احتكم إليه وليكن المعوّل عليه، فيما تأتي وتذرّ وفي جميع شؤونك.

«وَاعْمَلْ بِمُحْكَمِهِ»؛ المراد بـ«المحكم»؛ أي البين الواضح الدلالة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

«حِلًّا وَحَظْرًا»؛ أي في الحلال والحرام؛ لأنّ «الحظر»: المنع، فكن عاملاً بمحكم القرآن في الحلال والحرام، وفي الإباحة والمنع. «وما قد حدّه أقم»؛ أي أقم حدود القرآن، لا تكن إقامة القرآن للحروف فقط، بل أقم حروفه، وأقم - أيضاً - حدوده؛ بالالتئام بما في القرآن والانتهاء عما نهى عنه.

روى عبد الرزاق في «مصنّفه»^(١) عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَذَبُوهَا إِنِّي بِهِ وَلِيَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾،

(١) (٣/٣٦٣).

قال: «وما تدبر آياته إِلَّا اتَّباعُهُ بعمله، والله! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده؛ حتَّى إِنَّ أَحدهم ليقول: والله! لقد قرأتُ القرآن كلَّه وما أُسقطُ منه حرفاً واحداً، وقد أسقطه كلَّه؛ ما ترى له في القرآن من خُلق ولا عمل، وحتَّى إِنَّ أَحدهم ليقول: والله! إِنِّي لأقرأ السُّورة في نَفْسٍ واحدٍ، والله! ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كان القراء يقولون مثل هذا؟! لا كثر الله في المسلمين من هؤلاء». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٨٩- «وَأُطْلَبُ مَعَانِيهِ^(١) بِالنَّقْلِ الصَّرِيحِ وَلَا تَخْضُ بِرَأْيِكَ وَاحِدَرُ بَطْشٍ مُنْتَقِمٍ

أي: ابحث عن معاني القرآن ودلالاته بالنقل الصريح، والقرآن يُفسَّر بعضُه بعضاً، والسُّنَّة شارحة للقرآن ومفسِّرة له.

وهذه طريقة أهل العلم في تفسير القرآن؛ يفسِّرون القرآن بالقرآن، ويفسِّرون القرآن بالأحاديث الصَّحاح عن رسول الله ﷺ، ويفسِّرون القرآن بالمنقول عن الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ شَهِدُوا التَّنْزِيلَ، وأكرمهم الله ﷻ بالتَّلْقِيِ والأخذ مباشرة عن رسول الله ﷺ.

«وَلَا تَخْضُ بِرَأْيِكَ»؛ أي لا تُعمل رأيك المجرَّد في كتاب الله ﷻ، ولا تقل فيه بالرأي، وإنَّما يكون رأيك مبنياً على النقل الصَّرِيح.

وحذَّرَ رَحِمَهُ اللهُ من الخوض في القرآن بالرأي أشدَّ التحذير؛ فقال: «وَاحِدَرُ

(١) بإسكان الياء مراعاة للوزن العروضي.

بَطْشَ مُنْتَقِمٍ؛ أي احذر بطش الله ﷻ وعقوبته من أن تقول في كتابه ﷻ بغير علم، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ولهذا كان الصَّحابة، ومن اتَّبعهم بإحسان في تمام الورع وكماله من الخوض في كتاب الله ﷻ بالرَّأي المجرَّد أو بالظُّنون.

روى ابن أبي شيبة في «المصنَّف»^(١) عن أبي بكر الصَّدِّيق رضي الله عنه أَنَّهُ سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿وَفِكَهَةٌ وَأَبَاٌ﴾ [عبس: ٣١]، فقال: «أَيُّ سِمَاءٍ تَظُنُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؟! إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ». والنُّقُولُ عنهم في هذا المعنى كثيرة.

□ قال النَّازِمُ رحمته الله:

٩٠- فَمَا عَلِمْتَ بِمَحْضِ النَّقْلِ مِنْهُ فَقُلْ وَكُلْ إِلَى اللَّهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْبِهِم

أي: ما اتَّضح لك معناه، واتَّضح لك مقصوده، ومراده بـ«النَّقل»؛ أي باعتمادك في ذلك على النَّقل وتعويلك عليه؛ فقل المعنى كذا وكذا استنادًا إلى النَّقل الَّذي أبان لك المراد ووضَّح لك المقصود، وهذه طريقة أهل العلم في

(١) (١٣٦/٦).

ما يشبهه عليهم من آي القرآن، يردُّون المشتبهات إلى الآيات المحكمات، والله أمر بذلك فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وصف المحكمات بآئهنَّ أمُّ الكتاب.

«وَكُلٌّ إِلَى اللَّهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْبِهِم»؛ أي الذي يكون معناه منبهًا، أي خفيًا ومشتبهًا عليك، فكل معناه إلى الله، أي فوض معناه إلى الله، قائلًا: الله أعلم بمعناه. وجاء في «الصَّحِيحِينَ»^(١) عن مسروق قال: كنَّا عند عبد الله بن مسعود جُلوسًا وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرَّحْمَنِ! إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَقْصُ وَيَزْعُمُ أَنَّ آيَةَ الدُّخَانِ تَحْيَاءُ فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّارِ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَّامِ؟ فقال عبد الله - وجلس وهو غضبان -: يا أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّقُوا اللَّهَ؛ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وقد مرَّ معنا قول ابن عمر رضي الله عنهما: «العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدري»^(٢).

(١) رواه البخاري برقم (٤٧٧٤)، ومسلم برقم (٢٧٩٨).

(٢) ص (١٠٢).

□ قال النّاطم رَحِمَهُ اللهُ :

٩١- ثُمَّ الْمِرَا فِيهِ كُفْرٌ فَاحْذَرْنَهُ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكَ أَقْوَامٌ بِزَيِّغِهِمْ

«ثُمَّ الْمِرَا فِيهِ»؛ أي في القرآن، والمراد بـ«المراء»؛ أي الجدل والخصومة المفضية إلى الشك والتكذيب، واعتقاد الباطل.

«كفر»؛ يشير إلى ما رواه الإمام أحمد - وصحّحه ابن حبان - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ - ثلاث مرّات - فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»^(١).

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»، فيه شاهد لقول النّاطم رَحِمَهُ اللهُ الَّذِي مَرَّ أَنْفًا: «وَكُلُّ إِلَى اللَّهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْبِهِم».

وروى أبو داود الطيالسي عن ابن عمر أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا تُجَادِلُوا فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ جِدَالَ فِيهِ كُفْرٌ»^(٢).

«فاحْذَرْنَهُ»؛ أي كن من ذلك على حذرٍ، وإياك أن تقع في شيء من المراء في كتاب الله ﷻ! لأن ذلك يُفْضِي إلى التكذيب والشك والكفر بالله ﷻ وبكتابه. «وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكَ أَقْوَامٌ بِزَيِّغِهِمْ»؛ كثيرًا ما يعمل أهل الزيغ على فتن الناس؛

(١) «المسند» برقم (٧٩٨٩)، و«صحيح ابن حبان» برقم (٧٤)؛ وصحّح إسناده الألباني في «الصّحيحة» (٢٦ / ٤).

(٢) «مسند الطيالسي» برقم (٢٢٨٦)؛ وصحّح إسناده الألباني في «الصّحيحة» برقم (٢٤١٩).

بترزين ما عندهم من زيغ وضلال بزخرفة القول، فيفتنون ضعاف الإيمان وقليلي العلم، ولهذا حذر من أن يفتن العبد بها عند هؤلاء.

□ قال الناظم رحمه الله:

٩٢- وعن مناهيه كن يا صاح مُنزجراً والأمر منه بلا تردد^(١) فالتزم

أي: كن كافاً وممتنعاً عن جميع ما نهاك الله عنه في القرآن الكريم، «والأمر منه بلا تردد فالتزم»؛ أي افعل ذلك وحافظ عليه ولازمه، «والأمر» مفعول «فالتزم».

فجمع في هذا البيت بين الحث على فعل الأوامر وترك النواهي، قال ابن مسعود رحمته الله: «إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ»^(٢).

(١) لم تصرف مراعاة للوزن العروضي.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٦).

بهذه المناسبة أذكر شاباً صغيراً درّسته قبل قرابة عشرين سنة، لما كان في المرحلة المتوسطة، وكان حافظاً لكتاب الله جلّ وعلاً فجاءني يوماً بأوراق مكتوب عليها الأوامر والنواهي في القرآن فقال لي: هذه أشياء جمعتها أرغب أن تطّلع عليها وهو في الصّف الثاني متوسط، فقلت له: ما زلت صغيراً الآن على التّأليف، قال: لا، أنا لا أوّلّف، ولكن الله عزّ وجلّ أكرمني بحفظ القرآن، ويمرّ عليّ في القرآن أوامر كثيرة ونواهي كثيرة، الله يخاطبني بها فأردت أن أعقل عن الله عزّ وجلّ ما يأمرني به وما ينهاني عنه، فكان كلّما مرّ عليه أمرٌ أو نهْيٌ في القرآن قيّده، ثمّ يرجع إلى «تفسير ابن كثير» و«تفسير ابن السّعدي»، وينقل المعنى حتّى اجتمع له ملزمة كبيرة جدّاً في فقه الأوامر والنواهي في كتاب الله جلّ وعلاً.

□ قال النّازم رحمه الله:

٩٣- وما تشابهَ فَوْضٌ لِإِلَهِ وَلَا تَخْضُ فَخَوْضُكَ فِيهِ مُوجِبُ النَّقْمِ

هنا يبيّن المنهج السّديد فيما تشابه من آي القرآن، والله عزّ وجلّ قال: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فالقرآن فيه آيات متشابهات، والمتشابه هنا يُقابل المحكم، والمحكم: هو الواضح المعنى، الظّاهر الدّلالة، والمتشابه: هو الذي يشتبه المعنى فيه، ولا تظهر الدّلالة.

وهذا التّشابه هو في الحقيقة تشابه نسبيّ وليس مطلقاً؛ لأنّه ليس في القرآن آيات لا يُفهم معناها مطلقاً، فالله خاطبنا بكلام عربيّ مبين، ليس فيه آيات متشابهة تشابهاً مطلقاً، أي يخفى معناها وفهمها على كلّ أحد.

يقول مجاهد رحمه الله: «عرضتُ المصحفَ على ابن عبّاس ثلاث عَرَصات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كلّ آية وأسأله عنها»^(١).

وجاء عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال: «التّفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يُعذر أحدٌ في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الرّاسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلّا الله».

ذكره ابن كثير في «تفسيره»^(٢)، ثمّ قال: ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشعثاء وأبي نهيك وغيرهم.

ومراد ابن عبّاس رضي الله عنه بـ«التّفسير الذي يعلمه الرّاسخون»؛ هو تفسير

(١) رواه ابن جرير الطّبري في «تفسيره» برقم (٤٣٣٧)، والدّارمي برقم (١١٢٠)، وغيرهما.

(٢) (١٠ / ٢).

المتشابه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

فالراسخون في العلم يعلمون معنى المتشابه الذي يخفى معناه على كثير من الناس بما آتاهم الله عز وجل من بصيرة وفهم لكلام الله ﷻ، ورد للمتشابه منه إلى المحكم.

وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله هو حقائق صفات الله عز وجل وحقائق اليوم الآخر وغير ذلك مما ذكر في كتاب الله عز وجل وذكر في سنة نبيه عليه الصلاة والسلام وعُرف معناه ودلالته وخفي كنهه وحقيقته، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء»^(١)، فنعمل المعاني ونفهم الدلالات؛ لكن الكنه والحقيقة الله ﷻ أعلم به.

□ قال الناظم رحمه الله:

٩٤- وَلَا تُطْعُ قَوْلَ ذِي زَيْغٍ يُزْخَرُهُ مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ فِي الدِّينِ مُتَّهَمٍ
٩٥- حَيْرَانٌ ضَلَّ عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ فَلَا يَنْفَكُ مُنْخَرِفًا مُعَوَّجًا^(٢) لَمْ يَقُمْ

يحذر رحمه الله في هذين البيتين من سبل أهل الأهواء وطرائق الهالكين وأهل الزيغ والضلال، ويحذر من الإصغاء والسماع إليهم، فقال:

(١) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» برقم (٥٣٥ - ط. أحمد شاكر).

(٢) لم تصرف مراعاة للوزن.

«ولا تُطِيعُ قَوْلَ ذِي زَيْغٍ يُزْخَرِفُهُ»؛ فمن عادة أهل الزَّيْغِ زخرفة ما عندهم من باطل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وجاء في «الصَّحَّاحِينَ» عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَتْلُوهَا أَلَّا تَبْطِ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»^(١).

وقوله: «مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ فِي الدِّينِ مُتَّبِعٍ»؛ أي احذر صاحب الزَّيْغِ من أهل البدع والأهواء مَنْ هو مُتَّبِعٌ في دينه بفسادٍ في العقيدة أو انحلالٍ في الفكر.

«حَيْرَانَ ضَلَّ عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ»؛ يصفُ حال هؤلاء الزَّائِغِينَ المبتدعة المتَّهِمِينَ في الدين، وما أكثر ما تستولي هذه الحيرةُ على أهل الباطل، وسيأتي لاحقاً ذكر شيء من شهادة هؤلاء على أنفسهم بالحيرة والشك^(٢).

قال: «فَلَا يَنْفَكُ مِنْ حَرَفٍ مُعَوَّجٍ»؛ أي يكون بهذه الحال دائماً وأبداً منحرفاً عن صراط الله المستقيم، معوجاً عن الجادة السَّوِيَّة.

وقوله: «مُعَوَّجٌ» خبر كان، وحذف التنوين لضرورة الشعر.

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٤٧)، ومسلم برقم (٢٦٦٥).

(٢) انظر: (ص ١٩٦-١٩٧).

«لَمْ يَقُمْ»؛ أي لم يستقم على صراط الله جَلَّ وَعَلَا، بل ينحرف عنه يمينًا وشمالًا.

□ ثم ساق أبياتا في فضل كتاب الله ﷻ وبيان عظم شأنه، قال:

٩٦- هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي مَنْ قَامَ يَقْرُؤُهُ كَأَنَّمَا خَاطَبَ الرَّحْمَنَ بِالْكَلِمِ

أي كأن الذي يقرأ كلام الله ويرتله خاطب الرحمن بالكلم؛ لأن القرآن كله تعظيم لله ومناجاة له، وثناء عليه وتمجيد، واعتبر هذا في أم القرآن فاتحة الكتاب المشتملة إجمالاً على ما اشتمل عليه القرآن تفصيلاً، وما تضمنته من مناجاة وثناء على الله ﷻ؛ روى مسلم في «صحيحه»^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ قَالَ: مَجْدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ؛ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

(١) رقم (٣٩٥).

٩٧- هُوَ الصَّرَاطُ هُوَ الْحَبْلُ الْمَتِينُ هُوَ الْـ حَمِيزَانُ وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى لِمُعْتَصِمٍ

«هو الصَّراط»؛ أي الصَّراط المستقيم الَّذِي يُفْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ:

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

«هو الحبل المتين»؛ الَّذِي مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَاعْتَصَمَ بِهِ نَجَا وَهُدِيَ إِلَى صِرَاطِ

مُسْتَقِيمٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

«هو الميزان»؛ أَي الَّذِي عَلَيْهِ الْمَعْوَلُ وَإِلَيْهِ الْاِحْتِكَامُ: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ

فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وَالرُّدُّ إِلَى اللَّهِ: الرُّدُّ إِلَى كِتَابِهِ، وَالرُّدُّ إِلَى الرَّسُولِ

ﷺ: الرُّدُّ إِلَى سُنَّتِهِ.

«والعروة الوثقى»؛ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ

الْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ

لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

«لمعتصم»؛ فَمَنْ أَرَادَ لِنَفْسِهِ خَيْرَ مُعْتَصِمٍ وَخَيْرَ مُتَمَسِّكٍ؛ فَلْيَتَمَسَّكَ بِكِتَابِ

اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَهُوَ الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَالْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالْمِيزَانُ الْقَوِيمُ، وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى.

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٩٨- هُوَ الْبَيَانُ هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ هُوَ الثَّـ تَفْصِيلٌ فَاقْنَعْ بِهِ فِي كُلِّ مُنَبِّهٍ

«هو البيان»؛ أَي الْإِيضَاحُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

«هو الذِّكْرُ الْحَكِيمُ»؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]،

وقال: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

«هو التفصيل»؛ قال جلَّ وعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ [يونس: ٣٧]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

«فاقنع به في كل منبهم»؛ أي كل أمر خفي عليك من المعاني.

٩٩- هو البصائر والذكرى لمذكر هو المواعظ والبشرى لغير عمي

«هو البصائر»؛ كما قال الله ﷻ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

«والذكرى لمذكر»؛ كما قال جلَّ وعَلَا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

«هو المواعظ» كما قال جلَّ وعَلَا: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

«وَالْبُشْرَى لِعَیْرِ عَمِي»؛ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].
 وقوله: «لِعَیْرِ عَمِي»؛ أي لغير عمي عن الحق؛ لأنه لا يتنفع من بصائر القرآن وما فيه من الذكري والمواعظ وما فيه من البشارات، فمن كان عن الحق عميًا؛ فإنه لا يتنفع من ذلك ولا يستفيد.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٠٠- هُوَ الْمُنَزَّلُ نُورًا بَيْنًا وَهُدًى وَهُوَ الشِّفَاءُ لِمَا فِي الْقَلْبِ مِنْ سَقَمٍ
 «هو المنزَّل نورًا بينًا»؛ وصف القرآن بأنه نورٌ مبين، أي نورٌ بين واضح،
 كما قال الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

«وهُدًى»؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].
 وقوله: «وَهُوَ الشِّفَاءُ لِمَا فِي الْقَلْبِ مِنْ سَقَمٍ»؛ أي أنه شفاءٌ لأمراض القلوب،

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٠١- لِكِنَّهُ لِأُولَى الْإِيمَانِ إِذْ عَمِلُوا بِمَا أَتَى فِيهِ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكْمٍ
 «لِكِنَّهُ لِأُولَى الْإِيمَانِ إِذْ عَمِلُوا»؛ أي أَنَّ القرآن شفاءٌ لأُولَى الْإِيمَانِ إِذَا
 عملوا بما أَتَى فِيهِ مِنْ عِلْمٍ، وَمِنْ حِكْمٍ، وهذا فِيهِ التَّنْبِيهُ أَنَّ الاستشفاء بالقرآن،
 وتحصيل بركات القرآن وخيراته لا ينالُه كُلُّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا ينالُه أُولُوا الْإِيمَانِ
 الَّذِينَ عملوا بالقرآن، فهؤلاء الَّذِينَ يفوزون ببركات القرآن وخيراته وما فِيهِ
 مِنَ الشِّفَاءِ، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
 وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
 هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٠٢- أَمَّا عَلَى مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ فَهُوَ عَمَى لِكَوْنِهِ عَنْ هُدَاهُ الْمُسْتَنِيرِ عَمَى
 «أَمَّا عَلَى مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ فَهُوَ عَمَى»؛ يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

«لِيَكُونَهُ عَن هُدَاهُ الْمُسْتَنِيرِ عَمِي»؛ أي عن الحق البين الواضح عَمِي، فلم يُبصر ما في القرآن من حقٍّ وهدى، فهذا لا يستفيد ولا ينتفع بما جاء في كتاب الله ﷻ من شفاء وخير وبركة.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٠٣- فَمَنْ يُقِمُّهُ يَكُنْ يَوْمَ الْمَعَادِ لَهُ خَيْرَ الْإِمَامِ إِلَى الْفِرْدَوْسِ وَالنَّعِيمِ

أي: مَنْ يُقِمُّ الْقُرْآنَ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ يرفعه الله ﷻ بالقرآن، ويكون له يوم المعاد إمامًا وقائدًا له إلى جنّات النعيم.

١٠٤- كَمَا يَسُوقُ أُولِيَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ إِلَى دَارِ الْمَقَامِيعِ وَالْأَنْكَالِ وَالْأَلَمِ

كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحِتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وجاء عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُّشَفَّعٌ، وَمَا حِلٌّ مُّصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ»،

رواه ابن حبان بإسناد جيّد^(١)، ويروى مثله من قول ابن مسعود رحمته الله^(٢).
ويروى بمعناه عن أبي موسى الأشعري رحمته الله قال: «إنَّ هذا القرآن
كائنٌ لكم ذكرى، وكائنٌ لكم أجرًا، أو كائنٌ عليكم وزرًا؛ فاتَّبِعُوا القرآنَ
ولا يَتَّبِعْكم القرآنُ، فإنَّه من يَتَّبِعِ القرآنَ يَهْطِ به على رياض الجنة، ومن يتبعه
القرآن يَزُخُّ في قفاه فيقذفه في جهنَّم»^(٣)، وقوله: «يزُخُّ» أي يدفع.

□ قال الناظم رحمته الله:

١٠٥- وَقَدْ أَتَى النَّصُّ فِي الطُّولَيْنِ أَنَّهُمَا ضَلَّالًا^(٤) لِتَالِيَهُمَا فِي مَوْقِفِ الْغَمِّ

قوله: «أَتَاهُمَا»؛ أي البقرة وآل عمران، وقوله: «الْغَمِّ»؛ من الْعُمَّة وهي
الشَّدَّة.

يشير إلى ما في «صحيح مسلم»^(٥) عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ رحمته الله
قال: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِيهِ الَّذِينَ كَانُوا

(١) «صحيح ابن حبان» برقم (١٢٤)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٠١٩).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنّفه» (٣/٣٧٢)، وابن أبي شيبة في «مصنّفه» (٦/١٣١)
من طريقين عنه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/١٢٦)، والدارمي برقم (٣٣٢٨)، وفي إسناده أبو كنانة
هو القرشي، وهو مجهول كما في «التقريب».

(٤) مثني ظل، والأصل ظِلَانٌ وحُذِفَتِ النُّونُ لِلضَّرورة، ولهذا نظائر. انظر: «مغني اللبيب»
(ص ٩١٧)، و«خزانة الأدب» (٣/٣٥٦).

(٥) برقم (٨٠٥).

يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ
أَمْثَالٍ مَا نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقُ
(أَيِ ضِيَاءٍ وَنُورٍ)، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِرْزَانِ (الْحِزْقُ: الْجَمَاعَةُ) مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ (أَيِ
بَاسِطَاتٍ أَجْنَحَتْهَا فِي الطَّيْرَانِ)، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا».

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

- ١٠٦- وَأَنَّهُ فِي غَدٍ يَأْتِي لِصَاحِبِهِ مُبَشِّرًا وَحَاجِجًا عَنْهُ إِنْ يَقُمْ
١٠٧- وَالْمُلْكُ وَالْخُلْدُ يُعْطِيهِ وَيُلْبِسُهُ تَاجَ الْوَقَارِ إِلَهُ الْحَقِّ ذُو الْكَرَمِ
١٠٨- يُقَالُ اقْرَأْ وَرَتِّلْ وَارْقُ فِي عُرْفِ الْـ جَنَاتِ كَيْ تَنْتَهِيَ ^(١) لِلْمَنْزِلِ النَّعِيمِ
١٠٩- وَحُلَّتَانِ مِنَ الْفِرْدَوْسِ قَدْ كُسِيَتْ لَوْلَا دَيْهِ لَهَا الْأَكْوَانُ لَمْ تَقُمْ
١١٠- قَالَا بِمَاذَا كُسِينَاهَا فَقِيلَ بِمَا أَقْرَأْتُمَا ابْنُكُمَا فَاشْكُرْ لِذِي النَّعِيمِ

قوله: «إِنْ يَقُمْ»؛ أَيِ إِنْ يَقُمْ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عِلْمًا وَعَمَلًا.

وقوله: «وَالْمُلْكُ وَالْخُلْدُ يُعْطِيهِ» أَيِ: يُعْطِيهِ الْمُلْكُ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدُ بِشِمَالِهِ،
وَهَاتَانِ النِّعْمَتَانِ هُمَا جَمَاعُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ.

وقوله: «وَيُلْبِسُهُ تَاجَ الْوَقَارِ» فِي «النِّهَايَةِ»: التَّاجُ مَا يُصَاغُ لِلْمُلُوكِ مِنْ
الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ.

وهذه الأبيات الخمسة يشير فيها النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى مَا جَاءَ عَنْ بَرِيدَةَ ابْنِ
الْحَصِيبِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا
سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»، قَالَ:

(١) بِإِسْكَانِ الْيَاءِ مِرَاعَاةً لِلزُّوْنِ الْعُرُوضِيِّ.

ثم مكث ساعة، ثم قال: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظَلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَّامَتَانِ أَوْ غَيَّائَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ! فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ! فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لَهَا أَهْلُ الدُّنْيَا؛ قَالَ: فَيَقُولَانِ: بِمِ كُتِّسِينَا هَذِهِ؟ فَيَقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجَةِ الْجَنَّةِ، وَغُرْفِهَا فَهُوَ فِي صُعودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذَا كَانَ أَوْ تَرْتِيلاً»، رواه الإمام أحمد^(١)، وحسنه البغوي في «شرح السنة»^(٢)، وابن كثير في تفسير سورة البقرة، وفي سنده مقال؛ لكن له شاهد من حديث أبي أمامة، وآخر من حديث أبي هريرة، ولذلك أورده الألباني في «السلسلة الصحيحة»^(٣).

(١) «المسند» (٢٢٩٥٠)، وقد أورده الشيخ في «معارج القبول» (٢/ ٢٧٠)، وقال:

إسناده حسن.

(٢) (٤/ ٤٥٤) حديث رقم (١١٩٠).

(٣) رقم (٢٨٢٩).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١١١- كَفَى وَحَسْبُكَ بِالْقُرْآنِ مُعْجِزَةً دَامَتْ لَدَيْنَا دَوَامًا غَيْرَ مُنْصَرِمٍ
١١٢- لَمْ يَعْتَرِهِ قَطُّ تَبْدِيلٌ وَلَا غَيْرٌ وَجَلَّ فِي كَثْرَةِ التَّرَادِدِ عَنْ سَاءَمٍ

قوله: «وحسبك»؛ وهي بمعنى يكفيك، «بالقرآن معجزة»؛ أي يكفيك معجزة كتاب الله ﷻ، فهو أعظم معجزة، «غير منصرم» أي غير منقطع، فهو معجزة دائمة مستمرة.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «إغاثة اللّٰهفان»^(١): «وإذا كان هذا شأن معجزات هذين الرّسولين (يعني موسى وعيسى ﷺ) مع بُعْدِ العهد وتشّتت شمل أمتيهما في الأرض وانقطاع معجزاتهما، فما الظنُّ بنبوة مَنْ معجزاته وآياته تزيد على الألف، والعهد بها قريب، وناقلوها أصدق الخلق وأبرّهم، ونقلها ثابت بالتواتر قرناً بعد قرن، وأعظمها معجزة كتاب باقٍ غُضُّ طَرِيٍّ لم يتغيّر ولم يتبدّل منه شيء، بل كأنّه منزلُ الآن، وهو القرآن العظيم، وما أخبر به يقع كلّ وقت على الوجه الذي أخبر به كأنّه كان يشاهده عياناً».

قوله: «ولا غير»؛ أي تغيير قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «التّبيان في أقسام القرآن»^(٢): «فالله

(١) (٢/ ٣٤٧).

(٢) «التّبيان في أقسام القرآن» (٢/ ١٠٠).

- سبحانه - حفظه من الزيادة والتقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف
كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والتقصان،
ومعانيه من التحريف والتغيير».

وقوله: «وَجَلَّ فِي كَثْرَةِ التَّرْدَادِ عَنْ سَامٍ»؛ أي أَنَّ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَكْرُرُ
تلاوته لا يسأم ولا يملُّ مع كثرة ترداداه وتكراره.

وقد جاء في «جامع الترمذي»^(١) وغيره عن عليٍّ رضي الله عنه قال: سمعت
رسول الله ﷺ يقول: «أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ»، فقلت: ما المخرج منها يا رسول
الله؟! قال: «كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرٌ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ
الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ
أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ
الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ
عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجَنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا:
﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ [الجن: ١ - ٢]، مَنْ قَالَ بِهِ صُدِّقَ، وَمَنْ
عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وضَعَفَهُ التِّرْمِذِيُّ بِقَوْلِهِ: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ
وإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ، وَفِي الْحَارِثِ مَقَالَ»^(٢).

ومعناه صحيح وما ذكر فيه كله حقٌّ، لكن لم يثبت عن نبيِّنا ﷺ.

(١) برقم (٢٩٠٦).

(٢) أورده الألباني رحمته الله في «السلسلة الضعيفة» برقم (٦٣٩٣).

وقوله: «وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ»؛ لَهُ شَاهِدٌ فِي «المستدرک»^(١) للحاكم وغيره عن ابن مسعود عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَادِبَةٌ اللَّهِ؛ فَأَقْبِلُوا مِنْ مَادِبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ وَالنُّورُ الْمُبِينُ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلَا يَغْوُجُ فَيَقْوَمُ، وَلَا تَنْقُضِي عِبَائِهِ، وَلَا يَخْلُقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، اتْلُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ، كُلُّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: ﴿آلَهُ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلَامٌ وَمِيمٌ».

وصَحَّحَ إِسْنَادَهُ الْحَاكِمُ، لَكِنْ تَعَقَّبَهُ الذَّهَبِيُّ بِقَوْلِهِ: «إِبْرَاهِيمُ ضَعِيفٌ»؛ يَعْنِي إِبْرَاهِيمَ بْنَ مُسْلِمٍ الْهَجَرِيَّ، وَلِذَلِكَ أوردَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «السَّلْسَلَةِ الضَّعِيفَةِ»^(٢).

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١١٣- مُهَيِّمِنًا عَرِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ مُصَدِّقًا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ فِي الْقَدَمِ

قوله: «مُهَيِّمِنًا»؛ أَيُّ لَهُ الْهَيْمَنَةُ عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي جَاءَتْ قَبْلَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ﴾، قَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الثَّمِيمِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ مُؤْتَمِّنًا عَلَيْهِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «الْمُهَيِّمِنُ الْأَمِينُ»، قَالَ: «الْقُرْآنُ

(١) (١/ ٧٤١).

(٢) برقم (٦٨٤٢).

أَمِينٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ»، ورواه عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطيّة والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسّدي وابن زيد نحو ذلك. وقال ابن جريج: «القرآن أمينٌ على الكتب المتقدّمة قبله، فما وافقه منها فهو حقٌّ، وما خالفه منها فهو باطل».

وعن الوالبي عن ابن عبّاس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أي شهيدًا، وكذا قال مجاهد وقتادة والسّدي، وقال العوفي عن ابن عبّاس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾؛ أي حاكمًا على ما قبله من الكتب.

وهذه الأقوال كلّها متقاربة المعنى؛ فإنَّ اسم «المهيمن» يتضمّن هذا كلّهُ، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كلّ كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلّها». انتهى كلام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ (١).

قوله: «عَرَبِيًّا»؛ أي كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقوله: «غَيْرِ ذِي عِوَجٍ»؛ كما قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٨٢).

قوله: «مُصَدِّقًا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ»؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

١١٤- فِيهِ التَّفَاصِيلُ لِلْأَحْكَامِ مَعَ نَبَأٍ عَمَّا سَيَأْتِي وَعَنْ مَاضٍ مِنَ الْأُمَمِ

قوله: «فِيهِ التَّفَاصِيلُ لِلْأَحْكَامِ»؛ أي في القرآن الكريم تفاصيل أحكام الشريعة، وبيان الحلال والحرام، وبيان الأمر والنهي، والواجب والحرام والمستحب والمكروه، كل ذلك مبينٌ مفصَّلٌ في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال لنبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فقلوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ يعني تفاصيل الشرائع والأحكام حتَّى جاء تبيينها بهذا الوحي الكريم والذكر الحكيم.

قوله: «مَعَ نَبَأٍ»؛ أي مع خبر.

قوله: «عَمَّا سَيَأْتِي وَعَنْ مَاضٍ مِنَ الْأُمَمِ»؛ أي أنَّ القرآن إضافةً إلى ما فيه من بيان الأحكام والشرائع؛ فإنَّ فيه أنباء الأوَّلين والآخرين، وفيه قصص الأوَّلين

الماضين، وأيضاً قصص مَنْ سيأتي من الأمم ممَّا أخبر به الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه. وتقدَّم قريباً حديث عليٍّ عليه السلام، وفيه: «كتابُ الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم»، وهذه الأمور الثلاثة جمعها الناظم في هذا البيت.

□ قال الناظم رحمته الله:

١١٥- فأنظر قوارِعَ آياتِ المعادِ بِهِ وأنظر لما قصَّ عن عادٍ وعن إرم

قوله: «فأنظر قوارِعَ آياتِ المعادِ»؛ أي فانظر، وتأمل في الآيات التي تتحدَّث عن المعاد، وتفاصيل يوم القيامة، وما في ذاك اليوم من أهوال وشدة وكرب، وأيضاً ما يتعلَّق بالمعاد والبعث والنُّشور والجزاء والعقاب والجنة والنار. وقوله: «به»؛ أي فيه؛ لأنَّ الباء - وهي حرف جرٍّ - تنوب عن «في» ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ لَهُ الْعَرَاءَ﴾ [الصافات: ١٤٥] أي في العراء، ولهذا أمثلة أخرى في القرآن.

قوله: «وأنظر لما قصَّ عن عادٍ وعن إرم»؛ أي فانظر - أيضاً - في القرآن قصص الأمم العاتية كيف أحلَّ الله بهم أنواع العقوبات وصنوف المثلات، فهذا كلُّه جاء مفصَّلاً في مواضع عديدة من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصٍ رَصَادٍ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤]، وعادٌ هي إرم قبيلة معروفة كانت باليمن.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١١٦- وانْظُرْ بِهِ شَرْحَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ هَلْ تَرَى بِهَا مِنْ عَوِيصٍ غَيْرِ مُنْفَصِمٍ

قوله: «به»؛ أي فيه - كما سبق -، والمعنى: انظر في القرآن شرح أحكام الشريعة تجدها مبيّنة ومفصلة على التمام والكمال.

«هَلْ تَرَى بِهَا»؛ أي فيها «مِنْ عَوِيصٍ»؛ «العويص»: الأمر العسير، وكلام عويص أي صعب، مأخوذ من العوص: وهو ضدُّ الإمكان واليسر.

«غير مُنْفَصِمٍ»؛ أي غير منقطع، و«الانفصام»: الانقطاع.

أي: يقول: تأمل أحكام الشريعة الواردة في القرآن؛ هل ترى فيها أحكاماً عويصة، أي صعبة عسيرة، سواء في فهمها أو في العمل بها وتطبيقها، هل تجد شيئاً من ذلك، ثم لو قدر أنّ شيئاً منها أشكل على بعض الناس أو على بعض الفهوم، فهل فيها شيءٌ من الأحكام يشكل بحيث لا ينقسم الأمر، ولا يستبين مطلقاً أم أنّها أحكام واضحة وأمور ميسرة؟

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١١٧- أَمْ مِنْ صَلاَحٍ وَلَمْ يَهْدِ الْأَنَامُ لَهُ أَمْ بِابٍ هُلْكٍ وَلَمْ يَزْجُرْ وَلَمْ يَلْمِ

«أَمْ» حرف عطف، «من صلاح» معطوفة على «من عويص».

قوله: «وَلَمْ يَهْدِ الْأَنَامُ لَهُ»؛ جاء في «القاموس»^(١): «الْأَنَامُ: الْخَلْقُ أَوْ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَوْ جَمِيعُ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

والمراد بـ«الأنام» هنا: الجن والإنس؛ لأنهم هم المعنيون بالخطاب في هدايات القرآن الكريم.

قوله: «أَمْ بَابٍ» معطوفة على ما سبق، «هُلِكَ»؛ أي هلاك، في «القاموس»^(٢): «هَلَكَ كَضَرَبَ وَمَنَعَ وَعَلِمَ، هُلُكًا - بِالضَّمِّ -، وَهَلَاكًا».

«وَلَمْ يَزُجِرْ»؛ أي لم يزجر الله عنه، «وَلَمْ يَلْمَ»؛ يعني فاعله، أو يزجر عن فعله. ومعنى البيت: أي عندما تتأمل في نصوص القرآن هل ترى شيئاً فيه مصالح للعباد ومنافع وفيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ولم يهد الأنام له؟ أو هل هناك في القرآن شيء من الأمور التي فيها هلاكٌ ومفسدةٌ ومضرةٌ على الأنام ولم يزجر عنها ويحذر منها؟

يقول شيخ الإسلام في بيان شمول الشريعة لكل خير، وهدايتها لكل صلاح وفلاح، ونهيها عن كل شرٍّ وباطل كما في «مجموع الفتاوى»^(٣)، قال رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدْ أَمَرَ اللهُ الرَّسُولَ ﷺ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَنَهَى عَنْ كُلِّ مَنكَرٍ، وَأَحَلَّ كُلَّ طَيِّبٍ وَحَرَّمَ كُلَّ خَبِيثٍ، وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ فِي «الصَّحِيحِ» أَنَّهُ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ شَرٍّ

(١) «القاموس المحيط» للفيروز أبادي (ص ١٣٩٣).

(٢) (ص ١٢٣٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٢٣ - ٦٢٤).

مَا يَعْلَمُهُ»^(١)... وينبغي أن يُعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب، والأعمال الفاسدة نهى الله عنها، والعمل إذا اشتمل على مصلحة ومفسدة؛ فإن الشارع حكيم فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه، وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم يشرعه بل نهى عنه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ولهذا حرّمهما الله تعالى بعد ذلك.

وهكذا ما يراه الناس من الأعمال مقرباً إلى الله ولم يشرعه الله ورسوله؛ فإنه لا بد أن يكون ضرره أعظم من نفعه، وإلا فلو كان نفعه أعظم غالباً على ضرره لم يهمله الشارع؛ فإنه ﷺ حكيم لا يهمل مصالح الدين، ولا يفوت المؤمنين ما يقرّبهم إلى ربّ العالمين.

وقال رحمه الله في موضع آخر^(٢): «الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فجميع المحرمات من الشّرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد؛ لكن لما كانت مفسدتها راجحة على مصالحها نهى الله ورسوله عنها، كما أن كثيراً من الأمور كالعبادات والجهاد، وإنفاق الأموال قد تكون مضرّة؛ لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع».

(١) رواه مسلم برقم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٦٥).

□ قال النّازم رحمه الله:

١١٨- أَمْ كَانَ يُغْنِي نَقِيرًا عَنْ هِدَايَتِهِ جَمِيعُ مَا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ نُظْمٍ

«أَمْ كَانَ يُغْنِي»؛ أَيضًا معطوفٌ على ما سبق، «نَقِيرًا»؛ «النَّقِير»؛ هي النُّقْطَةُ التي تكون على نواة التَّمَر.

أي أَن هذا لا يكون؛ لأنَّ شريعة الإسلام جاءت شاملةً لكلِّ خيرٍ، دالَّةٌ على كُلِّ صلاح وفلاح، ولا يمكن أن يُستغنى عن الشَّريعة بالنُّظم التي يخترعها النَّاس ويؤسِّسونها من بنات عقولهم ونسج أفكارهم.

ومعنى البيت: هل يُغني عن هداية القرآن ولو بمقدار نقطة يسيرة أو قدر يسير جدًّا جميعُ ما عند أهل الأرض من النُّظم التي يخترعونها ويؤسِّسونها من بنات عقولهم ونسج أفكارهم؟! الجواب: لا؛ لأنَّ شريعة الله ﷻ جاءت شاملةً لكلِّ خيرٍ وفلاح وسعادةٍ للنَّاس في الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله في خواتيم كتابه «إعلام الموقعين»: «وهذا الأصل من أهمِّ الأصول وأنفعها، وهو مبنيٌّ على حرفٍ واحد، وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كُلِّ ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنَّه لم يحوج أمَّته إلى أحدٍ بعده، وإنَّما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومٌ محفوظان لا يتطرَّق إليهما تخصيص: عمومٌ بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعمومٌ بالنسبة إلى كُلِّ ما يحتاج إليه من بُعث إليه في أصول الدِّين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامَّة، لا تُحوج إلى سواها، ولا يتمُّ الإيمان به إلَّا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحدٌ من المكلفين عن رسالته ولا يخرج نوعٌ من أنواع الحقِّ الَّذي تحتاج إليه الأمَّة في علومها وأعمالها عمَّا جاء به.

وقد توفّي رسول الله ﷺ وما طائرٌ يقبّل جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً، وعلمهم كلّ شيء حتّى آداب التّخلي وآداب الجماع والنّوم والقيام والقعود، والأكل والشّرب، والرّكوب والنّزول، والسّفر والإقامة، والصّمت والكلام، والعزلة والخُلطة، والغنى والفقر، والصّحّة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت، ووصف لهم العرش والكرسيّ والملائكة والجنّ والنّار والجنّة ويوم القيامة، وما فيه حتّى كأنّه رأي عَيْنٍ، وعَرَفَهم معبودهم وإلههم أتمّ تعريفٍ حتّى كأنّهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعَرَفَهم الأنبياء وأمّهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتّى كأنّهم كانوا بينهم، وعَرَفَهم من طرق الخير والشرّ دقيقتها وجليّلتها ما لم يَعْرِفْهُ نبيٌّ لأُمَّته قبله، وعَرَفَهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النّعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يَعْرِفْ به نبيٌّ غيره، وكذلك عَرَفَهم ﷺ أدلّة التّوحيد والنّبوة والمعاد والرّدّ على جميع فرق أهل الكفر والضّلال ما ليس لمن عَرَفْهُ حاجة من بعده، اللَّهُمَّ إِلَّا إِلَى مِنْ يَبْلُغُهُ إِيَّاهُ وَيُبَيِّنُهُ وَيُوضِّحُ مِنْهُ مَا خَفِيَ عَلَيْهِ، وكذلك عَرَفَهم ﷺ من مكاييد الحروب ولقاء العدو وطرق النّصر والظّفَر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حقّ رعايته لم يَقُمْ لَهُمْ عَدُوٌّ أَبَدًا، وكذلك عَرَفَهم ﷺ من مكاييد إبليس وطُرُقِهِ الَّتِي يَأْتِيهِمْ مِنْهَا وَمَا يَتَحَرَّزُونَ بِهِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ، وَمَا يَدْفَعُونَ بِهِ شَرَّهُ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وكذلك عَرَفَهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها وفسائسها وكماثنتها ما لا حاجة لهم معه إلى سِوَاهُ، وكذلك عَرَفَهم ﷺ من أمور معاشهم ما لو عَلِمُوهُ وَعَمِلُوهُ لاسْتَقَامَتْ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ أَعْظَمَ اسْتِقَامَةٍ.

وبالجملة؛ فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يظنُّ أنَّ شريعته الكاملة التي ما طرَّقَ العالمُ شريعةً أكمل منها ناقصةً تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟! ومن ظنَّ ذلك فهو كمن ظنَّ أنَّ بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظنَّ ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله له أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاذ، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزبد أفكارهم، وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟! فالله المستعان^(١). اهـ

□ قال الناظم رحمه الله:

١١٩- أخبره عِظَةٌ أمثاله عِبرٌ وكلُّه عَجَبٌ سُحْقًا لِيذِي صَمَمٍ

«أخباره»؛ أي أخبار القرآن، «عِظَةٌ»؛ أي فيها عظة للمتّعظ، قال جَلَّ وَعَلَا:

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا:

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧]، ومن يطالع قصص

القرآن يجد فيها العِظَةَ والعِبرَةَ: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

[يوسف: ١١١].

(١) «إعلام الموقعين» (٤ / ٣٧٧).

«أَمْثَلُهُ عِبر»؛ أي للمعتبرين أولي الألباب، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيْلَكَ أَلَا مِثْلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿وَيْلَكَ أَلَا مِثْلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

«وَكُلُّهُ عَجَب»؛ أي القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

«سُحْقًا لِّذِي صَمَم»؛ أي بُعدًا لمن صُمَّت أذنه عن سماع الهدى والحقِّ الَّذي جاء في كتاب الله ﷻ.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٠- لَمْ تَلْبَثِ الْجِنُّ إِذْ أَصْغَتْ لِتَسْمَعَهُ أَنْ بَادَرُوا نُذْرًا مِنْهُمْ لِقَوْمِهِمْ

يذكر هنا رَحِمَهُ اللهُ قصَّة النَّفَر من الجنِّ الَّذين أكرمهم الله ﷻ، وسمعوا القرآن من صوت النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله: «أَصْغَتْ»؛ أي مالت، يقال: أصغى إلى الشَّيْء إذا مال إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِصَّغَى إِلَيْهِ أَفْعَدُ﴾ [الأنعام: ١١٣]؛ أي ولِتَمِيل.

«أَنْ بَادَرُوا نُذْرًا»؛ أي ما إن استمعوا إلى هذا الذِّكْر الحكيم والكلام العظيم إِلَّا رجعوا إلى قومهم منذرين، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا

لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَفْقَوْمَنَا أُجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ
يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٢١- اللَّهُ أَكْبَرُ مَا قَدْ حَازَ مِنْ عِبَرٍ وَمِنْ بَيَانٍ وَإِعْجَازٍ وَمِنْ حِكْمٍ

تكبير الشيخ في هذا البيت والذي بعده تعظيم لكتاب الله، فالتكبير يأتي للتعظيم ويأتي للتعجب، ونظير هذا تكبير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما بشرهم النبي ﷺ بأنهم شطر أهل الجنة، قالوا: «الله أكبر»، والحديث في «الصحيحين»^(١).

قوله: «مَا قَدْ حَازَ»؛ أي جمع، «مِنْ عِبَرٍ»؛ أي من عظات بالغات، «وَمِنْ بَيَانٍ»؛ كما قال ﷺ: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]؛ أي دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والكفر من الإيمان، «وَإِعْجَازٍ»؛ «الإعجاز» مأخوذ من العَجَز، وهو نقيض القدرة، والمراد بـ«إِعْجَاز القرآن»: إثبات القرآن عَجَزَ الخلق عن الإتيان بما تحدّاهم به، وسيأتي بيان ذلك عند الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٤٨)، ومسلم برقم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٢- واللَّهُ أَكْبَرُ إِذْ أُغِيَتْ بِلَاغَتُهُ وَحُسْنُ تَرْكِيبِهِ لِلْعُرْبِ وَالْعَجَمِ

قوله: «أُغِيَتْ»؛ أي أعجزت، «بلاغته»؛ أي فصاحته، ويقال في تعريف البلاغة: هي فصاحة الكلام مع مطابقتها لمقتضى الحال.

وقوله: «وَحُسْنُ تَرْكِيبِهِ لِلْعُرْبِ وَالْعَجَمِ»؛ أي أَنَّ بلاغة القرآن وحسن تركيبه أعجزت العرب والعجم من أن يأتي أحدٌ منهم بمثله أو بسورة من مثله، كما سيذكر ذلك النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٣- كَمْ مُلْحِدٍ رَامَ أَنْ يُبْدِيَ^(١) مُعَارَضَةً فَعَادَ بِالذُّلِّ وَالْخُسْرَانِ وَالرَّغَمِ

قوله: «كَمْ» هنا للتكثير، «مُلْحِدٍ»؛ من الإلحاد وهو الميل، و«الملحد»: المائل عن الحق، المُدْخِل فيه ما ليس منه، «رام»؛ أي طلب، «أَنْ يُبْدِيَ مُعَارَضَةً»؛ أي للقرآن، يقال: عارضته بمثل ما صنع؛ إذا أتيت إليه بمثل ما أتى إليك، ومعارضة القرآن أن يأتي بمثله، «فَعَادَ بِالذُّلِّ وَالْخُسْرَانِ وَالرَّغَمِ»؛ حاول عددٌ من الملحدين معارضة القرآن، وكانت النتيجة الذُّلُّ والخسران والرَّغَم، و«الرَّغَم»؛ هو الذُّلُّ والصَّغار، يقال: رغم أنفه رَغْمًا، إذا ساخ في الرَّغَام، و«الرَّغَام» هو التُّراب، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي الذُّلِّ وَالْعِجْزِ وَالصَّغَارِ.

(١) يأسكان الياء مراعاة للوزن العروضي.

وقد أثبت التاريخ أنَّ الَّذي حصلت منه هذه المحاولة لم يخرج عن إحدى نتيجتين: إمَّا أن ييؤء بالخيبة وإعلان العجز والإفلاس وعدم القدرة، وإمَّا أنَّه يأتي بسخافات وهُراء وكلامٍ سَمَجٍ سقيم.

مثال الأوَّل: ما ذكره الشُّوكاني في تفسير أوَّل آية من سورة المائدة، قال:

«هذه الآية التي افتتح الله بها هذه السُّورة إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١] فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشريَّة مع شمولها لأحكام عدَّة: منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الأنعام، ومنها استثناء ما سيتلى ممَّا لا يحلُّ، ومنها تحريم الصَّيد على المُحرَّم، ومنها إباحة الصَّيد لمن ليس بمحرَّم، وقد حكى النَّقاش أنَّ أصحاب الفيلسوف الكِندي قالوا له: أيُّها الحكيم! اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم، أعمل مثل بعضه فاحتجب أيَّامًا كثيرة، ثمَّ خرج فقال: والله! ما أقدر، ولا يطيق هذا أحدٌ إنِّي فتحتُ المصحف فخرجتُ سورة المائدة، فنظرتُ فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النَّكث، وحلَّل تحليلًا عامًّا، ثمَّ استثنى بعد استثناء، ثمَّ أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا»^(١).

ومثال الثَّاني: قصَّة مسيلمة الكذاب، قال ابن كثير في «تفسيره»: «قد روينا عن عمرو بن العاص أنَّه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكَّة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ ۝٢﴾

(١) «فتح القدير» (٥ / ٢).

لَفِي خُسْرٍ ﴿١﴾، فَفَكَّرَ سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: وَلَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ مِثْلُهَا، فَقَالَ: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: «يَا وَبُرَّ، يَا وَبُرَّ، إِنَّمَا أَنْتَ أَذْنَانُ وَصَدْرٌ، وَسَائِرُكَ حَقَرٌ فَقْرٌ»، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تَرَى يَا عَمْرُو؟ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: وَاللَّهِ! إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تَكْذِبُ»^(١).

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٢٤- هِيَهَاتَ بُعْدًا لِمَا رَامُوا وَمَا قَصَدُوا وَمَا تَمَنَّوْا لَقَدْ بَاؤُوا بِذُلِّهِمْ
أي: هؤلاء الملاحدة الذين حاولوا وراموا واجتهدوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو أن يعارضوا القرآن «هيهاتَ وبُعْدًا لِمَا رَامُوا»؛ أي أَنَّ هذا مطلبٌ عزيزُ المنال لا سبيلَ لنيله، ومعنى «هيهاتَ»: اسم فعل ماضٍ بمعنى بُعد.

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٢٥- خَابَتْ أُمَانِيَّتُهُمْ شَاهَتْ وَجُوهُهُمْ زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ هَدْيِهِ الْقِيَمِ
قوله: «خَابَتْ أُمَانِيَّتُهُمْ»؛ أي باءت بالخيبة والخسران، والذُّلُّ والحرمان، «شاهت وجوهُهم»؛ هذا دعاءٌ على هؤلاء الملاحدة بأنَّ الله ﷻ يشوُّه وجوهُهم، ومعنى يشوُّهها أي يقبِّحها، يقال: رَجُلٌ أَشَوَّهَ قَبِيحُ الْوَجْهِ، شَاهَتْ الْوَجُوهُ، تَشْوُهُ شَوْهًا قَبِيحًا، وقد جاء في «صحيح مسلم»^(٢) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَمَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِكَفٍّ مِنْ حَصَى، وَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»؛ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٨٢).

(٢) برقم (١٧٧٧).

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٦- كَمْ قَدْ تَحَدَّى قَرِيشًا فِي الْقَدِيمِ وَهُمْ أَهْلُ الْبَلَاغَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ

تحدّى الله ﷻ في القرآن في مواضع عديدة - سيأتي ذكرها - قريشًا وهم أهل بلاغة وفصاحة ولسان، مشهورون بذلك بين الخلق، وكانت النتيجة عجزهم وخيبتهم.

يقول الحافظ ابن كثير وهو يتحدث عن معجزات الأنبياء: «وكذلك محمدٌ ﷺ بعثه الله في زمن الفُصحاء والبُلغاء ونحارير الشُّعراء، فأتاهم بكتاب من الله ﷻ لو اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وما ذاك إلا لأنّ كلام الرّب لا يشبهه كلام الخلق أبدًا»^(١).

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٧- بِمِثْلِهِ وَبِعَشْرِ ثَمٍّ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يَرَوْمُوهُ إِذْ ذَا الْأَمْرِ لَمْ يُرَمَّ

قوله: «بمِثْلِهِ»؛ أي تحدّاهم أن يأتوا بمثله، «وبعشر»؛ أي بعشر سور من مثله، «ثمّ واحدة»؛ أي بسورة واحدة، «فلم يَرَوْمُوهُ»؛ أي لم يستطيعوا هذا الأمر وأنّى لهم ذلك! «إذ ذاك»؛ أي هذا، «الأمر لم يُرم»؛ أي لا يستطيع أحد أن يناله أو يظفر به أو يحصّله.

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٤٨).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «بِمِثْلِهِ»؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقوله: «وبعشر»؛ أي: عشر سور كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

وقوله: «ثم واحدة»؛ أي: سورة واحدة كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ويقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٨- الجنُّ والإنسُ لم يأتوا لَوِ اجتمعوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ انْضَمُّوا لِمِثْلِهِم

هذا البيت يشير فيه إلى الآية المتقدمة: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].
فلو اجتمع الجنُّ والإنس، أوَّلهم وآخرهم، وانضمَّ بعضهم إلى بعض على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

١٢٩- أُنِّي وَكَيْفَ رَبُّ الْعَرْشِ قَائِلُهُ سُبْحَانَهُ جَلَّ عَنْ شِبْهِهِ لَهُ وَسَمِي

قوله: «أُنِّي»؛ أي هيهات، «وَكَيْفَ رَبُّ الْعَرْشِ قَائِلُهُ»، والفرق بين كلامه ﷺ وكلام خلقه، كالفرق بينه وبين خلقه، وقد مرَّ قول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وما ذاك إِلَّا لِأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ لَا يَشْبَهُهُ كَلَامُ الْخَلْقِ أَبَدًا».

قوله: «سُبْحَانَهُ»؛ أي تنزَّهه، «جَلَّ عَنْ شِبْهِهِ لَهُ وَسَمِي»، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ أي نظيرًا ومماثلًا ومشابهًا.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٣٠- مَا كَانَ خَلْقًا وَلَا فَيْضًا تَصَوَّرَهُ نَبِينًا لَا وَلَا تَعْبِيرَ ذِي نَسَمٍ

قوله: «مَا كَانَ خَلْقًا»؛ أي القرآن ليس بمخلوق، بل هو كلام الله ﷻ، «وَلَا فَيْضًا تَصَوَّرَهُ نَبِينًا»؛ أي وليس القرآن - أيضًا - فيضًا فاضَّ على قلب نبيٍّ ﷺ استنادًا إلى تصوُّره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأشياء، بل هو وحيٌّ من الله ﷻ.

فقوله: «مَا كَانَ خَلْقًا»؛ فيه ردٌّ على الجهميَّة.

وقوله: «وَلَا فَيْضًا تَصَوَّرَهُ نَبِينًا»؛ فيه ردٌّ على الفلاسفة.

وقوله: «وَلَا تَعْبِيرَ ذِي نَسَمٍ»؛ فيه ردٌّ على الأشاعرة والكلابيَّة وغيرهم ممَّن قالوا: إِنَّ الْقُرْآنَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ حِكَايَةٌ لِكَلَامِ اللَّهِ، فردَّ الشَّيْخُ عَلَى جَمِيعِ هَؤُلَاءِ بِهَذَا الْبَيْتِ.

١٣١- بَلْ قَالَ رَبُّنَا قَوْلًا وَانزَلَهُ وَحْيًا عَلَى قَلْبِهِ الْمُسْتَقِظِ الْفَهِمِ

كُلُّ مَا قَالَ هُوَ لَا بَاطِلٌ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّنَا تَكَلَّمَ بِهِ هُوَ ﷺ حَقِيقَةً،
«وَأَنْزَلَهُ»؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ٩٩]، «وَحْيًا»
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، «عَلَى قَلْبِهِ»؛
أَيَّ قَلْبِ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنُزُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣٢)
نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٣٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿[الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

فَالْقُرْآنُ بَدَأَ مِنْ اللَّهِ، هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ، وَسَمِعَهُ مِنْهُ جَبْرِيلُ، وَنَزَلَ بِهِ
عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ: «الْمُسْتَقِظُ»؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُسْتَقِظٌ لَا يَنَامُ، كَمَا جَاءَ فِي
«الصَّحِيحِينَ» (١): «يَا عَائِشَةُ! إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي».
وَقَوْلُهُ: «الْفَهِمُ»؛ أَيُّ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ ﷺ بِتَمَامِ الْفَهْمِ وَكَمَالِهِ.

يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ» (٢): «وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ: الْإِيمَانُ
بَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مَنْزَلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ
حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامُ
غَيْرِهِ، وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ عِبَارَةٌ، بَلْ إِذَا قَرَأَهُ
النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ اللَّهِ - تَعَالَى -

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْم (١١٤٧)، وَمُسْلِمٌ بِرَقْم (٧٣٨).

(٢) «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد خليل هراس (ص ١٩٧ - ١٩٨).

حقيقة؛ فإنَّ الكلام إنَّما يضاف حقيقةً إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قاله مبلِّغاً مؤدِّياً، وهو كلام الله؛ حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف».

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٣٢- واللَّهُ يَشْهَدُ وَالْأَمْلاَكُ شَاهِدَةٌ وَالرُّسُلُ مَعَ مُؤْمِنِي الْعُرْبَانِ وَالْعَجَمِ
كُلُّ هَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ ﷻ أَنْزَلَهُ عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِ ﷺ،
وَلَا يَجِدُ ذَلِكَ إِلَّا صَاحِبَ زَيْغٍ وَضَلَالٍ وَنَأْيٍ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى.



الوصية بالسنة

جمع رَحِمَهُ اللهُ هُنا جُمْلَةً من الوصايا العظيمة حول سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ والعناية بها حفظاً وفهماً ونشراً وتعليماً، ويُنَّ مكانة السُّنَّةِ في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وبيَّن شرفَ المعتنِّين بها، المحافظين عليها، الذَّاكِّينَ عنها، بدأ ذلك بقوله:

١٣٣- اِرْوِ الْحَدِيثَ وَلَا زِمِ أَهْلَهُ فَهُمْ النَّاجُونَ نَصًّا صَرِيحًا لِلرَّسُولِ نُمِي

أي: اعتنِ برواية الحديث وحفظه ونقله والاستشهاد به والاستدلال به، «ولا زِمِ أَهْلَهُ»؛ أي المعتنِّين به، «فَهُمُ النَّاجُونَ»؛ أي الذين تحقَّقت نجاتهم لاعتصامهم بكتاب الله وتمسُّكهم بسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، والمراد بـ«النَّجاة»؛ أي من سَخَطَ اللهُ ﷻ وَعَقَبَهُ.

«نَصًّا صَرِيحًا»؛ أي تحقُّق نِجاة هؤلاء جاء فيه نصٌّ صريحٌ، «لِلرَّسُولِ نُمِي»؛ أي رُفِعَ إلى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يشير إلى ما رواه ابن ماجه والإمام أحمد عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»^(١).

وعند الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(٢).

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٣٩٩٣)، و«المسند» (١٢٠/٣).

(٢) «جامع الترمذي» برقم (٢٦٤١)، وللحديث طرق وشواهد أخرى خرَّجها العلامة

الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «السُّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» برقم (٢٠٣، ٢٠٤).

وقد روى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»^(١) وغيره عن الإمام أحمد أنه قال: «إن لم يكونوا أصحاب الحديث، فلا أدري من هم؟!».

وفي «الصحيحين»^(٢) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

وفي «صحيح مسلم»^(٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

وروى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» عن يزيد بن هارون، وعبد الله بن المبارك، والإمام أحمد، وعلي بن المديني أنهم قالوا: «هم عندي أصحاب الحديث»^(٤).

قال أبو عبد الحاكم في «معرفه علوم الحديث»^(٥): «فلقد أحسن أحمد ابن حنبل في تفسير هذا الخبر أَنَّ الطَّائِفَةَ المنصورة الَّتِي يُرْفَعُ الخِذْلَانُ عنهم إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ هم أصحاب الحديث، وَمَنْ أَحَقُّ بهذا التَّأْوِيلِ مَنْ قَوْمٍ سَلَكُوا مَحَبَّةَ الصَّالِحِينَ وَاتَّبَعُوا آثَارَ السَّلَفِ مِنَ الْمَاضِينَ، وَدَمَغُوا أَهْلَ الْبِدْعِ وَالْمُخَالَفِينَ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ».

(١) (ص ٢٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٣١١)، و«صحيح مسلم» برقم (١٩٢١).

(٣) برقم (١٩٢٠).

(٤) (ص ٢٧).

(٥) (ص ٣٥).

□ قال النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٣٤- سَامِتْ مَنَابِرَهُمْ وَاحْمِلْ مُحَابِرَهُمْ وَالزَّمْ أَكَابِرَهُمْ فِي كُلِّ مُزْدَحَمٍ

قوله: «سَامِتْ»؛ أي اقصِد، «السَّمتُ»: قصد الشيء، «مَنَابِرَهُمْ»؛ «المنابر» جمع منبر، وهو المكان الَّذي يرتقيه الخطيب والواعظ، والمعنى: اقصد مجالس أهل الحديث ومجالس العلم والفقه في دين الله، واحرص على حضورها والإفادة منها. «وَاحْمِلْ مُحَابِرَهُمْ»؛ المحابر جمع محبرة، ومراد النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ: أي احرص عند حضورك لمجالس أهل العلم أن يكونَ معك القلمُ والقِرطاسُ؛ لتقييد الفوائد، فالعلم صَيْدٌ والكتابةُ قيده.

«وَالزَّمْ أَكَابِرَهُمْ»؛ أي أكابر أهل العلم، كما جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ صَالِحِينَ مَتَمَسِّكِينَ مَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمِنْ أَكَابِرِهِمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ مِنْ أَصَاغِرِهِمْ هَلَكُوا»، رواه عبد الرزَّاق في «المصنَّف» (١) وغيره.

«فِي كُلِّ مُزْدَحَمٍ»؛ أي إذا ازدحم النَّاسُ وتجمَّعوا على شيء، فليكن حرصك على المزاحمة بالركب عند الأكابر من أهل العلم والفقه في دين الله والقَدَمُ الرَّاسِخَةُ فيه والعمر المديد في تحصيله وتعليمه والتَّفَقُّيه فيه.

(١) برقم (٢٠٤٤٦).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٣٥- اسْلُوكُ مَنْارَهُمْو وَالزَّمْ شِعارَهُمْ واحْطُظْ رِحالَكَ إِن تَنْزِلْ بِسُوحِهِمْ

قوله: «اسْلُوكُ مَنْارَهُمْو»؛ «المنار» هو العلامة، والمراد: سِرٌّ في الطَّرِيق الَّذِي ساروا عليه، ملتزمًا معالم طريقهم، مقتفياً آثارهم، لا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا. «وَالزَّمْ شِعارَهُمْ»؛ أي: الزَّم الهدى الَّذِي لَزِمُوهُ، وتمسَّك بالنَّهْج الَّذِي كانوا عليه؛ فَإِنَّ شِعارَهُمْ وَسِمَتَهُمْ التَّمسُّك بالوحي المبين. «واحْطُظْ رِحالَكَ»؛ «الحطُّ»: الوضع، و«رحال»: جمع رَحْل، وهو المركب للبعير.

«إِنَّ تَنْزِلْ بِسُوحِهِمْ»؛ جمع ساحة، وتجمع - أيضًا - على ساحات، وهي الأرض الفضاء بين الدُّور، والمراد بقوله: «واحْطُظْ رِحالَكَ إِن تَنْزِلْ بِسُوحِهِمْ»؛ أي إذا جئت مكانهم؛ فلازم الجلوس والاطمئنان والحرص والتَّعلُّم. والرَّجُل المرتحل إذا حطَّ رحالَه؛ فهذا إشعارٌ بطول المكث، بخلاف المستعجل يُبقي رحالَه كما هي.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٣٦- هُمُ الْعُدُولُ لِحْمِلِ الْعِلْمِ كَيْفَ وَهُمْ أُولُو الْمَكَارِمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشَّيَمِ

قوله: «هُمُ الْعُدُولُ لِحْمِلِ الْعِلْمِ»؛ ذكر هنا عدالتهم، وأنَّهم خيرُ حملةٍ للعلم، اعتنوا بالعلم حفظًا وعملاً وإبلاغًا للأُمَّة، وكلُّ هذه المعاني داخلَةٌ في حمل العلم، حمل العلم في الصُّدور، وحمل العلم إلى النَّاس؛ نصحًا وبيانًا وتعليمًا.

وقوله: «كَيْفَ وَهُمْ أُولُو الْمَكَارِمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ»؛ أي إضافة إلى حملهم للعلم هم كذلك أهل الاتِّصاف بالصفات الرَّفِيعَة من مكارم الأخلاق والشَّيْمِ النَّبِيلَة، والآداب الفاضلة الَّتِي حَلَّاهُمْ اللَّهُ ﷻ وَزَيَّنَهُمْ بِهَا.

وقوله ﷻ: «هُمْ الْعُدُولُ لِحَمْلِ الْعِلْمِ»؛ يشير إلى الحديث المشهور: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»^(١).

روى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»^(٢) بسنده عن مهنا - هو ابن يحيى - قال: سألت أحمد عن هذا الحديث، فقلت لأحمد: كأنه كلام موضوع؟ قال: لا هو صحيح، فقلت: مَنْ سمعته أنت؟ قال: من غير واحد...».

وَضَمَّنَهُ فِي خُطْبَةِ كِتَابِهِ «فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ»^(٣)، فَقَالَ ﷻ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ فِتْرَةً مِنَ الرُّسُلِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَى الْهُدَى، وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى، يَحْيُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ الْمَوْتَى، وَيُبْصِرُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ أَهْلَ الْعَمَى، فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لِإِبْلِيسَ قَدْ أَحْيَوْهُ، وَكَمْ مِنْ تَائِهٍ ضَالٍّ قَدْ هَدَوْهُ، فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهُمْ عَلَى النَّاسِ، وَمَا أَقْبَحَ أَثَرَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، يَنْفُونَ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ...».

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠ / ٢٠٩)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص ٢٩) وغيرهما، وصحَّحه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٢٤٨).

(٢) (ص ٢٩).

(٣) (ص ٦).

قال ابن عبد البرّ في «التمهيد»^(١): «وكلُّ حامل علم معروف العناية به، فهو عدلٌ محمولٌ في أمره أبدًا على العدالة حتّى تتبيّن جرحته في حاله»، واستدلّ بهذا الحديث، فالأصل في حملة العلم العدالة.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «مفتاح دار السعادة»^(٢): «فهذا الحمل المشار إليه في هذا الحديث هو التوكّل^(٣) المذكور في الآية (يعني قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩])، فأخبر ﷺ أن العلم الذي جاء به يحمله عدول أمته من كلّ خلف حتّى لا يضيع ويذهب، وهذا يتضمّن تعديله ﷺ لحملة العلم الذي بُعث به، وهو المشار إليه في قوله: «هذا العلم»، فكلُّ من حمل العلم المشار إليه لابدّ وأن يكون عدلاً؛ ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارًا لا يقبل شكًا ولا امتراءً، ولا ريب أنّ من عدّله رسول الله ﷺ لا يُسمع فيه جرح، فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبويّ وميراثه كلّهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ؛ ولهذا لا يُقبل قدحٌ بعضهم في بعض، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتّهمين في الدين، فإنّهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم، فما حمل علم رسول الله ﷺ إلّا عدلٌ، ولكن قد يُغلط في مسمّى العدالة؛ فيظنُّ أنّ المراد بـ«العدل»:

(١) (١/٢٨).

(٢) (١/١٦٣).

(٣) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: «التوكيل».

من لا ذنبَ له، وليس كذلك، بل هو عدلٌ مُؤمَّنٌ على الدين، وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه، فإنَّ هذا لا يُنافي العدالةَ، كما لا يُنافي الإيمانَ والولايةَ.

وقال في «مدارج السَّالِكِينَ»^(١): «واستشهد الله ﷻ بأهل العلم على أجلِّ مشهود به - وهو التَّوْحِيد -، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضَمَنِ ذلك تعديلهم؛ فَإِنَّهُ ﷻ لا يستشهد بمجروح، ومن ههنا - والله أعلم - يؤخذ الحديث المعروف: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُذْلُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَتَأْوِيلَ الْمُبْطِلِينَ». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٣٧- هُمُ الْأَفْضَلُ حَازُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ هُمُ الْأَلَى بِهِمُ الدِّينُ الْحَنِيفُ حُمِي

قوله: «حَازُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ»؛ إشادة بفضل حملة العلم؛ بأنَّهم حازوا خير منقبة بما آتاهم الله ﷻ من بصيرةٍ بدين الله، وعنايةٍ بنشره وإشاعته في النَّاسِ. وقوله: «هُمُ الْأَلَى»؛ «الألى»: اسم موصول بمعنى «الَّذِينَ»، «بِهِمُ الدِّينُ الْحَنِيفُ حُمِي»؛ أي أَنَّ الله ﷻ قَيَّضَهُمْ حَمَاءَ لِلدِّينِ وَأَنْصَارًا لِلسُّنَّةِ، فَكَانُوا أَهْلًا لِلذَّبِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَعَنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَعَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَنْفُونَ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ.

(١) (٢/ ٤٧٠).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٣٨- هُمُ الْجَهَابِذَةُ الْأَعْلَامُ تَعْرِفُهُمْ بَيْنَ الْأَنَامِ بِسِيمَاهُمْ وَوَسْمِهِمْ

قوله: «هُمُ الْجَهَابِذَةُ»؛ جمع جَهْد - بالكسر - وهو النَّقَادُ الخبيرُ بِغَوَامِضِ الْأُمُورِ البارِعُ العَارِفُ بِطُرُقِ النَّقْدِ وتمييز الجيّد من الرديّ^(١)، وهو مُعَرَّبُ «الْأَعْلَامُ» أي أهل النُّبُل والفضل والخير والرُّتَب العليّة.

«بَسِيمَاهُمْ»؛ أي بعلاماتهم، يقال: «سِيمًا» بالقصر، و«سِيَاءً» بالمدّ، «وَوَسْمِهِمْ»؛ «الْوَسْمُ» في الْأَصْل أثر الكيّ، وَسَمَهُ وَيَسِمُهُ وَسْمًا وَسِمَةً، والمعنى أَنَّ هَؤُلَاءِ معروفون بعلاماتٍ وآثار تميّزهم عن غيرهم، والمراد بالعلامات والآثار: الالتزام بالدين والتَّمَسُّك بالسُّنَّة والتَّحَلِّي بالأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة، والسَّمَت الحسن، والبُعد عن سَفَساف الأمور وردئها.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٣٩- هُمْ نَاصِرُو الدِّينِ وَالْحَامُونَ حَوَازَتَهُ مِنَ الْعَدُوِّ بِجَيْشٍ غَيْرِ مُنْهَزِمٍ

قوله: «هُمْ نَاصِرُو الدِّينِ»؛ أي الَّذِينَ قِيَضَهُمُ اللهُ ﷻ أَنْصَارًا لِدِينِهِ، «وَالْحَامُونَ حَوَازَتَهُ»؛ أي قِيَضَهُمُ أَنْصَارًا لِلدِّينِ وحماة لحوزته، «مِنَ الْعَدُوِّ»؛ أي الَّذِينَ حَرَّصُوا عَلَى الصَّدِّ عَنْ دِينِ اللهِ أَوْ نَشَرَ الْبَدْعِ وَالْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ الْبَدْعَةِ، وَأَطْلَقُوا عَنَانَ الْفِتْنَةِ، الْمُخَالَفُونَ لِلْكِتَابِ وَلِلسُّنَّةِ هُمْ أَعْدَاءُ

(١) انظر: «تاج العروس» مادة (ج ه ب ذ).

للدِّين، «بجيش»؛ والمراد بـ«الجيش» هنا قوَّة الرُّدود بالآيات والأحاديث، والنُّقول العظيمة عن أئمة السَّلف، ولهذا ترى بعض كتب الرُّدود لأهل العلم قد يوضع لها عناوين بهذا المعنى مثل: «اجتماع الجيوش الإسلامية»، و«الصَّواعق المرسلة» كلاهما لابن القيم، و«جمع الجيوش والدَّساكر» ليوסף بن عبد الهادي. وقوله: «غَيْرِ مُنْهَزِمٍ»؛ لأنَّ الله ﷻ تَكْفَلُ بنصرة أوليائه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَاغْلِبَ أَنا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، فالغلبة لأنصار الدِّين وحماته، والظَّفَر والنَّصر لرسول الله وأتباعهم.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٠- هُمُ الْبُدُورُ وَلَكِنْ لَا أَقُولَ لَهُمْ بَلِ الشَّمْسُ وَقَدْ فَاقُوا بِنُورِهِمْ

قوله: «هُمُ الْبُدُورُ»؛ جمع بَدْر، ومَرَّ معنا في أوائل هذه المنظومة «فَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»^(١). «لَا أَقُولُ»؛ أي لا غياب، يقال: أَفَلَتِ الشَّمْسُ تَأْفِلُ وتَأْفُلُ أَفْلاً وَأَفْولاً؛ غَرَبَتْ وَغَابَتْ، وكذلك القمر يَأْفُلُ، والمعنى: إِذَا أَفَلَ الْبَدْرُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ وَغَابَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ لَا أَقُولُ لَهُمْ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُمْ لَا يَزَالُ فِي انْتِشَارٍ وَفِي شَيْعٍ، وَالنَّاسُ لَا تَزَالُ تَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا النُّورِ نَوْرَ الْعِلْمِ، وَضِيَاءَ السُّنَّةِ وَالْحَقِّ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ.

(١) (ص ٦٠).

وقوله: «وَقَدْ فَاقُوا بِنُورِهِمْ»؛ أي هؤلاء العلماء قد فاق نورُهم نورَ الشمس والقمر؛ لماذا؟ قال:

١٤١- لم يبقَ للشمس من نورٍ إذا أَفَلَتْ ونورُهم مُشْرِقٌ مِنْ بَعْدِ رَمْسِهِمْ

قوله: «بعد رمسِهِمْ»؛ جاء في «القاموس»: الرَّمْس: القبر، أي بعد دفنهم في القبور، والمعنى أن العالم بعد أن يُدفن في قبره؛ يبقى نوره؛ لأنَّ العلم الَّذي حمَّله وسعى في نشره لا يموت بموته، وهذا هو حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ العالم الجليل دُفن عام ألفٍ وثلاثمائةٍ وسبع وسبعين، ونحن الآن في هذا اليوم مع علم ونور قيَّضه اللهُ ﷻ لبيانه، هو دُفن لكن النور الَّذي أكرمه اللهُ ﷻ بنشره باقٍ.

وهكذا الأئمة والعلماء السابقين منهم واللاحقين قد دُفِنوا وأدخلوا القبور؛ لكنَّ علمهم باقٍ، وهذه - والله - الغنيمة، وهذا عمرٌ لهم بعد عمر، وحياةٌ بعد حياة.

كما قال الشاعر:

ذِكْرُ الْفَقِي عُمُرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وقال آخر:

يَمُوتُ قَوْمٌ فَيُحْيِي الْعِلْمُ ذِكْرَهُمْ وَالْجَهْلُ يُلْحِقُ أَحْيَاءَ بِأَمْوَاتٍ

والعالم لا يزال في قبره تتوالى عليه الأجور وهو في قبره؛ بما بثَّ في الأمة من علم وبيان للدين، ونصرة لسنة النبيِّ الكريم - صلوات الله وسلامه عليه -.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٢- لَهُمْ مَقَامٌ رَفِيعٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ مِنْ الْعِبَادِ سِوَى السَّاعِي كَسَعِيهِمْ

أي أهل العلم مقامهم مقامٌ رفيعٌ وعالٍ، وهذا المقام الرفيع لا يناله كلُّ أحد ولا يظفر به كلُّ إنسان، وإنما الذي يظفر به السَّاعي كسعيهم، حيث إنَّ أهل العلم قد منَّ الله عليهم بالصَّبر والجَلَد، والجَدُّ والاجتهاد حتَّى بلغوا مبلغاً عظيماً ورتبةً عليَّةً، فالَّذي يريد لنفسه مثل مقام هؤلاء فليسعَ مثل سعيهم، وهذا فيه أنَّ العلم لا يُنال إلَّا بالصَّبر والجَدُّ والاجتهاد، كما جاء في «صحيح مسلم»^(١) عن يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ»، وَلَا يُنَالُ بِمَجَرَّدِ الْأَمَانِي، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّرَ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ»^(٢).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٣- أَبْلِغْ مُحْجَّتِهِمْ أَرْجَحْ بِكَفَّتِهِمْ فِي الْفَضْلِ إِنْ قِسْتَهُمْ وَزْنَا بِغَيْرِهِمْ

قوله: «أَبْلِغْ مُحْجَّتِهِمْ أَرْجَحْ بِكَفَّتِهِمْ» أي قُلْ: ما أبلغَ حُجَّتَهُمْ، وما أرحَجَ كِفَّتَهُمْ، مثل قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أي ما أسمعهم، وما أبصرهم يوم القيامة.

(١) رقم (٦١٢).

(٢) رواه الخطيب في «تاريخه» (١٢٧/٩) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ، وأورده الألباني في «السُّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» برقم (٣٤٢) وحسنه.

وقوله: «إِنْ قَسْتَهُمْ وَزَنَّا بغيرِهِمْ» أي إذا أردت أن تقايس وتوازن أهل العلم بغيرهم في الفضل والشرف والشؤدد فأبلغ بحجة العلماء وأرجح بكفتهم فهي الكفة الرَّاجحة، وحبَّتْهم الحجة البالغة الدامغة، ومكانتهم المكانة العالية السَّامقة.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٤- كَفَاهُمُ شَرْفًا أَنْ أَصْبَحُوا خَلَفًا لَسَيِّدِ الْخُنْفَا فِي دِينِهِ الْقِيَمِ

قوله: «كَفَاهُمُ شَرْفًا»؛ أي كفاهم نُبَلًا وفضيلةً ومنزلةً ومكانةً، «أَنْ أَصْبَحُوا خَلَفًا»؛ أي أتباعًا؛ لأنَّهم ورثوا العلم الَّذي جاء به؛ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا ورَثُوا الْعِلْمَ، «لَسَيِّدِ الْخُنْفَاءِ» مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «الْخُنْفَاءُ»: جمع حنيف، وهو المائل عن الضلال إلى الهدى وعن الباطل إلى الحق، وعن الشُّرك إلى التَّوْحِيدِ، «فِي دِينِهِ الْقِيَمِ»؛ الجار والمجرور متعلِّق بقوله: «أَصْبَحُوا خَلَفًا»؛ أي خلفوا النَّبِيَّ ﷺ في دينه القويم، فقاموا بالدَّعوة إليه والانتصار له والذبُّ عنه وحماية حوزته.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٥- يُحْيُونَ سُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فَلَهُمْ أَوْلَى بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ

قوله: «يُحْيُونَ سُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ»؛ فيه إشارة إلى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأُئِمَّةَ الْعَدُولَ يعملون على إحياء السُّنن بخلاف طريقة أهل الباطل المبنية على إشاعة البدع وإماتة السُّنن.

«فَلَهُمْ أَوَّلَىٰ بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ»؛ أي هم أَوْلَى النَّاسِ بِالنَّبِيِّ ﷺ؛
لأنَّهم قاموا بمقامه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حمل الدين ونقله، وبثِّه في الأُمَّة.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٦- يَرُوْنَ عَنْهُ أَحَادِيثَ الشَّرِيعَةِ لَا يَأْلَوْنَ حِفْظَ لَهَا بِالصَّدْرِ وَالْقَلَمِ

قوله: «يَرُوْنَ عَنْهُ أَحَادِيثَ الشَّرِيعَةِ»؛ أي هذا دأبهم وهمهم رواية الحديث عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «لَا يَأْلَوْنَ حِفْظَ لَهَا»؛ أي لا يَدَّخِرُونَ وُسْعًا وطاقَةً وجهدًا في حفظ الحديث، «بِالصَّدْرِ وَالْقَلَمِ»؛ أي يجتهدون في حفظ السُّنَنِ وضبطها في صدورهم، وكتبهم.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٧- يَنْفُونَهَا انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَحْرِيفَ الْغُلَاةِ وَتَأْوِيلَ الْغَوِيِّ اللَّئِيمِ

قوله: «يَنْفُونَهَا»؛ أي عن السُّنَّةِ وعن الشَّرِيعَةِ «انتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وتَحْرِيفَ الْغُلَاةِ وَتَأْوِيلَ الْغَوِيِّ اللَّئِيمِ» يشير إلى الحديث المتقدم: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونُ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»^(١).

قال ابن القيم في «إغاثة اللّهفان»^(٢): «فأخبر أن الغالين يحرفون ما جاء

(١) (ص ١٦٠).

(٢) (١/١٥٩).

به، والمبطلون يتحلون بباطلهم غير ما كان عليه، والجاهلون يتأولونه على غير تأويله، وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة، فلولا أن الله تعالى يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وروى ابن عبد البر في «التمهيد»^(١) عن عبدة بن سليمان المروزي قال: قلت لابن المبارك: أما تخشى على العلم أن يجيء المبتدع فيزيد في الحديث ما ليس منه؟ قال: «لا أخشى هذا بعيش الجهابذة النقاد».

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٨- أَدَّوْا مَقَالَتَهُ نُصْحًا لَأُمَّتِهِ صَانُوا رَوَايَتَهَا عَنْ كُلِّ مُتَّهَمٍ

قوله: «أَدَّوْا مَقَالَتَهُ»؛ أي مقالة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الشَّرِيفَةُ، ومعنى أَدَّوْهَا أي بَلَّغُوهَا لِلأُمَّةِ، الصَّحَابَةُ بَلَّغُوهَا لِلتَّابِعِينَ، وَالتَّابِعُونَ بَلَّغُوهَا لِاتِّبَاعِهِمْ، وَلِسَانُ حَالٍ كُلُّ يَقُولُ: هَذَا مَا أُدِّيَ إِلَيْنَا وَنُؤَدِّيهِ إِلَيْكُمْ تَامًّا كَمَا أُدِّيَ إِلَيْنَا.

«نُصْحًا لَأُمَّتِهِ»؛ هَذَا مِنْ كِمَالِ نَصَحِهِمْ، وَكَانَتْ مَهْمَّتُهُمْ فِي الأُمَّةِ إِبْلَاغُهُمْ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهَدْيِهِ الْقَوِيمَ.

«صَانُوا رَوَايَتَهَا»؛ أي الشَّرِيعَةُ وَالسُّنَّةُ «عَنْ كُلِّ مُتَّهَمٍ»؛ لَا يَقْبَلُونَ رَوَايَتَهُ، وَلِهَذَا أَلْفَتْ مُؤَلَّفَاتٌ كَثِيرَةٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْبَابِ - بَابِ الْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ - وَمَنْ الَّذِي تُقْبَلُ رَوَايَتُهُ وَالَّذِي لَا تُقْبَلُ.

(١) (١/ ٦٠).

جاء في «التعديل والتجريح» للباجي^(١): عن محمد - يعني ابن سيرين - أنه قال: «إنَّ هذا الحديث دينٌ فانظروا عَمَّنْ تأخذونه»، وقال عبد الله ابن المبارك: «الإسناد من الدين، لولا الإسناد؛ لقال من شاء ما شاء»، وكان بهز ابن أسد يقول - إذا ذُكر له الإسناد الصَّحيح -: «هذه شهادة العدول المرضيِّين بعضهم على بعض»، وإذا ذكر له الإسناد وفيه شيء قال: «هذا فيه عهدة»، ويقول: «لو أنَّ رجلاً ادَّعى على رجلٍ عشرة دراهم لم يستطع أخذها إلَّا بشهادة العدول، فدين الله أحقُّ أن يُؤخذ فيه بالعدول»، وقال عبدة ابن سليمان: قيل لابن المبارك في هذه الأحاديث الموضوعة؟ قال: «يعيش لها الجهابذة»، وقال الأوزاعي: سمعت يزيد بن أبي حبيب يقول: «إذا سمعت الحديث فأنشده كما تُنشد الصَّلاة، فإنَّ عُرِف فخذ، وإلَّا فدعه»، وقال ابن عون: «لا يؤخذ هذا العلم إلَّا عَمَّنْ شُهد له بالطلب»، وروى المغيرة عن إبراهيم (هو النَّخعيُّ) قال: «كانوا إذا أرادوا أن يأخذوا عن الرَّجل نظروا إلى صلاته وإلى هيئته وإلى سمته»، وقال عبد الرَّحمن بن مهدي: قال شعبة: «كنت أنظر إلى فم قتادة، فإذا قال: حدَّثنا؛ كتبنا عنه فوقفته عليه، وإذا لم يقل: حدَّثنا؛ لم أكتب عنه»، قال عبد الرَّحمن بن مهدي: «خصلتان لا يستقيم فيهما حُسْنُ الظَّنِّ: الحكم والحديث»، يعني: لا يستعمل حُسْنُ الظَّنِّ في قبول الرواية عَمَّنْ ليس بمرضيٍّ اهـ.

(١) (١/٢٩١).

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٩- لَمْ يُلْهِمْ قَطُّ مِنْ مَالٍ وَلَا خَوَلٍ وَلَا ابْتِیَاعٍ وَلَا حَرِثٍ وَلَا نَعَمٍ

قوله: «لَمْ يُلْهِمْ»؛ أي هؤلاء العلماء الأعلام حملة السُّنَّة «قَطُّ مِنْ مَالٍ وَلَا خَوَلٍ»؛ «الخول»: ما أعطاك الله من النِّعم والعبید والإماء وغيرهم من الحاشية، يقال للواحد منهم: خال، ويجمع على خَوَلٍ، وجاء في «الصَّحیحین»: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ»^(١).

فهذه الأشياء كُلُّها المال، والخول، والبيع والشِّراء، والحرث والأنعام لم تشغلهم عن العلم وتحصيله، قال أبو عبد الله الحاكم في «معرفة علوم الحديث»^(٢): «إِنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ خَيْرَ النَّاسِ وَكَيْفَ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ وَقَدْ نَبَذُوا الدُّنْيَا بِأَسْرَها وَرَاءَهُمْ، وَجَعَلُوا غِذَاءَهُمُ الْكِتَابَةَ، وَسَمَرَهُمُ الْمَعَارِضَةَ، وَاسْتَرَوَاحَهُمُ الْمَذَاكِرَةُ، وَخَلَقَهُمُ الْمِدَادُ، وَنَوْمَهُمُ الشُّهَادُ، وَاصْطِلَاءَهُمُ الضِّيَاءُ، وَتَوَسُّدُهُمُ الْحَصَى، فَالْشَّدَائِدُ مَعَ وَجُودِ الْأَسَانِيدِ الْعَالِيَةِ عِنْدَهُمْ رِخَاءٌ، وَوُجُودِ الرِّخَاءِ مَعَ فَقْدِ مَا طَلَبُوهُ عِنْدَهُمْ بؤْسٌ، فَعَقُولُهُمْ بِلِذَازَةِ السُّنَّةِ غَامِرَةٌ، تَعْلُمُ السُّنَنُ سُرُورَهُمْ، وَمَجَالِسُ الْعِلْمِ حُبُورَهُمْ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ قَاطِبَةُ إِخْوَانِهِمْ، وَأَهْلُ الْإِلْحَادِ وَالْبِدْعِ بِأَسْرَها أَعْدَاؤُهُمْ».

(١) رواه البخاري برقم (٣٠)، ومسلم برقم (١٦٦١) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) (ص ٣٥).

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

١٥٠- هَذَا هُوَ الْمَجْدُ لَا مُلْكٌ وَلَا نَسَبٌ كَلَّا وَلَا الْجَمْعُ لِلْأَمْوَالِ وَالْخَدَمِ

قوله: «هَذَا هُوَ الْمَجْدُ»؛ أي العناية بالعلم وبدين الله وبسنة رسول الله ﷺ، «لَا مُلْكٌ وَلَا نَسَبٌ» فالمجد بالعلم والعمل، «كَلَّا وَلَا الْجَمْعُ لِلْأَمْوَالِ وَالْخَدَمِ»؛ لأنّ هذه كلّها تنتهي إلّا العلم فإنّ النّفع به دائمٌ.

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

١٥١- فَكُلُّ مَجْدٍ وَضِيعٌ عِنْدَ مَجْدِهِمُو وَكُلُّ مُلْكٍ فَخْدَامٌ لِمُلْكِهِمِ

قوله: «فَكُلُّ مَجْدٍ وَضِيعٌ عِنْدَ مَجْدِهِمُو»؛ أي بالنسبة إلى مجد هؤلاء العلماء الأعلام، «وَكُلُّ مُلْكٍ فَخْدَامٌ لِمُلْكِهِمِ»، وهذا فيه أنّ المجد الحقيقيّ والسيادة والعلوّ والرّفعة بالعلم، جاء في «تاريخ بغداد»^(١) عن شعبة أنّه قال: «إنّ سفیان الثوريّ ساد النّاس بالورع والعلم».

وفي «جامع بيان العلم»^(٢) لابن عبد البر: قال الحجاج لخالد بن صفوان: من سيّد أهل البصرة؟ فقال له: الحسن، فقال: وكيف ذلك وهو مولى؟ فقال: احتاج النّاس إليه في دينهم، واستغنى عنهم في دنياهم، وما رأيت أحداً من أشراف أهل البصرة إلّا وهو يروم الوصول في حلقتّه إليه ليستمع قوله ويكتب علمه، فقال الحجاج: هذا والله السُّودَدُ.

(١) (٩/١٦٢).

(٢) رقم (٣٣٢).

١٥٢- وَالْأَمَنُ وَالثَّوْرُ وَالْفَوْزُ الْعَظِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْبُشْرَىٰ لِحِزْبِهِمْ

اشتمل هذا البيت على ذكر أربع ثمرات عليّة وقطوف سنيّة يقطفها هؤلاء:

الأولى: الأمن، أي في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

الثانية: النور، فالعلم نور لصاحبه وضياء يهتدي به في الظلمات، قال تعالى:

﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ

لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال

تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِم مِّن

ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

الثالثة: الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي

جَنَّتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

الرابعة: البُشْرَى في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ

اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٣)

لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا

إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ (١٧) الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

هَدَانَهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿ [الزمر: ١٧-١٨].

ثم إن الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ لما أشاد بهؤلاء وذكر مجدهم وعلوهم ورفعتهم، وفي هذا تشويق للقلوب لتبلغ مبلغهم، فلما أنس رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ القلوب تافت إلى هذه المنازل، واشتقت إلى هذه الدرجات قال:

١٥٣- فَإِنْ أَرَدْتَ رُقِيًّا نَحْوَ رُتَبَتِهِمْ وَرُمْتَ مَجْدًا رَفِيعًا مِثْلَ مَجْدِهِمْ

أي إن أحببت لنفسك هذا الذي أشير إليه في الآيات السابقة، ورغبت في ذلك؛ فعليك بلزوم ما يلي:

١٥٤- فاعْمِدْ إِلَى سُلَمِ التَّقْوَى الَّذِي نَصَبُوا وَاصْعَدْ بَعْزِمَ وَجِدٍّ مِثْلَ جِدِّهِمْ

عليك بسُلَمِ التَّقْوَى، ارق في درجاته؛ فإنك لا تزال في رفعة وعلو ما دُمْتَ فيه، وقوله: «سُلَمِ التَّقْوَى»؛ فيه إشارة إلى تفاوت أهل التَّقْوَى في التَّقْوَى، وتباين درجاتهم فيها، وأنهم ليسوا فيها على درجة واحدة، فاجتهد أن تبلغ الدرجة العليا الرفيعة من درجات المتقين، ويُلَمَح في هذا البيت إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي علماً وضياءً ونوراً تميزون به.

«واصْعَدْ بَعْزِمَ»؛ أي بهمة عالية، «وَجِدٍّ مِثْلَ جِدِّهِمْ»؛ أي اجتهد في تحصيل العلم والعمل به وبذله مثل جد هؤلاء، وهذا - أيضاً - يتطلب أن ينظر طالب العلم في سير هؤلاء وجدَّهم وجلدَّهم وصبرهم ومثابرتهم ويكرِّر المطالعة، كما قال القائل:

كَرَّرَ عَيَّ حِدِيثُهُمْ يَا حَادِي فَحَدِيثُهُمْ يَجْلُو الْفَوَادِ الصَّادِي

فيطالع سير هؤلاء باستمرار واستدامة حتى يكرمه الله ﷻ بمماثلة ومشابهة هؤلاء، قال الشاعر:

الجَدُّ في الجِدِّ والحرمانُ في الكسلِ فانْصَبْ تُصَبْ عن قريبٍ غايةَ الأملِ

□ قال النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٥٥- واعْكُفْ عَلَى السُّنَّةِ الْمُثَلِّ كَمَا عَكَّفُوا حِفْظًا مَعَ الْكَشْفِ عَنْ تَفْسِيرِهَا وَدُمْ

قوله: «كما عكفوا»؛ أي مثلما عكف هؤلاء على سنَّة النبي ﷺ مذاكرةً وحفظاً ومدارسةً.

«حِفْظًا مَعَ الْكَشْفِ عَنْ تَفْسِيرِهَا»؛ يعني لا تكن عنايتك بالسُّنَّةِ عنايةً بالحفظ فقط، بل اعتنِ أيضًا بالكشف عن تفسيرها، وهذا يكون بالأخذ عن أهل العلم الأكابر من حملة السُّنَّة، «ودُم»؛ أي داوم على الحفظ وعلى الفهم روايةً ودرايةً.

□ قال النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٥٦- وَاقْرَأْ كِتَابًا يُفِيدُ الْإِصْطِلَاحَ بِهِ تَدْرِي الصَّحِيحَ مِنَ الْمُوصُوفِ بِالسَّقَمِ

أي: اقرأ في كتب مصطلح الحديث، وللنَّاظم رَحِمَهُ اللهُ منظومة في هذا الباب سمَّاها: «اللُّؤْلُؤُ الْمَكُونُ فِي أَحْوَالِ الْأَسَانِيدِ وَالْمَتُونِ»، وله متن يسمَّى: «دليل أرباب الفلاح لتحقيق فنِّ الاصطلاح».

«به تَدْرِي الصَّحِيحَ مِنَ الْمُوصُوفِ بِالسَّقَمِ»؛ أي بهذا العلم إذا درسته وتعلَّمته تستطيع أن تميِّز بين الصحيح والسَّقَمِ.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٥٧- حَكِّمَ قَوَاعِدَهُ وَأَحْرَزَ فَوَائِدَهُ تَحْزَنُ عَوَائِدَهُ كَالدَّرِّ تَنْتَظِمُ

أي: اعتن بقواعد هذا الفن واحرص على ضبطها لعظم فائدها؛ فإن فيها «بحث أحوال السند من حيث انتهائه من مرفوع وموقوف ومقطوع، وفي ذاته من متصل ومنقطع ومسلسل وعال ونازل وأنواع كل منها، ويبحث في أحوال المتن باعتبار طرقة من مشهور وعزيز وغريب، وباعتبار مراتبه من صحيح وحسن وضعيف ومحفوظ وشاذ ومعروف ومنكر ومتابع وشاهد، وباعتبار الاستدلال والعمل به من محكم ومعارض وناسخ ومنسوخ وراجع ومرجوح وما يتعلق بها، وباعتبار علله من معلق، ومرسل، ومعضل، ومنقطع، ومدلس، وموضوع، ومتروك، ومعلل، ومدرج ومقلوب، ومزيد ومضطرب، ومصحف، ومحرف، ومجهول، ومبهم، ومختلط، وعن صيغ الأداء من سماع، وتحديث، وإخبار وإنباء، وقراءة، ومناولة، ومشافهة ومكاتبه، وإجازة، وعنونة، وقول، ووصية، ووجادة، وعن أسماء الرواة وكناهم وألقابهم وأنسابهم من متفق، ومفترق، ومؤتلف، ومختلف، ومبهم، ومتشابه وغير ذلك، وعن طبقاتهم ومواليدهم ووفياتهم وبلدانهم وسيرهم وأحوالهم تعديلاً وجرحاً، ومراتب كل منهما، وآداب الشيخ والطالب، وسنن التحمل والأداء وصفة كتابة الحديث وسماعه وإسماعه، والرحلة فيه وسببه وتصنيفه وغير ذلك»^(١) من الفوائد العظيمة التي مقصودها

(١) «دليل أرباب الفلاح لتحقيق فن الاصطلاح» للناظم رَحِمَهُ اللهُ (ص ٩٨-٩٩).

معرفة المقبول من المردود والصحيح من السقيم وهي «كالدُّرِّ» حسناً وجمالاً «تنتظم» في عقد متكامل يعدُّ جزءاً من الدين.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٥٨- فَهِيَ الْمَحَجَّةُ فَاسْلُكْ غَيْرَ مُنْحَرِفٍ وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَاءُ فَاعْتَصِمِ

قوله: «فهي»؛ أي السُّنَّةُ، «المحجَّة» أي الطَّرِيقَةُ الواضحة البَيِّنَةُ المستقيمة، «فاسلك غير منحرف»؛ أي الزَّمْ صراطَ السُّنَّةِ المستقيم ولا تنحرف عنه ذات اليمين ولا ذات الشمال.

«وهي الحنيفية السمحاء»؛ كما جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الأديانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ﷻ؟ قال: «الحنيفية السمحة»^(١). الحنيفية؛ لأنَّ فيها الميل عن كلِّ ضلالٍ وباطلٍ، والسمحة؛ لأنَّ فيها اليسر والسَّهولة، وعدم العنت والتَّعسير والمشقَّة. وقوله: «فاعتصم»؛ أي اعتصم بالسُّنَّةِ والزَّمِها وتمسَّك بها وعصَّ عليها بناجديك.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٥٩- وَحَيٍّ مِنَ اللَّهِ كَالْقُرْآنِ شَاهِدُهُ فِي سُورَةِ النَّجْمِ فَاحْفَظْهُ وَلَا تَهِمِ

يقول: «وحَيٍّ من الله كالقرآن» أي السُّنَّةُ وحَيٌّ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مثل القرآن،

(١) رواه أحمد (١/ ٢٣٦)، وحسنه لغيره الألباني في «الأدب المفرد» برقم (٢٨٨).

مثل ما أن القرآن وحيٌّ من الله؛ فالسُّنَّة كذلك وحيٌّ من الله، ما الدَّلِيل؟ قال: «شَاهِدُهُ فِي سُورَةِ التَّجْمِ»؛ أي الشَّاهد والدَّلِيل على ذلك في سورة النَّجْم في أولها: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، وفي الحديث الصَّحيح عند أبي داود وأحمد والحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أكتب كلَّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ؛ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أكتب كلَّ شيء ورسولُ الله ﷺ بشرٌ يتكلَّم في الغضب والرِّضا؟! فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرتُ لرسول الله ﷺ فأولماً بإصبعه إلى فيه فقال: «اكتبْ؛ فوالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»^(١).

«فاحفظْه ولا تهم»؛ أي احفظ ذلك، وإيَّاكَ وأن تقع في الوهم والغلط.

□ قال النَّازِمُ رحمته الله:

١٦٠- خَيْرُ الْكَلَامِ وَمِنْ خَيْرِ الْأَنَامِ بَدَأَ مِنْ خَيْرِ قَلْبٍ بِهِ قَدْ فَاهَ خَيْرُ فَمٍ
قوله: «خَيْرُ الْكَلَامِ»؛ أي سُنَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهديه خير الكلام وأحسنه،
قال ﷺ: «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٢).
«وَمِنْ خَيْرِ الْأَنَامِ بَدَأَ»؛ أي جاء هذا الخير وظهر من خير الأنام مُحَمَّدٌ -
صلوات الله وسلامه عليه -.

«مِنْ خَيْرِ قَلْبٍ»؛ فقلبه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خير القلوب وأطيبها وأزكاها.
«بِهِ»؛ أي بهذا الخير «قَدْ فَاهَ خَيْرُ فَمٍ»؛ أي فمُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(١) رواه أبو داود برقم (٣٦٤٨)، وأحمد (١٦٢ / ٢)، والحاكم (١ / ١٨٧).

(٢) رواه النَّسَائِيُّ برقم (١٥٧٨)، وصحَّحه الألباني.

هذه أربعة وجوه في الخير جمعها في هذا البيت: خير كلامٍ مِنْ خير الأنام،
وخير قلب، وخير فم.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٦١- وَهِيَ الْبَيَانُ لِأَسْرَارِ الْكِتَابِ فِيْالْ- إِعْرَاضٍ عَنْ حُكْمِهَا كُنْ غَيْرَ مُتَّسِمٍ
أي: أَنَّ السُّنَّةَ شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُفَسِّرَةٌ لَهُ.

«فَبِالْإِعْرَاضِ عَنْ حُكْمِهَا كُنْ غَيْرَ مُتَّسِمٍ»؛ أي: كن غير متَّصِفٍ
بِالْإِعْرَاضِ عَنْ حُكْمِ السُّنَّةِ، بَلْ احْرِصْ عَلَى لَزُومِهَا وَالتَّمَسُّكِ بِهَا، وَاحْذَرْ
أَشَدَّ الْحَذَرِ أَنْ تَكُونَ مُتَّصِفًا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهَا.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٦٢- حَكِّمْ نَبِيَّكَ وَانْقَدْ وَارِضْ سُنَّتَهُ مَعَ الْيَقِينِ وَحَوْلَ الشَّكِّ لَا تَحُمِّ

قوله: «حَكِّمْ نَبِيَّكَ»؛ أي فيما تأتي وتذر ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيْ أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

«وانقَدْ»؛ من الانقياد، وهو الالتزام والتَّمَسُّكُ.

«وَارِضْ سُنَّتَهُ»؛ أي حلَّ قلبك بالرضا بسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، «مَعَ الْيَقِينِ»
دُونَ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾
[الحجرات: ١٥]؛ أي أَيْقَنُوا وَلَمْ يَشْكُوا، «وَحَوْلَ الشَّكِّ»؛ أي فيما جاء عنه، وفي
هديه، وفي سُنَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «لَا تَحُمِّ»؛ أي لَا تَقْرُبْ.

□ قال النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٦٣- وَاغْضُضْ عَلَيْهَا وَجَانِبَ كُلِّ مُحَدَّثَةٍ وَقُلْ لِيْذِيْ بِدْعَةٍ يَدْعُوكَ لَا نَعَمُ
قوله: «وَاغْضُضْ عَلَيْهَا»؛ أي على السُّنَّةِ بالنَّوَاجِذِ، «وَجَانِبَ كُلِّ مُحَدَّثَةٍ»
أي: ابتعد عن جميع البدع، كما في حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: وعظنا
رسولُ الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت
منها القلوب، فقال رجل: إنَّ هذه موعظة مودِّع؛ فماذا تعهد إلينا يا رسول
الله؟ قال: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ،
فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَ أَخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ
الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ
الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» رواه أبو داود، والترمذي،
وابن ماجه، وأحمد^(١).

«وَقُلْ لِيْذِيْ بِدْعَةٍ يَدْعُوكَ لَا نَعَمُ»؛ أي لا أقبل منك ولا أستمع إليك.

□ قال النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٦٤- فَمَا لِيْذِيْ رِيَّةٍ فِي نَفْسِهِ حَرَجٌ مِّمَّا قَضَى قُطُّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ قَسَمٍ
قوله: «فَمَا لِيْذِيْ رِيَّةٍ»؛ أي صاحب الشكِّ الَّذِي «فِي نَفْسِهِ حَرَجٌ»، وفي
صدره ارتياب «مِمَّا قَضَى» أي مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهديه القويم،

(١) رواه أبو داود برقم (٤٦٠٧)، والترمذي برقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه برقم (٤٢)،
وأحمد برقم (١٧١٨٢)، وصحَّحه الألباني في «السُّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» برقم (٩٣٧).

فمن كان بهذه الصِّفة فما له «في الإِيْمَانِ مِنْ قَسَمٍ»؛ أي من حظٍّ ولا نصيب،
والدَّلِيل قال:

١٦٥- (فَلَا وَرَبِّكَ) أَقْوَى زَاجِرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَالْمُلْحِدُ الزَّنْدِيقُ فِي صَمَمٍ

«فَلَا وَرَبِّكَ أَقْوَى زَاجِرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ»؛ أي: أَقْوَى زَاجِرًا عَنْ ذَلِكَ

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، «وَالْمُلْحِدُ

الزَّنْدِيقُ فِي صَمَمٍ»؛ أي ضَمَّتْ أذْناه عَنْ سَمَاعِ هَذَا الْحَقِّ الْمُبِينِ وَالنُّورِ الْعَظِيمِ.



فصل في الفرائض والآلة والتحذير من العلوم المبتدعة

لَمَّا أَنهى رَحِمَهُ اللهُ الوصية بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة نبيه ﷺ عقد هذا الفصل للحث على العناية بعلم الفرائض وعلوم الآلة، وللتحذير من العلوم المبتدعة التي من تعلّمها أفسدت عليه دنياه وأخراه.

وبدا - أوّلاً - بالحث على تعلّم علم الفرائض، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

١٦٦- وبالفرائض نصف العلم فاعن كما أوصى الإله وخير الرسل كلّهم

قوله: «وبالفرائض»؛ أي «علم الفرائض»، ويسمّى - أيضاً - «علم المواريث»، ويسمّى «علم التّركات»، وهو «علمٌ بأصول من فقهٍ وحساب تعرّف حقّ كلّ في التّركة»^(١)، وهو من علوم الفقه ولا يخلو من ذكره كتاب فقهيّ؛ لكن لأهمّيّته ومكانته العظيمة أفردّه عددٌ من أهل العلم بالتأليف.

وقوله: «نصف العلم»؛ مبنيٌّ على حديث يُروى في ذلك عن رسول الله ﷺ؛ لكنّه لا يصحّ، خرّجه ابن ماجه والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلِّمُواهَا؛ فَإِنَّهُ نِصْفُ

(١) «الدّر المختار» (٧ / ٣٤٩).

الْعِلْمُ، وَهُوَ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْزَعُ مِنْ أُمَّتِي»^(١).
 وقوله: «فَاعْنِ»؛ أي اجعل هذا العلم محلَّ عنايتك، وموضع اهتمامك.
 «كما أوصى الإله وخَيْرُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ»؛ أي كما أوصى الله ﷻ بهذا العلم،
 وأوصى به رسوله محمد ﷺ خير رسل الله أجمعين.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٦٧- مِنْ فَضْلِهَا أَنْ تَوَلَّى اللَّهُ قِسْمَتَهَا وَلَمْ يَكِلْهَا إِلَى غُرْبٍ وَلَا عَجَمٍ
 أي: مِنْ فَضْلِ الْفَرَائِضِ وَشَرَفِهَا وَمَكَانَتِهَا الْعَظِيمَةِ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ جَلَّ وَعَلَا
 تَوَلَّى بِنَفْسِهِ - سَبْحَانَهُ - قِسْمَتَهَا؛ فَأَنْزَلَ فِي ذَلِكَ آيَاتٍ تُتْلَى فِي كِتَابِهِ، تَأْتِي الْإِشَارَةُ
 إِلَيْهَا عِنْدَ النَّازِمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِي هَذَا الْبَيْتَ.
 وقوله: «لَمْ يَكِلْهَا إِلَى غُرْبٍ وَلَا عَجَمٍ»؛ أي لم يكل الله تعالى قسمة
 الفرائض إلى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، بَلْ تَوَلَّى ذَلِكَ جَلَّ وَعَلَا بِنَفْسِهِ.

(١) رواه ابن ماجه برقم (٢٧١٩)، والحاكم برقم (٧٩٤٨)، والذَّارِقُطْنِي (٦٧ / ٤).
 وفي سنده حفص بن عمر بن أبي العطف، قال البخاري في «الضُّعْفَاء» له (ص ٤٥):
 «منكر الحديث»، وقال الحافظ في «التَّلْخِيسِ الْحَبِيرِ» (٧٩ / ٣): «متروك».

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٦٨- (يُوصِيكُمُ اللهُ) آيٍ بَعْدَهَا^(١) اتَّصَلَتْ وفي الكَلَالَةِ أُخْرَى فَادْنُ وَاعْتَنِمِ

يشير رَحِمَهُ اللهُ إلى الآيات القرآنيّة التي ورد فيها قسمة الفرائض، وهي ثلاث آيات.

فقوله: «يُوصِيكُمُ اللهُ» يشير به إلى قول الله تعالى في سورة النساء:

﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «آيٍ بَعْدَهَا اتَّصَلَتْ»؛ أي: والآية التي تليها متصلة بها،

وهي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

(١) في نسخة: «من بعدها».

وقوله: «وفي الكَلَالَةِ أُخْرَى»؛ يشير به إلى ما جاء في آخر آية من النساء، وهي قول الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضْلُوا وَاللَّهُ يُكَلِّمُ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

فهذه ثلاث آيات كريمات وردت في سورة النساء: آيتان متصلتان، وآية منفصلة عنها جاءت في آخر السورة.

وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث على أحكام المواريث:
 الآية الأولى: في ميراث عمودي النسب: أصول الميِّت وفروعه.
 والآية الثانية: في ميراث الزوجين والإخوة لأم.
 والآية الثالثة: في ميراث الإخوة الأشقاء والإخوة لأب.

وقوله ﷻ: «وفي الكَلَالَةِ»؛ المراد بـ«الكَلَالَةِ»: الميِّت يموت وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، فمن كان من الأموات كذلك يُقال له: «الكَلَالَةُ».

وقوله: «فَادُّنْ وَاعْتَمِنْ»؛ أي اقترب من هذه الآيات وتدبَّر في المعاني والمضامين وتفقه؛ تفز بأعظم غنيمة.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ :

١٦٩- وَخُذْ إِذَا شِئْتَ مَا قَدْ تَسْتَعِينُ بِهِ مِنْ آلَةٍ تُلْفِيهَا حَلًّا لِمُنْبِهِمْ
١٧٠- كَالْتَّحُوِ وَالصَّرْفِ وَالتَّجْوِيدِ مَعَ لُغَةٍ يُدْرَى بِهَا حَلُّ مَا يُخْفَى مِنَ الْكَلِمِ

هذان البيتان فيهما الحثُّ على علوم الآلة.

والعلوم تنقسم إلى قسمين:

- علوم آلة: وهي العلوم التي لا تُقصد لذاتها، وإنما هي علمٌ خادمٌ لغيره.

- وعلوم ليست علوم آلة: وهي العلوم المقصودة لذاتها.

وأشار في البيت الأوَّل إلى علم الآلة، وعَرَّف به وذكر فائدته.

فتعريفه لعلم الآلة في قوله: «تَسْتَعِينُ بِهِ»؛ بيَّن أنَّه علمٌ خادم، يعين على فهم الكتاب والسُّنة، ليس مقصودًا لذاته.

وقوله: «تُلْفِيهَا»؛ أي تجدها، وأصلها: «تُلْفِيهَا»؛ لكن حُذفت الياء؛ لأنَّه جواب الأمر، وهو «خُذْ».

وقوله: «حَلًّا لِمُنْبِهِمْ»؛ أي تجدها حلًّا لما أَشْكَل أو أُغْلِقَ عليك فهمه أو لم تتبيَّن المراد به، يقال: «أبهم الأمر»؛ أي اشتبه فلم يُدَرَّ كيف يُؤْتى له.

وقوله: «كَالْتَّحُوِ وَالصَّرْفِ وَالتَّجْوِيدِ»؛ هذه بعض علوم الآلة التي ينبغي على طالب العلم أن يُعنى بها؛ لأنَّ فيها حلًّا لما استبهم عليه، ولما أُغْلِقَ عليه فهمه، وهذه ذكرها على سبيل المثال لا الحصر.

و«التَّحُو» هو: العلم بالقواعد التي يُعرف بها أحكام أواخر الكلمات

العربية في تراكيبها من الإعراب والبناء وما يتبع ذلك.
و«الصِّرف»: هو العلم بالقواعد التي تُعرف بها كيفية صياغة الأبنية العربية، وأحوال هذه الأبنية التي ليست إعراباً ولا بناءً.
و«التَّجويد»: هو العلم الذي يُعرف به إخراج كلِّ حرف من مخرجه، وإعطائه حقه ومستحقه من الصفات.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٧١- واحذَرِ قَوَانِينَ أَرْبَابِ الْكَلَامِ فَمَا بِهَا مِنَ الْعِلْمِ غَيْرُ الشَّكِّ وَالتُّهْمِ
هذا البيت والأبيات التي بعده في التحذير من علم الكلام الباطل،
وقوانين المتكلمين الفاسدة.

قوله: «فاحذَرِ قَوَانِينَ أَرْبَابِ الْكَلَامِ»؛ أي كُنْ على حَذَرٍ - يا طالبَ العلم -
من قوانين علماء الكلام الباطل، وهي القواعد التي وضعوها لتحريف كلام
الله وكلام رسوله ﷺ، وردَّ ما يخالف أهواءهم ممَّا جاء في كتاب الله وسنَّة نبيِّه
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وسيأتي بيان المراد بعلم الكلام الباطل الذي ذمَّه السَّلف
وحذَّروا منه أشدَّ التحذير، وسيأتي - أيضاً - ذكر بعض النُّقول عنهم في ذلك.

قوله: «فَمَا بِهَا مِنَ الْعِلْمِ غَيْرُ الشَّكِّ وَالتُّهْمِ»؛ أي أَنَّ هذا العلم ليس فيه
إِلَّا الشَّكُّ، ولا يجني مَنْ حَصَّلَهُ مِنْ ورائه إِلَّا الشُّكُوكُ وَالتُّهْمُ وَالظُّنُونُ
الفاسدة، والأوهام الكاسدة، لا يجني مَنْ ورائه عِلْماً ولا تحقيقاً، وستأتي شهادة
المشتغلين بهذا العلم بأنفسهم على هذا.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٢- قاموسُ فلسفةٍ مفتاحُ زندقَةٍ كَم من مُلِمٍّ بهِ قد بَاءَ بالتَّدَم

قوله: «قاموسُ فلسفةٍ مفتاحُ زندقَةٍ»؛ أي أن علم الكلام هو في حقيقته وواقع أمره؛ قاموس فلسفةٍ ومفتاحُ زندقَةٍ، وهذه إشارةٌ إلى فساد هذا العلم في مقدّماته ونتائجِه؛ أمّا مقدّماته: فهو - كما أشار الشيخ - قاموس فلسفة: صفٌ كلامٍ، وجمعُ جُمَلٍ، وترتيبُ ألفاظٍ وحروفٍ على غير هدى.

وأما نتائجُه: فهو مفتاحُ زندقَةٍ، يفتح على المشتغلِ بهِ بابَ زندقةٍ وضلالٍ، وسيأتي من كلام السلف ما يعضد ذلك ويشهد له.

قوله: «كَم من مُلِمٍّ بهِ قد بَاءَ بالتَّدَم»؛ أي كثير من الملمين بهذا العلم الذين توسّعوا فيه، وتضلّعوا منه باءوا بالنَّدَم، وكانت نتيجتهم الأسف على أوقاتٍ ضاعت وأزمنةٍ مضت عليهم في الاشتغال بهذا العلم الباطل، وسيأتي ذكر بعض النُّقول عن هؤلاء الذين باءوا بالنَّدَم إثر اشتغالهم بهِ.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٣- راموا بها عزَلَ حُكْمِ اللهِ واقترَحُوا لِلْحَقِّ رَدًّا وإنفاذاً لِحُكْمِهِم

قوله: «راموا بها»؛ أي قصدوا بالقوانين والكلّيات التي وضعوها «عزَلَ حُكْمِ اللهِ»؛ أي تعطيل أحكام الله ﷻ، «واقترَحُوا لِلْحَقِّ رَدًّا»؛ أي أرادوا - أيضًا - بها ردَّ الحقِّ الثَّابت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فهي علوم تؤدّي إلى تعطيل الأحكام الشرعيّة، وجحدِ الحقائق الثَّابتة في الكتاب والسُّنة، «وإنفاذاً

لحكيمهم»؛ أي ومما قصدوه بهذا العلم إنفاذ ما توصّلوا إليه بالآراء الفاسدة والأوهام الباطلة.

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٤- يُرْوَكُ^(١) أَنْ تَزِنَ الْوَحِيَيْنَ مُجْتَرِئًا عَلَيْهِمَا بِعُقُولِ الْمُغْفِلِ الْعَجِمِ

قوله: «يُرْوَكُ أَنْ تَزِنَ الْوَحِيَيْنَ مُجْتَرِئًا عَلَيْهِمَا»؛ أي يريد منك أربابُ الكلام بحثهم وترغيبهم في هذا العلم؛ ليكون لك شأن أن تجترأ وتقيس نصوص الكتاب والسنة بالعقل وتحتكم إلى تلك القوانين التي وضعوها، وأن تجعل العقل ميزان الوحيين وتحاكمهما إليه، فما قبله العقل يقبل وما لم يقبله يردُّ، وهذا ما يُعرف بقانون التّأويل، وهو قانون كلّ عند أرباب الكلام الباطل. وقوله: «بِعُقُولِ الْمُغْفِلِ»؛ أي بالعقول المليئة بالغفلة والجهل والضلال، «الْعَجِمِ»؛ أي أنّ أكثر هؤلاء من الأعاجم، وفي مقدّماتهم الجهم بن صفوان ومن كانوا على شاكلته.

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٥- وَأَنْ تُحَكِّمَهَا فِي كُلِّ مُشْتَجَرٍ إِذْ لَيْسَ فِي الْوَحْيِ مِنْ حُكْمٍ لِمُحْتَكِمٍ

قوله: «وَأَنْ تُحَكِّمَهَا فِي كُلِّ مُشْتَجَرٍ»؛ أي: ويريد منك أهل الكلام أن

(١) مضارع أَرَوَكَ أي يجعلونك ترى ذلك، وأصلها يُرَوْنَكَ وحذفت النون من غير ناصب ولا جازم لضرورة الشعر.

تحكّم تلك القوانين في كلّ نزاع وخلاف وخصومة.
 قال ابن منظور: «واشتَجَرَ القوم وتَشَاَجَرُوا: أي تنازعوا، والمُشَاَجِرَةُ المنازعة، وفي التَّنْزِيل العزيز: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، قال الزّجاج: أي فيما وقع من الاختلاف في الخصومات»^(١).
 وقوله: «إِذْ لَيْسَ فِي الْوَحْيِ مِنْ حُكْمٍ لِمَحْتَكِمٍ»؛ هذا كلام هؤلاء يريدون منك أن تحتكم إلى قوانينهم؛ لأنّه ليس في الوحي - بزعمهم - من حكم لمحتكم، وإنّما الحكم على فهم هؤلاء في علم الكلام الباطل، وهذا يبيّن حال هؤلاء الشّنيعة، وتقريراتهم الباطلة الفاسدة.

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٦- أَمَّا الْكِتَابُ فَحَرِّفْ عَنْ مَوَاضِعِهِ إِذْ لَيْسَ يُعْجِزُكَ التَّحْرِيفُ لِلْكَلِمِ

هذه وصيّة هؤلاء في القرآن الكريم: تحريف له، وصرف له عن دلالته، وكلُّ آية تخالف عقول هؤلاء يزعمون أنّ ظاهرها غير مراد، وإنّما المراد كذا وكذا؛ ممّا يتوصّل إليه هؤلاء بالأهواء الباطلة.

وقوله: «إِذْ لَيْسَ يُعْجِزُكَ التَّحْرِيفُ لِلْكَلِمِ»؛ يعني ليس أمراً معضلاً، ولا صعباً؛ فهذه وصيّتهم بالقرآن الكريم تلقّي آياته بالتّحريف.

(١) «لسان العرب» (٦/ ٦٣).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٧- كذا الأحاديثُ آحادٌ وليسَ بها بُرْهانٌ حقٌّ ولا فضلٌ لمُختَصِمٍ
وهذه وصيَّتْهم بالسُّنَّة، وهي القول بأنَّها أخبار آحاد، وأخبار الآحاد
لا تقبل في الاعتقاد، هذه المقالة لم تُعرف إلَّا عن المعتزلة، وأيُّ كتاب وجدت
فيه هذه المقالة فهو متأثرٌ بمقالة المعتزلة.

قال أبو المظفر السَّمْعاني: «وإنَّما هذا القول الَّذي يذكر أنَّ خبر الواحد
لا يفيد العلم بحال، ولا بدَّ من نقله بطريق التَّواتر لوقوع العلم به؛ شيءٌ
اخترعته القدرية والمعتزلة، وكان قصدُهم منه ردُّ الأخبار»^(١).

فاشتمل البتان على وصيَّتَيْن لأرباب الكلام فيما يتعلَّق بالكتاب والسُّنَّة،
وقد جمع بين هاتين الوصيَّتَيْن أحد رؤوس الجهميَّة، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة
رَحِمَهُ اللهُ: «وقيل عن بعض رؤوس الجهميَّة - إمَّا بشر المريسي أو غيره -: أنَّه قال:
ليس شيءٌ أنقضَ لقولنا من القرآن، فأقرُّوا به في الظَّاهر، ثمَّ صرَّفوه بالتَّأويل،
ويقال إنَّه قال: إذا احتجُّوا عليكم بالحديث فغالطوهم بالتَّكذيب، وإذا
احتجُّوا بالآيات فغالطوهم بالتَّأويل»^(٢).

(١) انظر: «الحجَّة في بيان المحجَّة» لقوام السُّنَّة (٢/ ٢١٥).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٢١٧ - ٢١٨)، وانظر: «الصَّواعق المرسلة» لابن

القيِّم (٣/ ١٠٣٨).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٨- وَقَدْ أَبَى اللهُ إِلَّا نَصَرَ مَا خَذَلُوا وَكَسَرَ مَا نَصَرُوا مِنْهُمْ عَلَى رَغَمٍ

قوله: «وَقَدْ أَبَى اللهُ إِلَّا نَصَرَ مَا خَذَلُوا»؛ أي هؤلاء خذلوا الكتاب والسُّنة، فأبى الله عَزَّوَجَلَّ إِلَّا النَّصْرَ لكتابهِ وسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: «وَكَسَرَ مَا نَصَرُوا مِنْهُمْ عَلَى رَغَمٍ»؛ أي أبى الله عَزَّوَجَلَّ إِلَّا إِبْطَالَ وإِزْهَاقَ ما نصره من الآراء الفاسدة، والأوهام الكاسدة، والظنون الباطلة، والعقائد المنحرفة على الرغم منهم.

وهذه الأبيات - كما عرفنا - جاءت في سياق ذمِّ علم الكلام والتحذير منه، وإبطال ما عليه المتكلمون، وبيان مقاصدهم بهذا العلم الفاسد الباطل. وعلم الكلام الذي حذر منه السلف وذمُّوه وبيَّنوا خطورته وفساد نتائجه هو: الخوض في العقيدة أو في الدين عموماً بالرأي المجرد والعقل المحض، أمَّا كلام الإنسان بالخير والفائدة في حدود الكتاب والسُّنة؛ فهذا لا يُذَمُّ.

والعقل له حدودٌ معيَّنة ونطاقٌ محدَّد لا يمكنه تجاوزه، وإذا جاوزه وقع في الضَّلال، ولهذا إذا حاول المرء إدراك حدود ما وراء عقله؛ فإنَّه يخطئ ويتكلَّف ما ليس له، والله - سبحانه - لم يُؤْتِ الإنسان من العلم إلا قليلاً، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال ابن حمدان في كتابه «المفتي والمستفتي»^(١): «وعلم الكلام المذموم: هو أصول الدين؛ إذا تكلم فيها بالمعقول المحض أو المخالف للمنقول الصريح الصحيح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والسلف إذا ذموا أهل الكلام، وقالوا: علماء الكلام زنادقة، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح، فلم يريدوا به مطلق الكلام، وإنما هو حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين»^(٢). فمراد السلف بـ«الكلام المذموم»: «هو كلام الجهمية الذين نفوا به الصفات وزعموا أنهم يثبتون به حدوث العالم وهي طريقة الأعراس»^(٣). وَذَكَرُ شيخ الإسلام ابن تيمية هنا للجهمية ليس لكون هذا الأمر مختصاً بهم، وإنما لكون هؤلاء أبرز من اشتهر بهذا العلم الباطل.

♦ ومن الوجوه التي يُعلم بها فساد علم الكلام وبطلانه: **أولاً:** أنه قولٌ على الله بغير علم، ومن أعظم المحرمات: القول على الله بلا علم.

الثاني: أن فيه تحريفاً لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وتكذيباً لهما. **الثالث:** أنه ليس من الدين، ولو كان من الدين لبيّنه الرسول الكريم ﷺ. **الرابع:** اشتماله على الباطل في مقدماته ونتائجه.

(١) (ص ٥٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢ / ٤٦٠-٤٦١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٤٧٣).

الخامس: اشتغاله على العقائد الباطلة، والآراء المنحرفة، والشُّكوك والظُّنون.

♦ وفيما يلي سياق بعض النُّقول عن علماء السُّلف في ذمِّ علم الكلام:
سُئل الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: عَمَّا أحدث النَّاس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: «مقالات الفلاسفة».

وقال: «عليك بالأثر وطريقة السُّلف، وإيَّاك وكلَّ محدثة؛ فإنَّها بدعة!»^(١).
وقال أيضًا: «أتانا من خراسان ضيفان كلاهما ضالَّان: الجهميَّة والمشبَّهة»^(٢).
وقال أبو يوسف رَحِمَهُ اللهُ: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم»^(٣).

وقال - أيضًا - رَحِمَهُ اللهُ: «من طلب الدِّين بالكلام تَزَنَّدَقَ»^(٤).
وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «الكلام في الدِّين كلُّه أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه»^(٥).

وقال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ: «حُكْمِي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنُّعال، ويُطاف بهم في الأسواق، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنة،

(١) «ذمُّ الكلام وأهله» (٥ / ٢٠٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٤٧٣).

(٣) «تاريخ بغداد» (٧ / ٦١).

(٤) «الحجَّة في بيان المحجَّة» (١ / ١١٧).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة» (١ / ١٦٨).

وأقبل على الكلام»^(١)، وقال أيضًا: «ما جهل النَّاسُ، ولا اختلفوا إلَّا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطو طاليس»^(٢).

وقال أيضًا: «لأنَّ يَتِيَّ اللهُ المرأَ بكلِّ ذنبٍ نهى الله عنه ماعدا الشُّركَ خير له من الكلام»^(٣).

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «علماء الكلام زنادقة، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح»^(٤).

وقال الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع أهل الأمصار؛ أنَّ أهل الكلام أهلُ بدعٍ وزَيغٍ، لا يعدُّون عند الجميع في طبقات العلماء، وإنَّما العلماء أهل الأثر والمتفكِّهة فيه»^(٥).

ولقد شهد أئمة الكلام المذموم على أنفسهم بالخير والشك، ومن ذلك قول الرَّازي:

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ	وغايةُ سعيِ العالمينِ ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصلُ دُنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طولَ عُمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيلَ وقالوا

(١) «الانتصار في الردِّ على المعتزلة القدرية الأشرار» (١ / ١٣٠).

(٢) «صون المنطق» (ص ١٥).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١ / ١٤٦)، و«الحجة في بيان المحجة» (١ / ١٠٤).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٦ / ٢٤٣).

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (٢ / ١٩٤).

وقال: «لقد تأملت الطُّرُق الكلاميّة، والمناهج الفلسفيّة، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطُّرُق طريقة القرآن...، ثمّ قال: ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»^(١).

وقال الشَّهرستاني مبيناً أنّه لم يجد في الفلسفة وعلم الكلام إلّا الحيرة والشكّ:

لعمري لقد طُفْتُ المعاهد كلّها وسيّرتُ طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلّا واضعاً كفّ حائرٍ على ذِقْنٍ أو قارعاً سنّ نادم^(٢)

ومقصوده بـ«المعاهد»: دور المتكلِّمين التي أُسِّست لنشر علم الكلام وبثّه، فهو يخبر أنّه لم يجد في كلّ هذه المعاهد التي مرّ عليها وطاف بها إلّا أحد شخصين: إمّا شخص جالس حائر لم يصل من خلال هذا العلم إلى يقين، أو شخص نادم أنّه دخل في هذا العلم.

قال الصَّنْعاني رَحِمَهُ اللهُ معارضاً هذين البيتين:

لعلّك أهملتَ الطَّواف بمعهد الرّسول ومن لاقاه من كلّ عالم
فما حارَ من يهدى بهدي محمّد ولستَ تراه قارعاً سنّ نادم

(١) انظر: «بيان تلبيس الجهميّة» (٢ / ١٣٥)، و«درء التّعارض» (١ / ١٦٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤ / ٧٣)، و«درء التّعارض» (١ / ١٥٩).

□ قال النّازم رحمه الله:

١٧٩- كَذَا الْكَهَانَةُ وَالتَّنْجِيمُ إِنَّهُمَا كُفْرَانٍ قَدْ عَبَثَا بِالنَّاسِ مِنْ قَدَمٍ

هذا البيت والأبيات التي بعده يحذّر فيها رحمه الله - أيضًا - من علوم باطلة أخرى، تفسد على الناس عقائدهم وأديانهم.

قوله: «كَذَا الْكَهَانَةُ وَالتَّنْجِيمُ»؛ أي: احذّر كذلك الكهانة والتنجيم، «الْكَهَانَةُ» المراد بها: ادّعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض، والأصل فيها: استراق الجنّ السَّمْعَ من كلام الملائكة؛ فتلقيه في أذن الكاهن.

و«الكاهن»: لفظ يُطلق على العرّاف، والذي يضرب بالحصي والمنجم^(١).

وقال البغوي: «الكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: الذي يُخبر عما في الضمير»^(٢).

وقد جاء في السُّنَّة أحاديث في التحذير من الكهانة، منها ما رواه البزار^(٣) عن عمران بن حصين رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ نَطِيرَ أَوْ تُطِيرَ لَهُ أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تُكْهَنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»، قال المنذري: «رواه البزار بإسناد جيّد»^(٤).

وعن أبي هريرة والحسن عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ

(١) انظر «فتح الباري» (١٠ / ٢٦٧).

(٢) «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» (٣١٦).

(٣) «مسند البزار» برقم (٣٥٧٨).

(٤) «الترغيب والترهيب» (١٧ / ٤).

بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رواه الإمام أحمد^(١) بإسناد حسن.

وَأَمَّا «التَّنجيم»: فالمراد به - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ -:
«الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية»^(٢).

وَمَا وَرَدَ فِي ذِمَّةِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ
زَادَ مَا زَادَ»^(٣)، وإسناده صحيح.

ومعنى قوله: «زَادَ مَا زَادَ»؛ أي كلما زاد في علم التنجيم؛ زاد وقوعاً في
السحر والباطل.

وقوله: «إِنَّهُمَا كُفْرَانٍ قَدْ عَبَثَا فِي النَّاسِ مِنْ قِدَمٍ»؛ أي أَنَّ الكهانة كُفْرٌ
والتنجيم كُفْرٌ، وليس هو علماً جديداً، وإنما هو من قديم يعبثُ بالنَّاسِ، ويفسد
عليهم عقائدهم وأديانهم.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «واعلم أَنَّ التَّنجيمَ على ثلاثة أقسام:
أحدها: ما هو كفرٌ بإجماع المسلمين، وهو القول بأنَّ الموجودات السُّفَلِيَّةَ
مرَكَّبَةٌ على تأثير الكواكب والرُّوحانيات، وأنَّ الكواكب فاعلة مختارة، وهذا
كفر بإجماع المسلمين.

(١) «المسند» (٢/ ٤٢٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٥ / ١٩٢).

(٣) رواه أحمد برقم (٢٠٠٠)، وأبو داود برقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه برقم (٣٧٢٦).

الثاني: الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك، ويقول: إنَّ ذلك بتقدير الله ومشيتِهِ، فلا ريب في تحريم ذلك، واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك.

الثالث: تعلُّم المنازل - منازل الشمس والقمر -؛ للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصَّلوات والفصول، وهذا اختلف فيه السلف؛ فكرهه قتادة وسفيان بن عيينة، وأجازه أحمد وإسحاق وغيرهما^(١).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٠- إسنادهَا حِزْبُ إبْلِيسَ اللَّعِينِ كَمَا مُتُونُهَا أَكْذَبُ الْمَنْقُولِ مِنْ كَلِمِ
قوله: «إسنادهَا حِزْبُ إبْلِيسَ اللَّعِينِ»؛ أي أنَّ مصدرَ ومنبَع هذه العلوم و مرجعها الأخذ عن إبليس اللعين وجنوده، «كَمَا مُتُونُهَا أَكْذَبُ الْمَنْقُولِ مِنْ كَلِمِ» أي وأيضا محتواها ومضمونها أكذب المنقول من كَلِم، فما يقوله الكهان سنده الشياطين، ومتنه الكذب والباطل.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٨١- مَا لِلتُّرَابِ وَمَا لِلْغَيْبِ يُدْرِكُهُ مَا لِلتَّصَرُّفِ وَالْمَخْلُوقِ مِنْ عَدَمِ
يشير هنا رَحِمَهُ اللهُ إلى وهاء ما عليه هؤلاء الكهنة والمنجمين ومن تأثر بهم.
فقوله: «مَا لِلتُّرَابِ وَمَا لِلْغَيْبِ»؛ يعني أيَّ صلةٍ وارتباطٍ بين التُّراب وبين

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٤١ - ٤٤٨) باختصار.

معرفة المغيَّبات؟!

ومن أفعال الكهنة: الخطُّ في الأرض، يخطُّون خطوطاً في التُّراب، ثمَّ من خلال هذه الخطوط يقولون: يحصل كذا، ولا يحصل كذا، أو يموت فلان.. إلى آخره.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٢- لَوْ كَانَتِ الْجِنُّ تَدْرِي الْغَيْبَ مَا لَبِثْتُ دَهْرًا تُعَالِجُ أَصْنَافًا مِّنَ الْأَلَمِ

يشير رَحِمَهُ اللهُ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤]؛ لَأَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُبِضَ وَمَاتَ وَهُوَ مَتَكِّئٌ عَلَى عَصَاهُ، وَكَانَتِ الْجِنُّ تَعْمَلُ بِجَدِّ وَنَشَاطٍ يَظُنُّونَهُ حَيًّا، وَلَمَّا جَاءَتِ دَابَّةُ الْأَرْضِ وَأَكَلَتِ الْمُنْسَاءُ الَّتِي هُوَ مَتَكِّئٌ عَلَيْهَا؛ سَقَطَ فَأَدْرَكَتِ الْجِنُّ حِينَئِذٍ أَنَّهُ كَانَ مَيِّتًا مِنْذُ وَقْتٍ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ.

فلو كانت الجنُّ تدري الغيب ما لبثت هذا الدهر تتعب وتنصب، كما أخبر الله - سبحانه - عنهم في قوله: ﴿ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦ / ٥٠٢).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٣- أَمَّا النُّجُومُ فَزَيْنٌ لِلْسَّمَاءِ (رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) طَرْدًا لِاسْتِمَاعِهِمْ
١٨٤- كَمَا بِهَا يَهْتَدِي السَّارِي لِوَجْهِتِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَيْثُ السَّيْرُ فِي الظُّلَمِ

يشير رَحِمَهُ اللهُ هنا إلى فوائد النجوم، وأنها خلقت لثلاث:

الأولى: زينٌ للسماء.

والثانية: رجومًا للشياطين.

والثالثة: يهتدى بها في السير في البرِّ والبحر.

وقوله «رجومًا»؛ الأصل أن يكون مرفوعًا؛ لأنَّه معطوف على «زين»،
لكن لعلَّ الناظم ذكره على سبيل الحكاية والاقتراس من القرآن، كما في قوله
تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وهذه
الآية الكريمة من أدلة البيت الأول، ومن الأدلة عليه - أيضًا - قوله تعالى:
﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ⑥ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ⑦ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى
أَمَلٍ أَلَّا يَأْتُوا بِالْحَافِظَةِ ⑧ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ
فَاتَّبَعَهُ، شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿ [الصافات: ٦ - ١٠].

والبيت الآخر دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا
فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَتِ الْبَرْقَ وَالنَّجْمَ
هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ»^(١): وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]: «خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثَ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يَهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ».

رواه البخاري معلقًا، ووصله ابن جرير الطَّبْرِي^(٢) وابن أبي حاتم^(٣) فِي «تَفْسِيرِيهِمَا»، وَزَادَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي آخِرِهِ: «وَإِنَّ نَاسًا جَهْلَةً بِأَمْرِ اللَّهِ قَدْ أَحْدَثُوا فِي هَذِهِ النُّجُومِ كِهَانَةً، مِنْ أَعْرَسَ بِنَجْمٍ كَذَا وَكَذَا، وَمِنْ سَافَرَ بِنَجْمٍ كَذَا وَكَذَا؛ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلِعُمْرِي مَا مِنْ نَجْمٍ إِلَّا يُولَدُ بِهِ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ، وَالطَّوِيلُ وَالْقَصِيرُ، وَالْحَسَنُ وَالذَّمِيمُ، وَمَا عِلْمُ هَذَا النَّجْمِ وَهَذِهِ الدَّابَّةِ وَهَذَا الطَّائِرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ، وَقَضَى اللَّهُ أَنَّهُ: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ولعمري لو أَنَّ أَحَدًا عِلْمَ الْغَيْبِ؛ لَعِلِمَهُ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ يَأْكُلُ فِيهَا رَغَدًا حَيْثُ شَاءَ، وَنُهِىَ عَنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ الْبَلَاءُ حَتَّى وَقَعَ بِمَا نُهِىَ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ يُعْلَمُ الْغَيْبُ لَعِلِمَتُهُ الْجَنُّ حِينَ مَاتَ نَبِيُّ اللَّهِ سَلِيمَانُ ﷺ، فَلَبِثْتَ تَعْمَلُ لَهُ حَوْلًا فِي أَشَدِّ الْهَوَانِ - لَا يَشْعُرُونَ بِمَوْتِهِ - مَا دَلَّهِمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ «انْتَهَى».

(١) (٣ / ١١٦٨).

(٢) «تفسير الطَّبْرِي» (١٧ / ١٨٥).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩ / ٢٩١٣ - ٢٩١٤).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٥- وَالنَّيِّرَانِ بِحُسْبَانٍ وَذَلِكَ تَقْ - سِدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الْمُسْبِغِ النَّعَمِ

قوله: «وَالنَّيِّرَانِ» معطوف على النُّجُوم، والمراد بهما الشَّمْس والقمر وهو من باب التَّغْلِيْب؛ لَأَنَّ الَّذِي يوصف بالنُّور هو القمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، ﴿نُبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، ويقال لهما - أيضًا -: الْقَمَرَانِ.

والناظم رَحِمَهُ اللهُ يشير في هذا البيت إلى قول الله سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٦- فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَاكَ قَفَا مَا لَيْسَ يَعْلَمُهُ فَهُوَ الْكَذُوبُ سِمِ

أي من تأوَّل في النُّجُوم غير ما خُلِقَتْ له، وقد تقدَّم بيان أنَّها خُلِقَتْ لثلاثة أمور: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهْتَدَى بها، ولم يذكر جَلَّ وَعَلَا أَنَّ لها تصرفًا في ملكوت السموات والأرض أو صلة بسعادة البشر وشقائهم، فَمَنْ عَدَلَ عَمَّا ذكر الله من فوائدها إلى الاستدلال بها على الغيب فقد قفا ما ليس له به علم، وقد تقدَّم قول قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بغير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به».

قال الشيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد»^(١): «أخطأ؛ أي حيث تكلم رجماً بالغيب، «وأضاع نصيبه»؛ أي حظه من عمره؛ لأنه اشتغل بما لا فائدة فيه، بل هو مضرّة محضة، «وتكلف ما علم له به»؛ أي تعاطى شيئاً لا يتصور علمه؛ لأن أخبار السماء، والأمور المغيبيّة لا تُعلم إلّا من طريق الكتاب والسنة، وليس فيها أزيد ممّا تقدّم» انتهى.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «فَهُوَ الْكَذُوبُ سِمٌ»؛ أي سَمُهُ بالكذب، من وَسَمَ وَسْماً وِسْمَةً أي اجعل الكذب علامة لهؤلاء وصفة يُعرفون بها؛ و«الكذب» على وزن فعول، وهو من صيغ المبالغة.

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٧- كَالْمُقْتَفِينَ لِعِبَادِ الْهِيَائِلِ فِي عَزْوِ التَّصَرُّفِ وَالتَّأْثِيرِ لِلنُّجُمِ

قوله: «كَالْمُقْتَفِينَ لِعِبَادِ الْهِيَائِلِ»؛ أي أَنَّ المشتغلين بالتنجيم شأنهم كشأن عبّاد الهياكل الذين بُعث فيهم إبراهيم عليه السلام وكانوا يعبدون النجوم والكواكب، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٨].

(١) (ص ٤٤٣ - ٤٤٤).

وإبراهيم عليه السلام كان في هذا مناظرًا لقومه قاصدًا بذلك بيان فساد عقائدهم وتعلّقهم بالكواكب والنجوم والشمس والقمر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في «بيان تلبيس الجهمية»^(١): «كانوا يتخذون الكواكب والشمس والقمر أربابًا يدعونها من دون الله، ويبنون لها الهياكل، وقد صنّفت في مثل مذهبهم كتبٌ مثل كتاب: «السّرّ المكتوم في السّحر ومخاطبة النّجوم»، وغيره من الكتب». وهذا فيه التأكيد لما قرّره الناظم؛ لأنّ هؤلاء وأولئك يشتركون في التعلّق بالنّجوم واعتقاد التأثير فيها.

□ قال الناظم رحمته الله:

١٨٨- والكاتبين نظامًا في عبادتها عَقْدًا وَكَيْفًا وَتَوْقِيًا لِنُسُكِهِم

قوله: «والكاتبين نظامًا في عبادتها»؛ معطوف على قوله: «كالمقتفين لعباد الهياكل».

وقوله: «عَقْدًا»؛ العقد أي: العهد والبيعة المعقودة، والمعنى: أنّ هؤلاء المنجّمين وضعوا كتبًا قرّروا فيها نظمًا وقواعد تعاقدوا عليها في طريقة عبادتهم لهذه النّجوم من حيث الكيف والتّوقيت، ويسمّونها علومًا ومعارف، وهي من أبطل الباطل.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: «إنّ قومًا يحسبون أبا جاد، وينظرون في النّجوم، ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاق»، رواه عبد الرزّاق

(١) (١/ ٥٣٠).

في «مصنّفه»^(١) بإسناد صحيح.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٩- فَذَا سُعُودٌ وَذَا نَحْسٌ وَطَلَّسُمُهُ كَذَا وَنَاسَبُهُ ذَا كَمْ بِخَرْصِهِمْ

يعني أَنَّ هؤلاء يزعمون أَنَّهُم بنظرهم في النُّجوم والتَّعلُّق بها؛ يصلون لمعرفة السُّعود والنُّحوس ونحو ذلك.

وقوله: «فذا سُعود»؛ من سَعَدَ سَعْدًا وَسُعودًا، والسَّعادة خلاف الشَّقاوة.

وقوله: «وذا نَحْسٌ»؛ «النَّحْس»: الأمر المَظْلَم، وقد نحس، كَفَرَحَ وَكَرُمَ، فهو نَحِسٌ، وهو ضدُّ السَّعد.

«وطلَّسُمُهُ»؛ واحد طَلَّسِمٍ، وهو «اسم للسِّرِّ المكتوم، وقد كثر استعمال الصُّوفيَّة في كلامهم فيقولون: سرٌّ مُطَّلَسَم، وحجابٌ مُطَّلَسَم، وذات مطَّلَسَم، والجمع: طَلَّاسِم»^(٢).

فالمراد بـ«الطَّلَّسِم»: الأمور غير الواضحة الخفيَّة، فالكلام الَّذي يسمعه الإنسان ولا يفهم منه شيئًا ولا يستبين منه معنى؛ يسمَّى «طَلَّاسِم».

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «وطلَّسَمه كذا ونَاسَبه ذا»؛ أي أَنَّ هذا الأمر يناسب هذا الطَّلَّسِم ويتوافق معه ويتواءم.

وقوله: «كَمْ بِخَرْصِهِمْ»؛ «كَمْ» للتَّكثير، و«الخرص» يأتي بمعنى الكذب،

(١) برقم (١٩٨٠٥).

(٢) «تاج العروس» (٣٣ / ٢٤ - ٢٥).

أي كُـلُّ ذلك يقولونه كذبًا ودجلًا، ويأتي - أيضًا - بمعنى الظنِّ، أي يقولونه بالظنون والأوهام.

ولمَّا أُنْهِى رَحِمَهُ اللهُ الكَلامَ في ذمِّ الكهانة والتنجيم وما يتعلَّقُ بهما شرع في التحذير من المجالات الباطلة والهابطة التي تشيع الفساد، وتنشر الرذائل.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٠- واحذَرِ مَجَالَاتٍ سُوِّءٍ في المَلا نُشِرَتْ تَدْعُو جِهَارًا إلى نُشْرِ البَلا بِهِم

أي: كُنْ يا طالب العلم - طالب الحق والهدى - على حَذَرٍ شديد من مَجَالَاتٍ سوء، من مَجَالَاتٍ هذه صفاتها، وهي أَنَّهَا مَجَالَاتٌ سوء، أمَّا المَجَالَاتُ الَّتِي قامت على نشر الشريعة والدعوة إلى الله ﷻ فهذه يحرص عليها ويستفاد منها، وكذلك المَجَالَاتُ القائمة على بيان أمور دنيوية وأشياء نافعة بما يتعلَّق بالطَّبِّ أو الهندسة أو الزراعة فهذه يستفاد منها، والذي يحذَرُ منه مَجَالَاتُ السُّوء، المَجَالَاتُ القائمة على نشر السُّوء والأخلاق الفاسدة والعُري والتَّهْتُكُ والرَّذيلة وإشاعة الفواحش، فهذه يجب على كُلِّ مسلم أن يكون منها على حَذَرٍ شديد.

وقوله: «في المَلا نُشِرَتْ»؛ أي نشرت في أوساط النَّاسِ، وسعى أربابها وأصحابها في إشاعتها ونشرها، يقول هذا في زمانه رَحِمَهُ اللهُ، فكيف لو كان في زماننا هذا؟! زماننا هذا؟!!

قوله: «تَدْعُو جِهَارًا إلى نُشْرِ البَلا بِهِم»؛ أي أَنَّ هذه المَجَالَاتُ الَّتِي نُشِرَتْ

في الملاء على نطاق واسع هدفها وغايتها الدعوةُ جهاراً إلى نشر البلاء بالنَّاس لما يُعرض فيها من الرَّذائل والتَّهتُّك، والأمور الباطلة التي تشيع الفاحشة، وتنتشر الفساد^(١).

أقول: كيف لو رأى رَحْمَةُ اللهِ الْمَجَلَّات التي في زماننا هذا؟! وأشياء أخرى لم تكن في زمانه مثل القنوات الفضائية، ومثل مواقع الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، هذه لم تكن في زمانه، والأمر فيها أشدُّ، والخطر فيها أعظم، والبلاء أشنع، وكم أودتْ بأقوام، وكم أفسدت من أخلاق، وكم خرَّبت من أديان، وكم أوجدتْ من انحلال وضياع؟! فإذا كان الشَّيخ رَحْمَةُ اللهِ يَحذِّر من مجلَّات سوء، فإنَّ القنوات ومواقع شبكة الإنترنت التي تحمل الرَّذيلة والفساد وأنواع الفتن - فتن الشُّبهات، وفتن الشَّهوات - الأمر فيها أخطر وأشدُّ، والواجب على المسلم، وطالب العلم أن يربأ بنفسه عن أن يشاهد ما يعرض فيها، ولا يقول: عندي إيمان يزعني ودين يردعني! فهي فتنة خطيرة، وعواصف جارفة، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ سَمِعَ بِالِدِّجَالِ فَلْيَنَأْ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ! إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»^(٢)، أي لا يقترب من الفتنة، ويقول: عندي إيمانٌ يمنعني؛ لأنَّه إذا أسلم نفسه لهذه القنوات ولتلك المواقع وأخذ ينظر،

(١) ينظر في بيان خطر هذه المجلَّات وحرمة بيعها وشرائها وقراءتها والنَّظر فيها البيان الصَّادر من اللِّجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء بتاريخ ٢١ / ١ / ١٤٢١ هـ ضمن «مجموع فتاوى اللِّجنة» (١٧ / ١١٧ - ١٢٣).

(٢) رواه أبو داود برقم (٤٣١٩)، والإمام أحمد (٤ / ٤٣١) وإسناده صحيح.

ربما سُرقت منه إيمانه أو سَلبت منه أخلاقه أو أفسدت عليه دينه وأضررت به غاية الضرر.

وإذا كان الإنسان مخاطراً بشيء؛ فلا يخاطر بدينه، فإنَّ الدِّينَ أثمنُ شيءٍ يملكه في هذه الحياة، والجلوس إلى تلك القنوات، وإلى تلك المواقع هو في الحقيقة مخاطرة بالدين، وهذا أمرٌ تهاون فيه كثيرٌ من النَّاسِ حتَّى طلبة العلم، وأصبح - الآن - بعض النَّاسِ - بل كثيرٌ - يجلس في خلوة باطلة مع تلك القنوات أو تلك المواقع يغلق على نفسه الباب، ثمَّ يتنقَّل بين مواقع الفساد وقنوات الرَّذيلة، ومع مضيِّ الوقت على هذه الحال تذهبُ الأخلاق، ويُملأ القلبُ بالشُّبهات، فبدلاً أن يكون قلباً نقيّاً زكياً طاهراً صافياً؛ يصبح قلباً مريضاً، إمّا مريضاً بالشَّهوة أو مريضاً بالشُّبهة أو مريضاً بهما.

والواجب على المسلم أن لا يخاطر بدينه، ولا يستهويه فضول نظير أو فضول سمع أن يُطالع؛ لأنَّ تلك المطالعة تُفضي إلى سرقة الأديان والأخلاق، والكفَّار في هذا الباب - باب الشَّهوات - يمكرون مكرًا كَبَّارًا، وكانوا قديماً لا يتمكّنون من الوصول إلى بيوتات المسلمين وأفكار النَّاشئة وعقولهم، أمّا الآن في زماننا أصبحت رذائلهم وباطلهم وفسادهم تحمله الرِّياح، بل هي أعاصير مدمّرة؛ تدمّر البيوت والأديان والأخلاق والفضائل، وتنشر الفاحشة والرَّذيلة؛ ولذا يجب على المسلم أن يكون عصامياً محافظاً على دينه ليس مخاطراً به، يقول: أنظر وأشهد فقط ولن أتاثر! بل يجبُ عليه أن يغلق كلَّ باب من أبواب الفتنة، وكلَّ منفذ من منافذ الشرِّ والفساد.

والمصيبة عظيمة والبلاء كبيرٌ والخطر فادحٌ! وإذا كان طالب العلم يجلس إلى تلك القنوات أو إلى تلك المواقع من الذي يحذّر النَّاس؟! وإذا كان رائدُهم يقع في هذه الأخطار فمن الذي يُنذِرهم؟! ولذا فإنَّ طالبَ العلم أولى النَّاس بالحذر من هذه المواقع.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٩١- تَدْعُو لِنَبِّذِ الْهُدَى وَالَّذِينَ أَجْمَعِهِ وَالْعِلْمِ بَلْ كُلِّ عَقْلٍ كَامِلٍ سَلِمَ

هذه مقاصد وغايات تلك المجلّات: الدّعوة إلى نبذ الهدى الذي بُعث به نبينا - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الصف: ٩]، بل تدعو إلى نبذ الدّين كاملاً، وإذا جمع الهدى والدّين كما في هذه الآية، فيُراد بـ«الهدى»: العلم النّافع، ويُراد بـ«الدّين الحقّ»: العمل الصّالح والطّاعات المقرّبة إلى الله ﷻ.

فهذه المجلّات تدعو إلى نبذ العقائد، وإلى نبذ كذلك العبادات والطّاعات والأخلاق.

وقوله: «والعلم»؛ أي هي حرب على العلم، وفي تلك المجلّات يُنتقص العلم، ويُقلّل من شأنه، ويحتقر العلماء، وتُزدري مكانتهم، ويُهَوّن من قيمتهم، ويُستخفّ بهم، ويستخفّ بالعلوم الشرعيّة، ومقابل ذلك تعظيم الأشياء الباطلة، والحقارات الفاسدة باسم الحضارات، وباسم التّمذّن، وباسم الرّقّيّ في شعارات تبرز، وتحتها تهدم الأخلاق وينشر الشرّ والفساد.

وقوله: «بَلْ كُلَّ عَقْلٍ كَامِلٍ سَلَمٍ»؛ أي هي مُفسدةٌ للعقول، فَبَدَلْ أَنْ يُصْبِحَ عقل الإنسان راجحاً رصيناً رزيناً؛ يصبح عقلاً تافهاً حقيراً، بل يصبح عقلاً بهيمياً، لا اهتمام له إلا في حدود اهتمام بهيمة الأنعام، أمّا المعاني العظيمة والأمر الجليلة والأخلاق الفاضلة؛ فهذه كلها تترحل عن الإنسان إذا مضى في النَّظَرِ إلى تلك المجالات أو المواقع أو القنوات.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٢- وَلِلرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَالرَّئِجِ كَالْحَيَوَانِ السَّائِمِ الْبَهِيمِ
أي ممّا تدعو إليه هذه المجالات: الدَّعوة إلى الرُّكون إلى الدُّنيا وزخرفها،
بحيث لا يكون همُّ الإنسان إلا الحياة الدُّنيا، ولا همَّ له في الآخرة، وقد قال
الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ
يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿[الإسراء: ١٨ - ١٩].

وقوله: «وَالرَّئِجِ كَالْحَيَوَانِ السَّائِمِ الْبَهِيمِ»؛ أي هذه المجالات تدعو أن يصبح
الإنسان يرتع في هذه الحياة الدُّنيا، فلا همَّ له إلا أن يأكل ويشرب ويلعب
كبهيمة الأنعام سواء، وقد قال الله - سبحانه - عن الكفار: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٣- وَلِتَّهْتِكِ جَهْرًا وَالْخَلَاعَةَ مَعَ نَبَذِ الْمُرُوءَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ
أي ومما تتصافر في الدّعوة إليه تلك المجلّات: الدّعوة إلى التّهتك، والمراد
به: الانحلال من الأخلاق والسّتر والعِفَّة والصّيانة والشّيَم، «جَهْرًا»؛ أي لا حياء
من الله ولا من عباده، يدعون إلى العُري، ونبذ الحجاب، وكشف العورات،
«وَالْخَلَاعَةَ»؛ والمراد بها الفاحشة والرّذيلة، «مَعَ نَبَذِ الْمُرُوءَةِ»؛ تلك المجلّات
التي تدعو إلى الوقوع في الفاحشة، بعضها تدعو إلى إشاعة مقدّماتها مثل
صور النّساء المتجمّلات المتزيّئات، أو بنشر صور النّساء الفاتنات الجميلات،
أو بأزيد من ذلك؛ بنشر صورٍ فيها تلاصق بين الرّجال والنّساء، رجلٌ يضمُّ
امرأةً أو يقبّل امرأةً، كلّ هذه مقدّمات للرّذيلة والفواحش، والله جلّ وعلا لما نهى
عن الزّنا قال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]،
فهذا فيه نهْيٌ عن الزّنا وعن كلّ مقدّمة تفضي إليه؛ من نظرٍ أو لمسٍ أو سماعٍ
أو غير ذلك؛ ولهذا قال عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزّنى
مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْإِسْتِغَاغُ، وَاللِّسَانُ
زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى،
وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيَكْذِبُهُ»^(١).

(١) رواه البخاري برقم (٦٢٤٣)، ومسلم برقم (٢٦٥٧) - واللفظ له - من حديث

أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله: «نَبَذِ المُرْوَةَ»؛ أي - وأيضًا - فهي تدعو إلى نبذ المروءة، و«المروءة»: خُلُقٌ عظيم، إذا وُجد في الشَّخص حِزْه عن الوقوع في خوارم الأخلاق، ونواقص الآداب.

وقوله: «والأخلاقِ والشَّيم»؛ أي هذا كُلُّه ممَّا تتصافر تلك المجالات في الدَّعوة إليه، ويشاركها في زماننا - بل بشكلٍ أزيد، ونطاقٍ أوسع - القنوات الفضائيَّة، ومواقع الإنترنت الَّتِي لا حصر لها ولا عدَد - وقى الله المسلمين شرَّها -.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٤- والاعْتِمَادِ عَلَى الْأَسْبَابِ مُطْلَقِهَا دُونَ الْمُسَبَّبِ وَالْخَلْقِ مِنْ عَدَمِ

أي ممَّا تدعو إليه تلك المجالات: الاعتماد على الأسباب دون المسبَّب الَّذِي هو الله، فهي تعلقُ القلوب بالأسباب، وتعطلُّ فيها الإيمان بمسبَّب الأسباب، تعطلُّ الثَّقة بالله والتَّوَكُّل والاعتماد عليه، وتدعو إلى التَّعلُّق بالأسباب والرُّكون إليها وتعظيم شأنها؛ فيها حديث واسع عن قدرات الإنسان وقواه وإمكاناتِه، ولا ترى فيها بإذن الله أو إن شاء الله أو توكلَّ على الله أو فوَّض أمرَكَ إلى الله، و«أَحْرَضَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزَّ بِاللَّهِ»^(١)، أو الدَّعوة إلى الاستعانة بالله والتَّوَكُّل عليه والثَّقة به، وتفويض الأمر إليه، ونحو ذلك من أمور الإيمان الَّتِي هي أساس الفلاح والنَّجاح في الدُّنيا والآخرة، فلا يُعْتَنَى بها ولا يهْتَمُّ بها في تلك المجالات، وإنَّما فيها الدَّعوة إلى التَّعلُّق بالأسباب.

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «وَالْخَلْقِ مِنْ عَدَمٍ»؛ أي الله جَلَّ وَعَلَا قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلْقُ
 الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، فهو سبحانه الذي بيده الخفض والرفع، والقبض والبسط،
 والعطاء والمنع، وبيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَرْمَةُ الأمور، فكيف يُدعى إلى التعلُّق بالأسباب،
 والأمر بيد الخلاق من عدم، مُسَبَّب الأسباب، وخالق كلِّ شيء؟! وقد جاء في
 بعض النسخ: «الإخلاق من عدم»، ولعلَّ ما أثبتَّه هو الصَّواب.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٥- وَالْكَفْرِ بِاللَّهِ وَالْأَمْلاَكِ مَعَ رُسُلٍ وَالْوَحْيِ مَعَ قَدَرٍ وَالبَعْثِ لِلرَّمَمِ

أي ومَّا تدعو إليه تلك المجالات: الكفر بالله ﷻ إمَّا في ربوبيَّته جَلَّ وَعَلَا
 أو أسمائه وصفاته وعظمته، أو تحقيق العبوديَّة له، أو الاستخفاف بدينه والحقِّ
 والهدى الَّذي أمر به جَلَّ وَعَلَا أو التَّشكيك في أمور الإيمان إلى غير ذلك من
 أنواع الكفر.

وقوله: «وَالْأَمْلاَكِ»؛ أي تدعو إلى الكفر بالملائكة، والاستخفاف بهم
 أو الجحد لوجودهم أو القول بأنَّ الملائكة لا حقيقة لها، وإنَّها هي رموز، أو
 غير ذلك من أنواع الكفر بالملائكة، والإيمان بالملائكة أصلٌ من أصول الإيمان.
 قوله: «مَعَ رُسُلٍ» أي: وتدعو إلى تكذيب المرسلين، أو الاستهزاء بهم،
 أو إنكار ما جاءوا به، أو بُغضهم، أو بُغض ما جاءوا به.

وقوله: «وَالْوَحْيِ» أي: الكفر بالوحي بالتَّكذيب بكتب الله المنزَّلة على رُسُل
 الله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه، أو إنكارها، أو إنكار شيء منها، أو

بغضها، أو الاستهزاء بها.

وقوله: «مَعَ قَدَرٍ» بالتَّكْذِيبِ بقدرة الله الشَّاملة، أو مشيئته النَّافِذة، أو تفرُّده بالخلق والتَّدْبِير.

وقوله: «وَالْبَعْثُ لِلرَّمَمِ» بإنكار البعث أو التَّكْذِيب بالجزاء والحساب أو الجنة والنَّار، ونحو ذلك من تفاصيل يوم القيامة.

وقوله: «لِلرَّمَمِ» في «اللِّسَانِ»: رَمَّ العِظْمُ وهو يَرُمُّ بالكسر رَمًّا ورَمِيمًا، وأَرَمَ صار رِمَّةً أي بَلِي، «وَالْبَعْثُ لِلرَّمَمِ»؛ أي البعث للأجساد والعظام التي أصبحت باليةً.

وهذا البيت جمع فيه النَّاطِم رَحِمَهُ اللهُ دعوة تلك المَجَلَّات إلى الكفر بأصول الإيمان السَّتَّة: الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرُّسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ فقوله: «وَالْكُفْرُ بِاللَّهِ» فيه الكفر بالأصل الأوَّل، «وَالْأُمْلَاكُ» الكفر بالأصل الثَّاني، «مَعَ رُسُلٍ» الكفر بالأصل الثَّالث، «وَالْوَحْيُ» الكفر بالأصل الرَّابِع، وهو الإيمان بالكتب، «مَعَ قَدَرٍ» الكفر بالأصل الخامس وهو الإيمان بالقدر، «وَالْبَعْثُ لِلرَّمَمِ» الكفر بالأصل السَّادس: الإيمان باليوم الآخر.

□ قال النَّاطِم رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٦- وَلَا عِتْنَاقَ الطَّبِيعِيَّاتِ لَيْسَ لَهَا مُدَبَّرٌ فَاعِلٌ مَا شَاءَ لَمْ يَضِمَّ

أي وممَّا تدعو إليه تلك المَجَلَّات ويُنشر فيها: الدَّعوة إلى اعتناق الطَّبِيعِيَّات؛ باعتقاد أنَّ الَّذِي أوجد هذه الكائنات هي الطَّبِيعَةُ وأنَّه ليس هناك خالق لها

ولا صانعٌ لها ولا مبدعٌ، بل هي أشياء أوجدتها الطَّبيعة! والله تعالى يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿[الطور: ٣٥ - ٣٦]، وإنكار الخالق والقول بأنَّ هذه الأشياء وُجدت صدفة من غير خالق ولا مدبِّر مقالة قديمة، لكنَّها - كما سيشير الناظم - تتكرَّر في كلِّ زمن بصيغ وأساليب تناسبه من خلال أبرز الوسائل الشَّائعة فيه، وكون هذه المخلوقات وجدت بنفسها من غير مُحْدِثٍ ولا خالقٍ محالٍّ ممتنعٌ، يجزم العقل ضرورةً ببطلانه، ويُعلم يقيناً أنَّ من ظنَّ ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل؛ لأنَّ كلَّ من له عقل يعرف أنَّه لا يمكن أن يوجد شيءٌ من غير موجدٍ ولا مُحْدِثٍ، بل إنَّ العقول والفطر مضطَّرةٌ إلى الاعتراف بباريها وموجدها، وشواهد الوحداية لا حصر لها، فكلُّ ما خطر في القلوب وشاهدته الأبصار وأدركته الحواسُّ والمشاعرُ، وكلُّ متحرِّكٍ وساكن، وكلُّ حيوانٍ وجماد أدلَّةٌ وبراهينٌ على وحدانية الله وآياتٌ عليه.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنَّه واحدٌ

وقوله: «ليسَ لها مُدبِّر فاعِلٌ»؛ أي يدعو هؤلاء إلى اعتقاد أنَّ هذه المخلوقات أوجدتها الطَّبيعة وليس لها خالقٌ، ولا مدبِّرٌ، ولا ربٌّ موجدٌ، وهذا فيه إنكار وجود الله وأنَّه الخالق ﷻ لهذه الأكوان، ففيها الدَّعوة إلى الإلحاد وإنكار ربوبية الله ﷻ للعالمين.

وقوله: «لَمْ يَضِمَّ»؛ «الضِّيم»؛ الظُّلم.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٧- قَامَتْ لَدَيْهِمْ بِلا قِيُومٍ اَبَدَعَهَا^(١) مُسَخَّرَاتٍ لِغَايَاتٍ مِّنَ الْحِكَمِ

قوله: «قَامَتْ»؛ أي هذه المخلوقات وجميع الكائنات، «لَدَيْهِمْ»؛ أي لدى هؤلاء الملاحدة، «بلا قِيُومٍ»؛ أي بلا خالق مبدع، «اَبَدَعَهَا»؛ أي أوجدها. وقوله: «مُسَخَّرَاتٍ لِغَايَاتٍ مِّنَ الْحِكَمِ»؛ أي فهم أنكروا أنَّ لها مُبدعًا، وأنكروا أنَّها مخلوقة لحكمةٍ وغاياتٍ.

١٩٨- سَمَوْهُ مَدْحًا لَهُ الْعِلْمُ الْجَدِيدُ بَلِ الْـ كُفْرَ الْقَدِيمِ وَمِنْهُ الْقَوْلُ بِالْقِدَمِ

أي هذا الباطل، وهذا الرُّكام من الفساد والإلحاد والزَّندقة والضَّلال من أجل ترويجهِ وإشاعته بين النَّاسِ «سَمَوْهُ مَدْحًا لَهُ الْعِلْمُ الْجَدِيدُ»، وهذه طريقة أهل الباطل يضعون لباطلهم عناوين برَّاقة، مثل «العلم الجديد»، ومثل نبذهم للأخلاق يسمَّى «الحرية» أو «المساواة» ونحو ذلك من الشُّعارات التي يرفعها هؤلاء، وتحتها السُّمُّ الزُّعاف.

ولا يُعرف أنَّ صاحب باطل يُسمَّى باطله باطلاً، أو يسمَّى كفره كفرًا، أو يسمَّى شره شرًّا، بل دائماً صاحب الباطل يسمَّى باطله بأسماء جميلة من أجل أن يُقبَل وأن ينتشر بين النَّاسِ، فلا تجده يقول: أنا داعية إلى الكفر، أو أنا داعية إلى الزَّندقة أو أنا داعية إلى الخلاعة، فمثلاً إن فتح مكاناً لإشاعة الفاحشة والرَّذيلة يجعل عنوانه «الفنون الجميلة»!! فالعنوان شيءٌ والمضمون شيءٌ آخر.

(١) بتسهيل الهمزة مراعاة للوزن العروضي، ويمكن ترك التَّنوين في «قِيُومٍ» مع قطع الهمزة.

وإذا كان داعيةً إلى الكفر والإلحاد فيضع على مجلته أو موقعه عنواناً جذاباً كـ «التَّقدُّم» أو «الحضارة» أو «الرُّقي» ليصطاد به العقول المغفلة، هذه طريقة هؤلاء قديماً وحديثاً.

وقوله: «بَلِ الْكُفْرَ الْقَدِيمَ»؛ أي: هذا الذي يدعون إليه من الإلحاد والإيمان بالطبيعة وإنكار وجود الله، وإنكار أصول الإيمان كفر قديم معروف في الأمم الماضية وليس علماً جديداً: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ [القمر: ٤٣].
وقوله: «وَمِنْهُ»؛ من هذا الكفر «القول بالقديم»؛ وهو قول الفلاسفة الأول الذين يقولون بقديم العالم.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٩- تَقَسَّمُوهُ الْمَلَا حِيدُ الطُّغَاةِ عَلَى سَهْمٍ وَأَكْثَرُ لَا أَهْلًا بِذِي الْقِسَمِ

أي هذا الكفر والباطل تقاسموه، فالشيخ يصوّر هذا الكفر بأنه ميراث قديم ورثه هؤلاء المعاصرون، وليس كما يزعمونه أنّها علوم جديدة، اكتشفوها وعرفوها في هذا العصر، بل هو كفر قديم تقاسمه ملاحدة العصر بين مستقلّ منه ومستكثر، «لا أهلاً بذِي الْقِسَمِ»؛ لأنّها قِسْمٌ ضلال وباطل.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٠- وَكُلُّ مَا مَرَّ قَرْنٌ أَوْ قُرُونٌ أَتَوْا بِهِ عَلَى صُورَةٍ أُخْرَى لِحُبِّهِمْ

هذه طريقة أهل الباطل والإلحاد، في كلّ زمان يأتون بباطلهم على صورة

أخرى، بحيث يواكبون رغبات أهل زمنهم وما شاع وانتشر وتعلقت به قلوبهم، «لُحْبِثِهِمْ»؛ أي لأنهم أهل خبث ومكر.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠١- بَعْضُ الْحَبِيثِ عَلَى بَعْضٍ سَيَرُكُمُ رَبِّي وَيَجْعَلُهُ فِي النَّارِ لِلضَّرَمِ

أي هذه مآلات هؤلاء ونهايتهم: أن باطلهم كله سيركُمه رب العالمين بعضه على بعض ويجعله في جهنم، وقوله: «للضَّرَمِ» في «اللَّسَانِ»: «الضَّرْمُ مَصْدَرُ ضَرِمَ ضَرَمًا وَضَرِمَتِ النَّارُ وَتَضَرَّ مَتْ وَاضْطَرَمَتْ: اشْتَعَلَتْ وَانْتَهَبَتْ».

٢٠٢- وَاعْجَبَ لِعُدْوَانِ قَوْمٍ حَاوَلُوا سَفَهَا أَنْ يَجْمَعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي كِمَمٍ

أي من محاولات بعض هؤلاء وطرائقهم في نشر علومهم الباطلة؛ أن حاولوا جمعه مع علوم الإسلام في «كِمَمٍ»؛ أي في موضع واحد وفي ثوب واحد، وكأنهما شيء واحد، وكأن هذا الباطل من الإسلام؛ ولذلك تجد أن بعضهم يحاول بطريقة أو أخرى أن يجعل هذه الأشياء ليست مصادمة للإسلام ولا منابذة له، بل هي منه! ويأتون بعبارات: «الإسلام دين التيسير»، و«الإسلام دين السَّماحة» ومقصودهم بها أنه لا يعارض تلك الأهواء، ولا ينقض تلك الأباطيل، فليس هو دين «إقصاء» و«لا كِبَتْ لِلْحَرِّيَّاتِ»، بل هو دين سماحة ويسر.

وقوله: «في كِمَمٍ»؛ في «القاموس»: «الْكُمُّ بِالضَّمِّ: مدخل اليد ومخرجها من الثوب، جمع: أكمام وكِمَمَة، والْكِمُّ بالكسر والكِمَامَة: وعاء الطَّلَعِ وَغِطَاءُ

النَّور، والجمع: كِهَام وَأَكَمَّة وَأَكْهَام».

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٣- كَالثَّارِ فِي الْمَاءِ أَوْ طُهِرَ عَلَى حَدَثٍ فِي وَقْتِهِ أَوْ إِخَاءِ الذَّنْبِ وَالْغَنَمِ

أي هل يجتمع النَّار والماء، أو الطُّهْر والحَدَث في وقت واحد وفي آنٍ واحد؟! وكذلك هل يتآخى الذَّنْب والغنم؟! عدُّو الغنم الشرس.

فهؤلاء يحاولون أن يجمعوا بين الحقِّ والباطل في ثوب واحد! ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

هذه خلاصة ما تروّج له تلك المجلّات وزبدة ما تدعو إليه، «والحاصل: أن هذه المجلّات قوائمها التّجارة بجسد المرأة، الّتي أسعفها الشّيطان بجميع أسباب الإغراء ووسائل الفتنة؛ للوصول إلى نشر الإباحيّة، وهتك الحرمات، وإفساد نساء المؤمنين، وتحويل المجتمعات الإسلاميّة إلى قطعان بهيميّة، لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا، ولا تقيم لشرع الله المطهر وزنًا، ولا ترفع به رأسًا، كما هو الحال في كثير من المجتمعات»^(١).

والله المستعان والحافظ لا شريك له.

(١) مجموع «فتاوى اللّجنة الدّائمة» (١٧ / ١١٩).

خاتمة في تحصيل ثمرات العلم النّافعة واجتناء قُطوفه الدّانية اليّانة

لما بيّن الناظم فيما سبق فضل العلم وشرفه ومكانته، وبيّن أصل العلم - وهو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ -، وحذّر من العلوم الباطلة كعلم الكلام والتنجيم والكهانة وغير ذلك، وحذّر من الفتن؛ أتى رحمه الله في تمام هذا النظم، فعقد هذه الخاتمة ليبين من خلالها ثمار العلم النّافعة وقطوفه الدّانية اليّانة.

وبيّن رحمه الله في صدر هذه الخاتمة أنّ تلك الثّمار والقطوف والآثار لا تُنال بمجرد الانتهاء للعلم فقط، والاعتزاء إليه، ولا بمجرد تحصيله دون عمل به، بل إنّها تُنال بتحقيق خشية الله تبارك وتعالى، والقيام بطاعته، وفعل ما يقتضيه العلم من خضوع وذلّ وانكسار لله جلّ وعلا، وعدّد صفات أهل العلم الذين هم أهل لاجتناء ثمار العلم والفوز بآثاره العظيمة وثماره المباركة الجليلة.

□ قال الناظم رحمه الله:

٢٠٤- وَحَاصِلُ الْعِلْمِ مَا أُمِّي الصِّفَاتِ لَهُ فَأَصْغِ سَمْعَكَ وَاسْتَنْصِتْ إِلَى كَلِمِي

صدر بهذا البيت نصحاً للسامع وترغيباً للنفوس وتهيةً للقلوب؛ لتحسن الإصغاء وتحسن الاستفادة، أي أنّه سيذكر كلاماً عظيماً وتقريراً مفيداً يحتاج من طالب العلم إلى أن يحسن إصغاء السمع لتتم له الفائدة.

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٥- وَذَاكَ لَا حِفْظَكَ الْفُتْيَا بِأَحْرِفَهَا وَلَا يَتَسَوِّدُكَ الْأَوْرَاقُ بِالْحَمِّ
أي: حاصل العلم ليس هو بمجرد حفظ الفتيا بأحرفها، «وَلَا يَتَسَوِّدُكَ
الْأَوْرَاقُ بِالْحَمِّ»؛ أي وليس العلم - أيضًا - مجرد أن تمسك قلمًا وتسمع ما
يُقال وتكتب، و«الحَمِّ» على وزن صُرِدَ، وهو الفحم.

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٦- وَلَا تَصْدُرُ صَدْرَ الْجَمْعِ مُحْتَبِيًّا تُمْلِيهِ لَمْ تَفْقَهُ الْمَعْنَى بِالْكَلِمِ
قوله: «وَلَا تَصْدُرُ صَدْرَ الْجَمْعِ مُحْتَبِيًّا تُمْلِيهِ»؛ أي وليس - أيضًا - العلم
مجرد أن تكون لك الصّدارة في المجالس، تجلس أمام النّاس والسّامعين، وتُلقى
وتُملّي عليهم ما عندك، «مُحْتَبِيًّا»؛ أي جالسًا جلسة الاحْتَبَاءِ، وهي معروفة.
وقوله: «لَمْ تَفْقَهُ الْمَعْنَى بِالْكَلِمِ»؛ أي دون أن تقف على مقاصد الشّرع
وحقائق العلم، ومعاني الألفاظ ودلالاتها.

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٧- وَلَا الْعِمَامَةُ إِذْ تُرْخِي ذُؤَابَتَهَا تَصْنَعُا وَخِصَابُ الشَّيْبِ بِالْكَتَمِ
قوله: «وَلَا الْعِمَامَةُ إِذْ تُرْخِي ذُؤَابَتَهَا تَصْنَعُا»؛ أي وليس العلم أن يضع
الإنسان على رأسه عمامة جميلة ولها ذؤابة طويلة؛ لتكون صورته جذابة للنّاس،
يتصنّع ويتظاهر بأنّه عالم وأنّه فاضل، والعمامة الّتي قد يضعها بعضُ أرباب

الباطل وأصحاب الطرق بمجرد هيئتها أضلّت أقوامًا كثيرين، فقبلوا كلّ ما قاله لا لشيء إلا لعلمته!!

وقوله: «وخضاب الشَّيبِ بالكتم»: «الخضاب»؛ تغيير لون الشَّيب بالكتم، و«الكتم» لونه أسود، وقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ الأمر بتغيير الشَّيب وتجنّيه السَّواد^(١).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٨- ولا بِقَوْلِكَ يَعْنِي دَائِبًا وَنَعَمْ كَلَّا وَلَا حَمْلِكَ الْأَسْفَارَ كَالْبَهَمِ

أيضًا: وليس العلم أن تتصدّر بـ«نعم» أو «لا» أو نحو ذلك، ولا بحمل الأوراق والكتب دون تفقّه لما فيها، ودون معرفة بمضامينها.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٩- ولا بِحَمْلِ شَهَادَاتٍ مُبْهَرَجَةٍ بِزُخْرِفِ الْقَوْلِ مِنْ نَثْرِ وَمُنْتَظِمِ

أي: ليس العلم مجرد شهادات تحمل مزخرفة ومنمّقة ومجمّلة، يقول حاملها: أنا عندي شهادة كذا، ومُنْحَتْ درجة كذا، أو يزخرفُ الشَّهادة ويعلّقها، وإذا دخل عليه الدّاخِل قال: إذا أردت أن تعرفني؛ فانظر إلى هذه الشَّهادات.

على أنّه لا ضير على طالب العلم في الحصول على الشَّهادات العلميّة إذا صلحت نيّته واستقام قصده، « ففرّق بين من يكون الدّين مقصوده والدنيا

(١) من حديث جابر رَحِمَهُ اللهُ أخرجه مسلم برقم (٢١٠٢).

وسيلة، ومن تكون الدنيا مقصوده والدين وسيلة»^(١)، فإن «من أراد الشهادة ليتقوى بها على تبليغ العلم والدعوة إلى الخير، فقد أحسن في ذلك، وإن أراد المال ليتقوى به فلا بأس أن يدرس ليتعلم وينال الشهادة التي يستعين بها على نشر العلم، وأن يقبل الناس منه هذا العلم، وأن يأخذ المال الذي يعينه على ذلك، فإنه لولا الله سبحانه ثم المال لم يستطع الكثير من الناس التعلم وتبليغ الدعوة»^(٢).

□ ثم بين رحمه الله المراد بـ«العلم» فقال:

٢١٠- بَلْ خَشِيَةُ اللَّهِ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ فاعْلَمْ هِيَ الْعِلْمُ كُلُّ الْعِلْمِ فَالْتَزِم

فالعلم الحقيقي هو خشية الله في السر والعلن، في الغيب والشهادة، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعبد كلما كان بالله أعرف؛ كان منه أخوف، ولعبادته أطلب، وعن معصيته أبعد.

وقوله: «فاعْلَمْ هِيَ الْعِلْمُ كُلُّ الْعِلْمِ فَالْتَزِم»؛ أي اعلم ذلك: أن العلم، كل العلم: خشية الله، وأن رأس العلم خشية الله ﷻ.

قال ابن رجب رحمه الله في رسالته «شرح حديث أبي الدرداء رضي الله عنه في فضل طلب العلم»^(٣): «فالعلم النافع هو ما باشر القلب؛ فأوثر فيه معرفة الله تعالى وعظمته، وخشيته وإجلاله، وتعظيمه ومحبته، ومتى سكنت هذه الأشياء في

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٦/ ٢٠).

(٢) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لابن باز (٧/ ٢٢٧ - ٢٢٨).

(٣) (ص ٤٥).

القلب خشع؛ فخشعت الجوارح تبعاً له.

وفي «صحيح مسلم»^(١) عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ»، وهذا يدلُّ على أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي لَا يُوجِبُ الْخُشُوعَ لِلْقَلْبِ فَهُوَ عِلْمٌ غَيْرُ نَافِعٍ.

قال^(٢): «وقال كثيرٌ من السَّلف: ليس العلم كثرة الرواية ولكن العلم الخشية، وقال بعضهم: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً».

وَيَبَيِّنُ رَحِمَهُ اللَّهُ كَيْفَ أَنَّ الْعِلْمَ يُوجِبُ الْخُشْيَةَ، وَأَنَّ فَقْدَهُ يَسْتَلْزِمُ فَقْدَهَا مِنْ سِتَّةِ وَجُوهِ فِي رِسَالَةٍ لَهُ^(٣) فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿[فاطر: ٢٨].

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١١- فَلْتَعْرِفِ اللَّهَ وَلْتَذْكُرْ تَصَرُّفَهُ وَمَا عَلَى عِلْمِهِ قَدْ خُطَّ بِالْقَلَمِ

ثُمَّ شَرَعَ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيَانَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الْمُثْمِرِ الثَّمَرَاتِ الْعَظِيمَةِ.

قوله: «فَلْتَعْرِفِ اللَّهَ»؛ أي بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا وَأَفْعَالِهِ الْجَلِيلَةِ الْعَظِيمَةِ، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَدْعُو إِلَى الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ تَقَرُّبَ مِنَ الثَّلَاثِينَ آيَةً، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

(١) برقم (٢٧٢٢).

(٢) نفسه (ص ٥٠).

(٣) موجودة في ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» في المجلد الثاني منه، (ص ٧٧١ - ٨١٠).

يَنْزِلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿[الطلاق: ١٢]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي فيها الدَّعوة إلى العلم بالله ومعرفة ﷻ.

وقوله: «وَلْتَذَكَّرْ تَصَرُّفَهُ»؛ أَنَّهُ ﷻ المتصرِّف في هذا الكون خفصًا ورفعًا، بسطًا وقبضًا، عطاءً ومنعًا، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا خافض لما رفع ولا رافع لما خفض، ولا معزِّ لمن أذلَّ ولا مذللَّ لمن أعزَّ.

وقوله: «وَمَا عَلَى عِلْمِهِ»؛ أي علم الله ﷻ المحيط بكلِّ شيء، الَّذي وسع كلَّ شيء، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: «قَدْ خَطَّ بِالْقَلَمِ»؛ أي أَنَّ الله ﷻ علم الأشياء أزلًا، وأحاط علمه بكلِّ شيء، وخلق القلم وأمره ﷻ بآن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، كما جاء في حديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ»، رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه^(١).

(١) «المسند» (٣١٧/٥)، و«سنن أبي داود» برقم (٤٧٠٠)، و«جامع الترمذي» برقم (٣٣١٩).

عقد الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «الصَّحِيح» - في كتاب القدر - باباً؛ قال فيه: «باب جَفَّ القَلَمُ على علم الله، ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال أبو هريرة: قال لي النَّبِيُّ ﷺ: «جَفَّ القَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ»^(١)، ووصله في موضع آخر^(٢).

قال الحافظ في «الفتح»: «قوله باب - بالتَّنوين -: جَفَّ القَلَمُ؛ أي فرغت الكتابة، إشارة إلى أَنَّ الَّذِي كُتِبَ فِي اللُّوحِ المحفوظ لا يَتَغَيَّرُ حَكْمُهُ، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة؛ لأنَّ الصَّحِيفَةَ حال كتابتها تكون رطبة أو بعضها، وكذلك القلم، فإذا انتهت الكتابة؛ جَفَّتْ الكتابة والقلم... وهذا لفظٌ حديثٌ أخرجه أحمد وصحَّحه ابن حَبَّان؛ من طريق عبد الله بن الدَّيْلَمي عن عبد الله ان عمرو، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ القَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ»، وأخرجه أحمد وابن حَبَّان من طريق أخرى عن ابن الدَّيْلَمي نحوه، وفي آخره أَنَّ القائل: «فَلِذَلِكَ أَقُولُ» هو عبد الله ابن عمرو، ولفظه: «قلت لعبد الله بن عمرو: بلغني أَنَّكَ تقول: إِنَّ القَلَمَ قد جَفَّ؟» فذكر الحديث، وقال في آخره: «فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ القَلَمُ بما هو كائن»^(٣) انتهى.

(١) «البخاري» (٦/ ٢٤٣٣).

(٢) حديث رقم (٤٧٨٨).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٥٩٨ - ٥٩٩).

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ :

٢١٢- وَحَقُّهُ اعْرِفْ وَتُمْ حَقًّا بِمُوجِبِهِ وَمَنْهَجَ الْحَقِّ فَاسْلُكْ عَنْهُ غَيْرَ عَمِي

قوله: «وَحَقُّهُ اعْرِفْ»؛ أي اعرف حقَّ الله عليك، وهو: أن تعبد الله - سبحانه - مخلصًا له الدِّين، فتفرده جَلَّ وَعَلَا وحده بالعبادة، ولا تجعل معه ﷻ شريكًا في شيءٍ منها، كما في حديث معاذ بن جبل أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: «يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» متَّفَق عليه^(١).

وقوله: «وَتُمْ حَقًّا بِمُوجِبِهِ»؛ أي تُمْ بما تستوجبه معرفتك بحقَّ الله حقَّ القيام، وجاهد نفسك على تتميم ذلك وتكميله؛ بأن تُخلص الدِّين كله لله، وتُسلم وجهك لله مطيعًا مخلصًا صادقًا ذليلاً خاضعًا.

وقوله: «وَمَنْهَجَ الْحَقِّ فَاسْلُكْ»؛ أي مع معرفتك بحقَّ الله ومجاهدتك نفسك للقيام به؛ الزم منهج الحقِّ، المنهج الَّذي كان عليه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وَلِزُومِ نَهْجِهِ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ وَالبُعْدِ عَنِ الْمَحْدَثَاتِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ.

وقد جمع في هذا البيت بين الإخلاص والمتابعة، الإخلاص للمعبود وهو حقُّ الله، والمتابعة للرَّسول وهي حقُّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

«وَمَنْهَجَ الْحَقِّ» أي: المنهج الَّذي كان عليه الرَّسول ﷺ.

(١) رواه البخاري برقم (٥٦٢٢)، ومسلم برقم (٣٠).

وقوله: «عنه غَيْرَ عَمِي»؛ أي لا تكن عميًا، أعمى عن الحق والهدى الذي بعث به رسول الله ﷺ.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢١٣- أَشَقَى وَأُسْعَدَ مُحْتَارًا أَضَلَّ هَدَى أَدْنَى وَأُبْعَدَ عَدْلًا مِنْهُ فِي الْقِسَمِ

هذه كلها أفعالٌ لله، وهي من ربوبيته سبحانه؛ فأمن بها، وإيمانك بها من علمك بالله ومعرفتك به.

قوله: «أَشَقَى وَأُسْعَدَ»؛ أي أَنَّ الشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ بيده، كما قال - سبحانه -:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تلا هذه الآية لما سُئِلَ: هل نعمل فيما قدر وقضي أو في أمر مستأنف؟ كما في «الصَّحِيحِينَ»^(١) عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغُرَقْدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مَخْضَرَةٌ، فَكَسَّ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمَخْضَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنُفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نَمُكِّثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ؛ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ؛ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُسَّرُونَ لِعَمَلِ

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٤٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٧).

أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» ثُمَّ قرأ الآيات.

وقوله: «أَضَلَّ هَدَى»؛ أي أن الإضلال والهداية بيده، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقوله: «وَأَبْعَدَ عَدَلًا مِنْهُ فِي الْقِسْمِ»؛ أي وأبعد بعض الخلق عدلاً منه

سبحانه، وطردهم ولعنهم وأبعدهم من رحمته ﷺ، فهو يثيب المطيع بفضله

جَلَّ وَعَلَا، ويعاقب الظالم المعتدي بعدله جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وللإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أبياتٌ جمعت هذه المعاني، يقول فيها:

مَا شِئْتُ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ	وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ	وَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتْى وَالْمُسْنُ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ	وَهَذَا أَعْنَتَ وَذَا لَمْ تَعْنُ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ	وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنٌ ^(١)

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١٤- أَوْحَى وَأَرْسَلَ وَصَّى أَمِراً وَنَهَى أَحَلَّ حَرَمَ شَرْعاً كَامِلاً الْحِكَمَ

أي وآمن - أيضاً -: بهذه الأمور «أَوْحَى» ﷺ، وأنَّ الوحي المنزَّل على الأنبياء

وحيه جَلَّ وَعَلَا وتنزيله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي

مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

(١) رواها عنه اللالكائي (٤ / ٧٧٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١ / ٤٥٠).

«وَأَرْسَلَ»؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

«وَصَّى آمراً ونهى»، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، والله - سبحانه - لا يأمر إلا بما فيه الخير والفلاح والسعادة للناس في الدنيا والآخرة، ولا ينهى إلا عما فيه الشر والضُّر على الناس في الدنيا والآخرة.

«أَحَلَّ وَحَرَّمَ»: التَّحْلِيل والتَّحْرِيم له جَلَّوَعَلَا هو الَّذِي يَحُلُّ وهو الَّذِي يَحَرِّم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]. قوله: «شَرْعًا كَامِلَ الْحِكْمِ»؛ أي أَنَّ شَرَعَ اللهُ ﷻ كُلَّهُ حِكْمًا؛ فَاَمِنْ بِذَلِكَ، وَآمِنْ - أَيضًا - أَنَّهُ - سبحانه -:

٢١٥- يُحِبُّ الْإِحْسَانَ وَالْعِصْيَانَ يَكْرَهُهُ وَالْبِرَّ يَرْضَاهُ مَعَ سُخْطٍ لِحَرَمِهِمْ

«يُحِبُّ الْإِحْسَانَ» والمحسنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، «وَالْعِصْيَانَ يَكْرَهُهُ»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا

أَشِيمًا ﴿[النساء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة. والكره من صفاته الفعلية، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقوله رَحِمَهُ: «وَالْبِرُّ يَرْضَاهُ مَعَ سُخْطٍ لِحُرْمِهِمْ» كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. «لِحُرْمِهِمْ»؛ حُرْمٌ: مصدر للفعل «حَرَّمَ»، يقال: حَرَّمَ حُرْمًا وَحَرَامًا، والمراد: مع سخطه لفعل ما حَرَّمه عليهم، فَمَنْ فَعَلَ المحَرَّمَاتِ بَاءً بِسَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ ﷻ.

□ قال الناظم رَحِمَهُ:

٢١٦- بِمُقْتَضَىٰ ذَيْنِ فِي الدَّارَيْنِ مُطَّرِدٌ لَا ظُلْمٌ يُخْشَى وَلَا خَيْرٌ بِمُنْهَضِمٍ

أي بمقتضى قيام العبد بفعل ما يحبه الله ويرضاه، وتجنب ما يسخطه ويكرهه ويأباه؛ لا يخاف ظلماً ولا هضمًا، فلا يخاف ظلماً: بأن يُحْمَلَ من الذُّنُوبِ أو الآثام ما لم يقترفه، ولا هضمًا: فلا يخاف أن يهضم شيء من حسناته أو طاعاته، فلا يزداد عليه سيئات لم يفعلها، ولا يهضم حسنات فعلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

□ قال النّازم رحمه الله:

٢١٧- فاعْمَلْ عَلَى وَجَلٍ وَاذْأَبْ إِلَى أَجَلٍ وَاعْزِلْ عَنِ اللَّهِ سُوءَ الظَّنِّ وَالتَّهَمِّ

في هذا البيت ثلاث وصايا:

الأولى: «فاعْمَلْ عَلَى وَجَلٍ»: «الْوَجَلُ» بالتحريك: الخوف، كما قال الله ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، والمراد: اعمل - أيها العبد - واجتهد في تكميل أعمالك، وفي نفس الوقت: كُنْ خائفًا من أن لا تُقبل منك، وقد جاء هذا التفسير للآية عن رسول الله ﷺ، كما في حديث عائشة قالت: قلت: يا رسول الله! ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أَهْوَ الرَّجُلُ يَزِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ؟ قال: «لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصَّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ»^(١).

الثانية: «واذْأَبْ إِلَى أَجَلٍ»: «الدَّأْبُ»: هو الاستمرار والمداومة، كما قال صاحب «القاموس»: «دَأَبَ فِي عَمَلِهِ دَأْبًا وَدَأْبًا وَدُؤُوبًا - بِالضَّمِّ -: جَدَّ وَتَعَبَ»^(٢)، والمراد بـ«الأجل»: الموت، والمعنى: جَدَّ واجتهد وواصل العمل إلى أن يأتي أجلك، كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي: الموت، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

(١) رواه أحمد (٢٠٥ / ٦)، والترمذي برقم (٣١٧٥)، وابن ماجه برقم (٤١٩٨).

(٢) «القاموس المحيط» (١ / ١٠٥).

الثالثة: «واعزّل عن الله سوء الظنّ والثّمم»: أي لا تظنّ بالله إلا خيراً، واحذر أن تظنّ به غير ذلك، فالعبد المؤمن الصادق يعلم أن الله - سبحانه - لا يظلم مثقال ذرة، ويعلم أن الله - سبحانه - عند ظنّ عبده به، ولهذا جاء في «الصّحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»^(١)، وجاء في «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»^(٢).

□ قال النّازم رحمته الله:

٢١٨- للشرع فانقذ وسلّم للقضاء ولا تُخاصن به كالمُلحِدِ الخصم

قوله رحمته الله: «للشرع فانقذ»؛ أي كن مُنقاداً لشرع الله، بامثال أوامره ﷻ واجتناب نواهيه، كما قال الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله رحمته الله: «وسلّم للقضاء ولا تُخاصن به كالمُلحِدِ الخصم»؛ أي ليكن شأنك في هذا الباب - باب القضاء -: الإيقان والإيمان، وعدم التردّد، وإيّاك والخصومة فيه؛ لأنّ الخصومة في الأمور الثّابتة والأحكام البيّنة الواضحة في كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ سبيل أهل الضّلال وطريق أهل الباطل، وقد جاء في

(١) رواه البخاري برقم (٦٩٧٠)، ومسلم برقم (٢٦٧٥).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٨٧٧).

الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَا صَرِيهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه^(١).

وقد جاء عن السلف الصالح رحمهم الله نقول عديدة في ذم الخصومة في الدين والتحذير منها، ومن ذلك قول الإمام أحمد رحمته الله: «واعلم - رحمك الله - أن الخصومة في الدين ليست من طريق أهل السنة...»^(٢).

وقال الإمام أبو يوسف - صاحب الإمام أبي حنيفة - رحمهما الله: «الخصومة في الدين بدعة»^(٣).

□ قال النَّاظِمُ رحمته الله:

٢١٩- وبالمقَادِيرِ كُنْ عَبْدًا لِمَالِكِهِ وَعَابِدًا مُخْلِصًا فِي شَرْعِهِ الْقِيمِ
أي كن موقناً مؤمناً بأن ما قدره الله عز وجل كائنٌ، وأن الأمور كلها بقضاء الله وقدرته.

وفي الأثر عن عبادة بن الصَّامِتِ رضي الله عنه أنه قال لابنه: يا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُوكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى

(١) «المسند» (٢٥٦/٥)، و«جامع الترمذي» برقم (٣٢٥٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٩٠ / ٧).

(٣) المصدر السابق (١٦ / ٤٧٥).

الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، يَا بُنَيَّ! إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»^(١)، رواه الإمام أحمد وأبو داود وصححه الألباني.

وفي قوله: «وَبِالْمَقَادِيرِ كُنْ عَبْدًا لِمَالِكِهِ وَعَابِدًا مُخْلِصًا» ذَكَرَ شَيْئَيْنِ: عَبْدًا وَعَابِدًا.

«عَبْدًا»؛ هذه في باب توحيد الربوبية والإيمان بالقضاء والقدر، أي تقرُّ بأنَّك عبدٌ، أي معبَّدٌ مذلَّلٌ، لا خروج لك عمَّا يقضيه الله، فما شاء الله كان وما لم يشأه لم يكن.

«وعابداً مخلصاً»؛ هذا في باب توحيد العبادة، أي كُنْ قائماً بالعبادة التي أمرك ﷺ بها على وجه الإخلاص.

وقوله: «فِي شَرْعِهِ الْقِيَمِ»؛ أي الذي لا عوج فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

□ قال الناظم رحمه الله:

٢٢٠- إِيَّاهُ فَاعْبُدْ وَإِيَّاهُ اسْتَغْنِ فَبِذَا تَصِلُ إِلَيْهِ وَإِلَّا حُرْتَ فِي الظُّلَمِ

أي اجمع بين العبادة والاستعانة، كما قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، بدأ جَلَّوَعَلَا بالعبادة؛ لأنَّها الغاية، ثم ذكر الاستعانة؛ لأنَّها الوسيلة، وهذا الأسلوب يفيد الحصر: والمعنى نعبدك ولا نعبد غيرك،

(١) «المسند» (٣١٧/٥)، و«سنن أبي داود» برقم (٤٧٠٠).

ونستعين بك، ولا نستعينُ بغيرك.

والنَّاطِمُ أتى بهما على ترتيب الآية قال: «إِيَّاهُ فَاعْبُدْ وَإِيَّاهُ اسْتَغْنِ»، و«العبادة» هي تحقيق قول «لا إله إلا الله»، و«الاستعانة» هي تحقيق «لا حول ولا قوَّةَ إلا بالله»، فلا يُعْبَدُ إلا الله، ولا يُسْتَعَانُ إلا بالله.

«فِيذًا تَصِلُ إِلَيْهِ»؛ أي إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فَتَفُوزُ برضاه، وَتَنَالُ جَنَّتَهُ، وَتَنَجُو مِنْ عِقَابِهِ.

«وَالَا حُرْتُ فِي الظُّلَمِ»؛ يعني إِنْ لَمْ تَحَقِّقْ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ وَتُقِمَّ بِهِذَيْنِ الْمَطْلُبَيْنِ تَكُنْ حَائِرًا فِي بَحْرِ الظُّلُمَاتِ.

□ قَالَ النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٢١- وَخُذْ بِالْأَسْبَابِ وَاسْتَوْهَبْ مُسَبِّبَهَا وَثِقْ بِهِ دُونَهَا تُفْلِحَ وَلَمْ تُضْم

قوله: «وُخِذْ بِالْأَسْبَابِ وَاسْتَوْهَبْ مُسَبِّبَهَا»؛ أي بَاشِرِ الْأَسْبَابِ وَافْعَلْهَا؛ الْأَسْبَابُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ الَّتِي أُمِرْتَ بِهَا لِتَنَالَ رِضَا اللَّهِ ﷻ، وَالْأَسْبَابُ الدُّنْيَوِيَّةُ الَّتِي تَنَالُ بِهَا أُمُورَ مَعَاشِكَ طَلَبًا لِلرِّزْقِ وَسَعِيًّا فِي الْمُبَاحِ، وَلَكِنْ لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الْأَسْبَابِ، وَإِنَّمَا اطْلُبْ مِنْ مُسَبِّبِهَا أَنْ يَهَبَكَ وَيَمَنَّكَ عَلَيْكَ، وَأَنْ يُنْعِمَ عَلَيْكَ، وَلَا تَعْتَمِدْ عَلَيْهَا وَلَا تَرْتَكِزْ إِلَيْهَا.

وَالنَّاسُ يَنْقَسِمُونَ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ فِعْلِ الْأَسْبَابِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ النَّاطِمِ: «وُخِذْ بِالْأَسْبَابِ وَاسْتَوْهَبْ مُسَبِّبَهَا»، وَاللَّهُ ﷻ أَمَرَ عِبَادَهُ

بذلك، وأمرهم به رسوله ﷺ، وقد جاءت آيات وأحاديث عديدة في الأمر بالجمع بين الأمرين، ففعل الأسباب والتوكل على الله كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وكقوله ﷺ: «أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١)، وقوله لرجل سأل في شأن الناقة: «اغْلُظْهَا وَتَوَكَّلْ»^(٢)، والنصوص في الباب كثيرة.

القسم الثاني: من يترك الأسباب معتمداً على الله؛ لا يفعل السبب معتمداً على الله ومتوكلاً عليه، وهذا خلاف ما أمر الله ﷻ عباده به، وخلاف ما أمر به رسوله ﷺ، وهذا مثله كمثل من قال: إن شاء الله سأكون عالماً، ولكن لن أطلب العلم!! أو إن شاء الله سيكون لي ذرية صالحة، لكن لا أتزوج!! وهكذا.

القسم الثالث: من يفعل السبب ويعتمد عليه، لا على الله، وهذا نهايته إلى الحرمان، والعياذ بالله.

فإذا؛ المطلوب من المسلم الجمع بين الأمرين، كما قال الناظم: «وخذ بالاسباب واستوهِبْ مُسَبِّبَهَا»، ونظيره قول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي منظومته في السير إلى الله والدار الآخرة:

صَحِبُوا التَّوَكَّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَعَ بَذْلِ جُهْدٍ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤).

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٥١٧)، وحسنه الألباني.

وقوله: «وِثْقُ بِهِ دُونَهَا تُفْلِحُ»؛ أي ثِقْ بالله دون الأسباب، فإن فعلت هذا؛ تَكُنْ من المفلحين، ومن الأخطاء الشائعة الدَّعوة إلى الثَّقة بالنفس، والثَّقة توَكُّل، بل هي خلاصة التَّوَكُّل ولَبُّهُ^(١)، وهو لا يكون إلَّا بالله؛ وفي الدُّعاء الماثور: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢)؛ قال الشَّيْخ مُحَمَّد بن إبراهيم في جواب من سأل عن قول من قال: تجب الثَّقة بالنفس؟ قال: «لا تجبُ ولا تجوزُ الثَّقة بالنفس، في الحديث: «فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»...»^(٣).

وقوله: «وَلَمْ تُضْمِ»؛ أي لا يلحقك ظلم ولا هضم، و«الضَّيم»: الظُّلم، يقال: قد ضِمتُ، أي ظلمت.

□ قال النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٢- بِالشَّرْعِ زِنْ كُلَّ أَمْرٍ مَا هَمَمْتَ بِهِ فَإِنْ بَدَأَ صَالِحًا أَقْدِمْ وَلَا تَجِم

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «بِالشَّرْعِ زِنْ كُلَّ أَمْرٍ مَا هَمَمْتَ بِهِ»؛ أي إذا أردت أن تُقَدِّمَ على عملٍ من الأعمال؛ فأوَّل ما تبدأ به هو أن تزن هذا الأمر بالشَّرْع، تعرضه

(١) انظر: «مدارج السَّالِكِينَ» لابن القَيِّم (٢/ ١٤٣).

(٢) رواه أبو داود رقم (٥٠٩٠)، والإمام أحمد رقم (٢٠٤٣٠)، وابن حَبَّان رقم (٩٧٠) وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٢).

(٣) «فتاوى ورسائل الشَّيْخ مُحَمَّد بن إبراهيم» (١/ ١٧٠)، وانظر: «معجم المناهي اللَّفْظِيَّة» للشَّيْخ بكر أبو زيد (ص ١٨٥).

على الأدلة والنصوص - كتاب الله وسنة نبيه ﷺ -، فإذا كان قد دلَّ عليه الشرع
افعله، وإن كان خلاف الشرع فاتركه.

وقوله: «ولا تحم»: جاء في «اللسان»: وَجَمَ يَحْمُ وَجَمًا وَوُجُومًا، و«الوجوم»:
السُّكُوتُ على غَيْظٍ، و«الواجم» الذي اشتدَّ حُزنُه حتَّى أَمْسَكَ عن الكلام^(١)،
ولعلَّ المعنى في قول الناظم: «ولا تحم»؛ أي أقدم وافعل، ولا تسكت وتتوقف.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٣- أَخْلِصْهُ وَاصْدُقْ أَصْبَ وَاهْضَمْ فِذِي شُرِطْتُ فِي صَالِحِ السَّعْيِ أَوْ فِي طَيِّبِ الْكَلِمِ
٢٢٤- أَخْلِصْهُ لِلَّهِ وَاصْدُقْ عَازِمًا وَأَصْبَ صِرَاطَهُ وَاهْضَمْ النَّفْسَ تَنْهَضِمِ

ذكر في هذين البيتين أمورًا أربعة، في البيت الأوَّل ذكرها، وفي البيت
الثَّاني شرحها وبيَّنْها، وهي: الإخلاص والصدق والإصابة - إصابة السُّنة -،
وهضم النَّفس، يقول هذه الأمور الزَّمَّها وحافظٌ عليها؛ فإنَّها مطلوبة منك في
أعمالك الصَّالحة، ومطلوبة منك في أقوالك الطَّيِّبة، فكلُّ عمل صالح تقوم به
وكلُّ قول طيِّب تقوله؛ حافظ فيه على هذه الأمور الأربعة؛ ليكن خالصًا،
ولتكن فيه صادقًا، وليكن للسُّنة موافقًا، مع رؤية التَّقْصِيرِ.

ثمَّ شرح هذه الأمور الأربعة فقال: «أَخْلِصْهُ لِلَّهِ»؛ أي اجعله خالصًا
لله، و«الخالص» الصَّافي النَّقي، الَّذي لم يُرد به إلَّا وجه الله، كما قال الله ﷻ:
﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ

(١) «اللسان» (١٦/١١٥).

لَهُ الَّذِينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ [البينة: ٥].

«واصدق عازماً»: «الصدق»: توحيد الإرادة، و«الإخلاص» توحيد المراد
كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «النونية»:

فلواحد كن واحداً في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

ف«الإخلاص» أن لا تريد بالعمل إلا الله، و«الصدق» توحيد الإرادة؛
بأن تجمع قلبك وعزمك، مثل ما قال النّازم: «واصدق عازماً».

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ليس للعبد شيءٌ أنفعَ من صدقه ربّه في جميع
أموره مع صدق العزيمة، فيصدقّه في عزمه وفي فعله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ
الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، فسعادته في صدق العزيمة
وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون
عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم، فإذا صدقت عزمته بقي عليه صدق الفعل:
وهو است فراغ الوسع، وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه شيء من ظاهره
وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمّة، وصدق الفعل يمنعه
من الكسل والفُتور، ومن صدق الله في جميع أموره؛ صنع الله له فوق ما يصنع
لغيره، وهذا الصدق معنى يلتزم من صحّة الإخلاص وصدق التوكّل،
فأصدق الناس من صحّ إخلاصه وتوكّله» (١).

وقوله: «أصَبَ صِرَاطُهُ»؛ أي لتكن أفعالك على الصّواب، قال الفضيل

(١) «الفوائد» (١/ ١٨٦).

ابن عياض في معنى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: «أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتّى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله، والصّواب إذا كان على السّنة»^(١).

وقوله: «واهُضَمَنَّ النَّفْسَ تَنْهَضُمَ»: أي لا تعجب بنفسك، مهما تقدّم من الأعمال والطّاعات، ومهما ظهر لك أنّك حقّقت فيها من الإخلاص والصدق، بل اهضم نفسك واتهمها بالتقصير، وإلّا فإنّ الإنسان يُصاب بالعُجب والغرور، فتكون أعماله قليلة ومقصر فيها، وفي الوقت نفسه يكون معجبًا بنفسه وبعمله، يوضّح ذلك رَحِمَهُ اللهُ بقوله:

٢٢٥- لا تُعْجِبَنَّ بِهِ يُحْبِطُ وَلَا تَرَهُ فِي جَانِبِ الذَّنْبِ وَالتَّقْصِيرِ وَالتَّعَمُّ

فقوله: «لا تعجبَنَّ به»؛ أي بعملك مهما قدّمت من أعمال: من صلاة وصيام، وطلبٍ للعلم، وحفظٍ للقرآن وغير ذلك من الأعمال الصّالحة فلا تعجبَنَّ بها، وقد تقدّم تحذير الناظم رَحِمَهُ اللهُ من العُجب وأنه يجترِفُ الأعمال.

وقوله: «يُحْبِطُ»؛ لأنّ العجب يجترِفُ الأعمال ويبطلها ويحبطها.

قوله: «ولا تَرَهُ فِي جَانِبِ الذَّنْبِ وَالتَّقْصِيرِ وَالتَّعَمُّ»؛ أي لا تَرَهُ شَيْئًا فِي جَانِبِ الذَّنْبِ، فإذا أعجبك عملٌ من الأعمال الصّالحة الّتي قمت بها تذكر ذنوبك الّتي اقترفتها هذا أوّلًا.

(١) «حلية الأولياء» (٨ / ٩٥).

ثانيًا: تذكر أنك مقصّر حتى في هذا العمل الذي أنت معجب به؛ لأنك مهما حاولت أن تكمل العمل وتتمه لا تسلم من التقصير.

ثالثًا: تذكر أن نعم الله ﷻ عليك لا تعد ولا تحصى، ومنها أعمالك الصالحة فهي منة من الله وتوفيق.

يوضح ذلك ما جاء في «الصحيحين»^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ»، فهو صلوات الله وسلامه عليه أخشى الناس وأكملهم عبودية له ﷻ يقول هذا، فكيف بغيره؟! فإذا تفكر في مثل هذه المعاني التي أشار إليها الناظم؛ يذهب عنه العجب بإذن الله ﷻ.

قال العلامة ابن القيم رحمته الله: «ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير، بل التفريط والأمن، فهذا الصديق يقول: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن» ذكره أحمد عنه، وذكر عنه - أيضًا - أنه كان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد»، وكان يبكي كثيرًا ويقول: «ابكوا؛ فإن لم تبكوا فتباكوا»، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل، وأتي بطائر يقلبه ثم قال: «ما صيد من صيد، ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح»، ولما احتضر قال لعائشة: «يا بنية! إنني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد،

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٦٣)، ومسلم برقم (٢٨١٦).

فأسرعي به إلى ابن الخطّاب»، وقال: «والله لوددت أنّي كنت هذه الشجرة تؤكل وتعصد»^(١).

فقدان الآن من يتأمّل في حال الصّحابة رضي الله عنهم يجدهم أصحاب أعمال مكملّة وطاعات متمّمة، وفي الوقت نفسه خائفون، ونحن مقصّرون ومفترّطون وفي الوقت نفسه آمنون، وفي هذا المعنى يقول الحسن البصري رحمته الله: «إنّ المؤمن جمع إحساناً وشفقةً، وإنّ المنافق جمع إساءةً وأمناً»^(٢).

وقال ابن القيم أيضاً: «رضاء العبد بطاعته دليلٌ على حسن ظنّه بنفسه وجهله بحقوق العبوديّة، وعدم عمله بما يستحقّه الرّبّ - جلّ جلاله - ويليق أن يعامل به، وحاصل ذلك أنّ جهله بنفسه وصفاتها وآفاتا وعيوب عمله وجهله برّبّه وحقوقه، وما ينبغي أن يُعامل به يتولّد منها رضاه بطاعته وإحسان ظنّه بها، ويتولّد من ذلك من العُجب والكِبَر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظّاهرة من الزّنا وشرب الخمر والفرار من الزّحف ونحوها، فالرّضا بالطّاعة من رعونات النّفس وحماتها، وأرباب العزائم والبصائر أشدّ ما يكونون استغفاراً من عُقيب الطّاعات لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه»^(٣) اهـ والله المستعان.

(١) «الدّاء والدّواء» (٩٣) / ط: عالم الفوائد.

(٢) «تفسير الطّبري» (١٩ / ٤٥).

(٣) «مدارج السّالكين» (١ / ١٧٥).

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٦- وحيثُ كانَ مِنَ التَّهْيِ اجْتَنِبْهُ وَإِنْ زَلَلْتَ تُبْ مِنْهُ وَاسْتَغْفِرْ مَعَ التَّدَمِّ

قوله: «وحيثُ كانَ مِنَ التَّهْيِ اجْتَنِبْهُ»؛ أي إذا كان الأمر الذي تقبل عليه نفسك ممّا نهى الله عنه؛ فاجتنبه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَرًا لِلْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿إِنْ يَحْتَبُوا كِبَارًا مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»^(١).

وقوله: «وإنْ زَلَلْتَ تُبْ مِنْهُ وَاسْتَغْفِرْ مَعَ التَّدَمِّ»؛ أي إن زَلَّتْ بك القدم، وفعلت الشيء الذي نهى الله عنه؛ فبادر إلى التَّوْبَةِ والرُّجُوعِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والتَّوْبَةُ تكون بترك الشيء الذي نهى الله عنه، والنَّدَمُ على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، وقل: أَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، مع النَّدَمِ على مقارَفَتِكَ لهذا الذَّنْبِ الذي نهاكَ الله عنه.

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٧- وَأَوْقِفِ النَّفْسَ عِنْدَ الْأَمْرِ هَلْ فَعَلْتَ وَالتَّهْيِ هَلْ نَزَعْتَ عَنْ مَوْجِبِ النَّقَمِ

هنا يتحدث النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ عن محاسبة النفس، أي حاسب نفسك في باب الأوامر وباب النّواهي، في باب الأوامر؛ اعرض الأوامر التي وردت في الكتاب

(١) رواه البخاري برقم (٢٦١٥)، ومسلم برقم (٨٩).

والسُّنَّةُ على نفسك، هل فعلت هذه الأوامر أم لم تفعلها؟
وفي باب النِّوَاهِي؛ أَوْقِفْ النَّفْسَ عند النَّهْيِ، هل تركت وابتعدت عن
الأمور التي نهى الله عنها والتي توجب العقوبة والغضب والسَّخَطَ من الله ﷻ.
قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ
قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا؛ فَإِنَّهُ
أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًّا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ، وَتُزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ
الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»، وذكر -أيضًا- عن الحسن قال:
«لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: ماذا أردتَ عملين؟ وماذا أردتَ تأكلين؟
وماذا أردتَ تشرين؟ والفاجر يمضي قُدُمًا لا يحاسب نفسه».

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]: «أضاع نفسه
وغبن مع ذلك تراه حافظًا لماله، مضيعًا لدينه».
وقال الحسن: «إنَّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت
المحاسبة من همته».

وقال ميمون بن مهران: «لا يكون العبد تقيًّا حتَّى يكون لنفسه أشدَّ
محاسبةً من الشريك لشريكه، ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوَّان، إن لم تحاسبه
ذهب بهالك»^(١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ومحاسبة النفس نوعان: نوعٌ قبل العمل، ونوعٌ بعده، فأما
النَّوعُ الأوَّل: فهو أن يقف عند أوَّل همٍّ وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتَّى يتبيَّن

(١) «إغاثة اللُّهفان» (١ / ٧٨ - ٧٩).

له رجحانه على تركه.

قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هِمِّهِ، فَإِنْ كَانَ اللهُ مُضِيًّا، وَإِنْ كَانَ لغيره تَأَخَّرَ».

وَأَمَّا المحاسبة بعد العمل، فهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حقِّ الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحقُّ الله تعالى في الطَّاعة ستّة أمور - تقدّمت -، وهي: الإخلاص في العمل، والنّصيحة لله فيه، ومتابعة الرّسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منّة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كلّ.

فيحاسب نفسه: هل وقّى هذه المقامات حقّها؟ وهل أتى بها في هذه الطّاعة؟

الثّاني: أن يحاسب نفسه على كلّ عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثّالث: أن يحاسب نفسه على أمرٍ مباح أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدّار الآخرة فيكون رابحًا؟ أو أراد به الدُّنيا وعاجلها فيخسر ذلك الرّبح ويفوته الظّفر به؟» (١).

□ قال النّازم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٨- فَإِنْ زَكَّتَ فَاحْمَدِ الْمَوْلَى مُطَهَّرَهَا وَنِعْمَةَ اللهِ بِالشُّكْرِانِ فَاسْتَدِمِ

قوله: «إِذَا زَكَّتَ فَاحْمَدِ الْمَوْلَى مُطَهَّرَهَا»: أَيِ إِنْ زَكَّتَ نَفْسُكَ بِالتَّحَلِّيِّ

(١) المصدر السّابق (١ / ٨١ - ٨٢).

بالفضائل والتَّحْلِي عن الرِّذَائِل، فاحمد الله؛ لِأَنَّهُ ﷻ أَكْرَمَكَ وَتَفَضَّلَ عَلَيْكَ، فَمَنْ عَلَيْهَا بِالطَّهَّارَةِ وَالزَّكَاةِ وَالنَّقَاءِ وَالصَّفَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُرِيكُم مِّنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرِيكُم مِّنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]، وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا»^(١).

وَلَعَلَّ النَّازِمَ رَحِمَهُ اللَّهُ اخْتَارَ اسْمَ «المولى» هُنَا مُوَافَقَةً لِهَذَا الدُّعَاءِ، وَفُوزَ الْعَبْدَ بِهَذَا الْمَطْلَبِ مِنْ وَلايَةِ اللَّهِ الْخَاصَّةِ لَهُ.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَنِعْمَةَ اللَّهِ بِالشُّكْرِانِ فَاسْتَدِمَ»؛ أَيِ كُنْ دَائِمًا شَاكِرًا لِلَّهِ ﷻ عَلَى نِعْمِهِ، قَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدَيْكَ﴾ [النمل: ١٩].

فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «اسْتَدِمَ»؛ أَيِ دَاوَمَ شُكْرَ اللَّهِ ﷻ عَلَى نِعْمِهِ، وَأَعْظَمَ النِّعَمِ: الْهُدَايَةَ إِلَى الدِّينِ، وَالتَّوْفِيقَ لَزَكَاةِ الْقَلْبِ، وَصَلَاحِ النَّفْسِ، وَالِاسْتِقَامَةَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، فَبِمُلَازِمَةِ الشُّكْرِ تَدْوِمُ النِّعْمَةَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فَالشُّكْرُ مَعَهُ الْمَزِيدُ أَبَدًا؛ وَلِهَذَا قِيلَ: فَمَتَى لَمْ تَرَ حَالَكَ فِي مَزِيدٍ فَاسْتَقْبِلِ الشُّكْرَ.

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِرَقْمِ (٢٧٢٢).

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٩- وإنَّ عَصَتْ فاعصِها واعلمْ عداوتها وحذرنها ورود المورِدِ الوخِمِ

قوله: «وإنَّ عَصَتْ فاعصِها»؛ أي إنَّ أبْتَ نفسُك إلَّا العصيان فأب لها أنت - أيضًا - إلَّا العصيان، ولا تطعها؛ لأنَّها تهلكك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

وقوله: «وحذرنها ورود المورِدِ الوخِمِ»؛ أي حذرها من النّعمة ومن السّخط ومن العقوبة حتّى تطاوع وتلين وتجنب المعاصي وتستكين، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وقوله: «الوخِمِ»: قال ابن منظور: «الوخِم بالتّسكين، والوخِم بكسر الخاء، والوخِم: الثّقل من الرّجال... وقد تكونُ الوخامةُ في المعاني، يقال: هذا الأمرُ ووخِمُ العاقبة، أي ثقلُ رديء»^(١).

وعلى هذا؛ فالمعنى ظاهرٌ في قوله: «ورود المورِدِ الوخِمِ»؛ أي المورد الرّديء والعاقبة السيّئة.

(١) «لسان العرب» (١٢/ ٦٣١).

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٠- وانْظُرْ مَخَازِي^(١) الْمُسِيئِينَ الَّتِي أُخِذُوا بِهَا وَحَازِرْ ذُنُوبًا مِنْ عِقَابِهِمْ

أي مَّا يَعِينُكَ عَلَى صَدِّ النَّفْسِ وَمَنْعِهَا عَنِ الْآثَامِ وَالْوُقُوعِ فِي الْفَوَاحِشِ
النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ الْمَخْزِيَةِ وَالنِّهَايَاتِ الْمُؤَلَّةِ الَّتِي بَاءَ بِهَا الْمُسِيئُونَ؛ فَفِيهَا عِبْرَةٌ
وَعِظَةٌ، وَالسَّعِيدُ مَنْ اتَّعَظَ بغيره، وَالشَّقِيُّ مَنْ اتَّعَظَ بِهِ غَيْرُهُ.

فانظر إلى مخازي العُصاة الَّتِي حَقَّتْ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ الَّتِي
اقترفوها، وَتَجَنَّبِ الذُّنُوبَ الَّتِي تُفْضِي بِكَ إِلَى نَظِيرِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي عَوقبوا بِهَا.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣١- وَالزَّمْ صِفَاتِ أُولِي التَّقْوَى الَّذِينَ بِهَا عَلَيَهُمُ اللهُ أَثْنَى وَاقْتَدِهِ بِهِمْ

أي حَافِظِ عَلَى صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللهَ ﷻ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ،
وَالسِّرِّ وَالْعِلَاقَةِ، وَتَقْوَى اللهَ جَلَّ وَعَلَا هِيَ: «الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنْ اللهِ،
رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ، وَتَرْكُ مَعْصِيَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنْ اللهِ خِيفَةَ عَذَابِ اللهِ»، وَقَدْ جَاءَ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ ثَنَاءٌ عَلَى الْمُتَّقِينَ وَمَدْحٌ لَهُمْ، وَبَيَانٌ لثَوَابِهِمْ
عِنْدَ اللهِ ﷻ، وَلِهَذَا قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «الَّذِينَ بِهَا عَلَيَهُمُ اللهُ أَثْنَى»؛ أَيِ الَّذِينَ أَثْنَى اللهُ
ﷻ عَلَيْهِمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

وقوله: «صِفَاتِ أُولِي التَّقْوَى»؛ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّقْوَى لَيْسَتْ مَجْرَدُ دَعْوَى

(١) بِإِسْكَانِ الْيَاءِ مِرَاعَاةً لِلْوِزْنِ الْعَرُوضِيِّ.

يَدْعِيهَا الْإِنْسَانُ، بَلْ هُنَاكَ صِفَاتٌ مِنْ أَتَّصَفُ بِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى حَقًّا وَصَدَقًا،
وَقَدْ جَاءَ بَيَانُ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ: «وَأَقْتَدِهِ بِهِمْ»؛ أَيِ كُنْ مُقْتَدِيًا بِهِمْ لَاءً، كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُولَئِكَ
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُهَدْيُهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وَهَذَا الْبَيْتُ يَنْبَغِي فِيهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فَائِدَةِ تَرْبُويَةٍ فِي تَرْوِيضِ النَّفْسِ عَلَى أَفْعَالِ
الْخَيْرِ وَأَبْوَابِ التَّقْوَى، أَلَا وَهِيَ أَنَّ هَذَا الْمَقَامَ يَحْتَاجُ مِنَ الْعَبْدِ إِلَى النَّظَرِ فِي سِيرِ
الْأَخْيَارِ، وَصِفَاتِ الْمُتَّقِينَ الْأَبْرَارِ حَتَّى يَتَأَثَّرَ بِهِمْ، وَيَأْتِسِي بِسُلُوكِهِمْ.

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٣٢- وَأَقْنُتُ وَبَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ قُمْ أَبَدًا تَخْشَى الذُّنُوبَ وَتَرْجُو عَفْوَ ذِي الْكَرَمِ

قَوْلُهُ: «وَأَقْنُتُ»؛ الْمُرَادُ بِ«الْقُنُوتِ»: مَدَاوِمَةُ الطَّاعَةِ وَمُلَازِمَةُ الْعِبَادَةِ، قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَمْرِمُ أَقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرُّكْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ٤٣]، قَالَ
جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وَقَوْلُهُ: «بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ»؛ أَيِ: كُنْ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، تَفْعَلِ الطَّاعَةَ
وَأَنْتَ تَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - وَتَخَافُ عَذَابَهُ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾
[الإسراء: ٥٧]، وَالرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ رَكْنَانِ لَا بَدَّ مِنْهُمَا فِي كُلِّ عِبَادَةٍ يَتَقَرَّبُ الْعَبْدُ
بِهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ بِأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ رَاجِيًا رَحْمَتَهُ، خَائِفًا مِنْ عَذَابِهِ ﷻ.

وَقَوْلُهُ: «قُمْ أَبَدًا»؛ هَذَا لِبَيَانِ أَنَّ الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ لَا بَدَّ مِنْهُمَا فِي كُلِّ عِبَادَةٍ

يتقرب بها العبد إلى الله في كل وقت وحين.

قوله: «تخشى الذُّنُوبَ وترجو عَفْوَ ذِي الْكَرَمِ»؛ هذا معنى قوله بين الخوف والرجاء؛ تخشى الذُّنُوبَ وعواقبها وغوائلها، وفي الوقت نفسه ترجو غفران الله ﷻ ورحمته وعفوه: كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

□ قال الناظم رحمه الله:

٢٣٣- فالخوف ما أورث التقوى وحث على مرضاة ربي وهجر الإثم والآثم

«ما» هنا: اسم موصول بمعنى الذي، يبين أن الخوف الشرعي المطلوب من المسلم هو الذي يورث تقوى الله ﷻ، وخشيته في الغيب والشهادة، ويحث على نيل مرضاته سبحانه، ويحجز العبد عن المعاصي ويباعده عن الذُّنُوب والآثام وعن مخالطة أهلها.

□ قال الناظم رحمه الله:

٢٣٤- كذا الرجا ما على هذا يحث لتص - ديق بموعد ربي بالجزا العظيم

أي: وكذلك الرجاء المشروع المأمور به هو الذي يحث على تقوى الله وعلى فعل ما يرضيه، والبعد عن المعاصي والذُّنُوب، والإشارة بقوله «هذا» إلى ما تقدّم في البيت الذي قبله؛ وهو تقوى الله والحث على مرضاته وهجر الذُّنُوب.

وقوله: «لتصديق بموعد ربي بالجزا العظيم»؛ أي أن ضابط الخوف والرجاء المطلوب من المسلم كونه مصدقًا بالجزاء العظيم والثواب الجزيل الذي أعدّه

الله ﷻ لعباده المتقين، لكن إن خرج المسلم بالخوف عن حده أو خرج بالرجاء عن حده انعكس الأمر، ولهذا ينبه الشيخ ويحذر من ذلك في البيت الذي يليه، فيقول:

٢٣٥- وَالْخَوْفُ إِنْ زَادَ أَفْضَى لِلْقُنُوطِ كَمَا يُفْضِي الرَّجَاءُ لِلْأَمْنِ الْمَكْرِ وَالنَّقَمِ

أي إن الخوف إن زاد على حده أدى بالعبد إلى القنوط من رحمة الله سبحانه: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وكذلك الشأن في الرجاء؛ إن زاد على حده أفضى للأمن من مكر الله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولهذا يقول أهل العلم: لا بد أن يأتي العبد بالرجاء والخوف معاً؛ حتى يمضي في عبادته باتزان؛ لأنه إن غلب الخوف قنط، وإن غلب الرجاء أمن، وكل من القنوط والأمن من كبائر الذنوب، فوجب على العبد أن يجمع في طاعاته وعباداته بين الرجاء والخوف؛ يرجو رحمة الله ويخاف عذابه ﷻ.

□ ولذلك قال رحمه الله:

٢٣٦- فَلَا تُفْرِطْ وَلَا تُفْرِطْ وَكُنْ وَسْطًا وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فَاسْتَقِم

قوله: «فلا تُفْرِطْ وَلَا تُفْرِطْ وَكُنْ وَسْطًا» الأولى بتشديد الراء من التفريط وهو التقصير، والثانية بكسرهما من الإفراط وهو مجاوزة الحد في الأمر^(١)؛ أي

(١) راجع «مقاييس اللغة» (٤/ ٤٩٠).

عليك - أيها العبد - أن تكون بينهما بتوسط واعتدال، دون إفراط أو تفريط،
أي: دون زيادة ودون نقصان.

وخيار الأمور أوساطها، لا تفريطها ولا إفراطها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ
جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وإذا سألت ما الوسطية - سواء في هذا الباب أو في غيره من أبواب
الشَّرع؟ - يأتيك الجواب المسدّد على ذلك بقول الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

«وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فَاسْتَقِمَّ»؛ هذه الوسطية: أن تستقيم مثل ما أمرك
الرَّحْمَنُ، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [هود: ١١٢]، فإذا فعلت هذا؛ كنت
متوسطًا، فإن زدت فهذا إفراطٌ، وإن قصّرت فهذا تفريطٌ، وخيار الأمور
أوساطها.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٧- سَدِّدْ وَقَارِبْ وَأَبْشِرْ وَاسْتَعِنْ بِعُدُوِّ وَبِالرَّوَّاحِ وَأَذِلِّجْ قَاصِدًا وَدُم

جمع رَحِمَهُ اللهُ في هذا البيت جملةً من الوصايا العظيمة، وهي وصايا جمعها
النَّبِيُّ ﷺ في حديث واحد، وهو حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ
قال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدُ الْقَصْدُ
تَبَلُّغُوا»، متفق عليه^(١)؛ واللفظ للبخاري، واختصره مسلم بلفظ: «قَارِبُوا

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٦٣) واللفظ له، ومسلم برقم (٢٨١٦).

وسَدُّوا» وزاد في رواية: «وَأَبْشُرُوا».

فالشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ جَمَعَ هَذِهِ الْوَصَايَا الثَّابِتَةَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ .
وقوله: «سَدَّد»؛ المراد بـ«السَّدَاد»: الْإِتْيَانُ بِالْعَمَلِ مُوَافِقًا لِلسُّنَّةِ، مُطَابِقًا
لهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ .

وقوله: «وقارب»؛ «المقاربة» أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ قَرِيبًا مِنَ السُّنَّةِ، يَعْنِي إِنْ
لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ يَكُونَ عَمَلُكَ مُطَابِقًا؛ فَاجْتَهِدْ أَنْ يَكُونَ عَمَلُكَ مُقَارِبًا لِلسُّنَّةِ،
وَكُلٌّ مِنَ الْمَسَدِّدِ وَالْمُقَارِبِ لَهُ الْبَشَارَةُ، كَمَا قَالَ ﷺ: «وَأَبْشُرُوا» وَلَمْ يَذْكُرِ الْمُتَعَلِّقُ؛
لِيَعْمَ ذَلِكَ كُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحِظُّ أَهْلِ السَّدَادِ مِنْ هَذِهِ الْبَشَارَةِ أَعْظَمُ.
وَيُوضِّحُ مَعْنَى السَّدَادِ وَالْمُقَارِبَةِ الرَّمْيُ بِالسَّهْمِ لِهَدَفٍ مُعَيَّنٍ، فَالَّذِي
يَصِيبُ سَهْمُهُ الْهَدَفَ يَكُونُ قَدْ سَدَّدَ، وَالَّذِي يَقَعُ سَهْمُهُ قَرِيبًا مِنْهُ يَكُونُ قَدْ
قَارَبَ، أَمَّا الَّذِي لَا يَرْمِي السَّهْمَ أَصْلًا أَوْ يَذْهَبُ وَيَرْمِيهِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى،
فَهَذَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ السَّدَادِ وَلَا الْمُقَارِبَةِ.

وقوله: «اسْتَعِينْ بِغُدُوِّ وَبِالرَّوَّاحِ»؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «وَأَغْدُوا وَرَوْحُوا»،
و«الغدوُّ» هُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ، وَ«الرَّوَّاحُ» هُوَ آخِرُ النَّهَارِ، وَهَذَا فِيهِ فَضْلٌ هَذَيْنِ
الْوَقْتَيْنِ، وَأَهْمِيَّةُ الْعَنَاءِ فِيهِمَا بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ، وَفَعَلَ الطَّاعَاتِ.

وقوله: «وَأَدْجِجْ»؛ «الدُّجْجَةُ»: السَّيْرُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَوْقَاتٍ فَاضِلَةٌ
نَصَّ عَلَيْهَا فِي الْحَدِيثِ: «وَأَغْدُوا وَرَوْحُوا وَشَيْءٌ مِنَ الدُّجْجَةِ».

وقوله: «قاصدًا»؛ هَذَا أَخَذَهُ مِنَ الْحَدِيثِ نَفْسَهُ: «وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا»،
و«القصد» هُوَ التَّوَسُّطُ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ وَالْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، كَمَا فِي وَصِيَّةِ لُقْمَانَ

لابنه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]؛ أي ليكن مشيك وسطاً بين السريع الطائش وبين البطيء المتماوت.

وقوله: «وَدُم»؛ أي داوم على هذه الوصايا العظيمة إلى الممات.

وللحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ مؤلف خاص، شَرَحَ فيه هذا الحديث سَمَاهُ: «المَحَجَّةُ فِي سِيرِ الدُّلَّةِ» وهو مطبوع، وقد شرح - أيضاً - هذا الحديث شرحاً موجزاً في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري»^(١)، فقال:

«وقوله ﷺ: «سَدُّوْا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا»؛ «التَّسْدِيدُ» هو إصابة الغرض المقصود، وأصله من تسديد السهم؛ إذا أصاب الغرض المرمى إليه ولم يخطئه، و«المقاربة»: أن يقارب الغرض، وإن لم يصبه؛ لكن يكون مجتهداً على الإصابة، فيصيب تارةً ويقارب تارةً أخرى، أو تكون المقاربة لمن عجز عن الإصابة كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(٢).

وفي «المسند»^(٣) و«سنن أبي داود»^(٤)، عن الحَكَمِ بْنِ حَزْنٍ الْكَلْفِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمَنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا - أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا - كُلَّ مَا أَمَرْتُكُمْ؛ وَلَكِنْ سَدُّوْا وَأَبْشُرُوا».

(١) (١ / ١٣٧ - ١٣٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٨٥٨)، ومسلم برقم (١٣٣٧).

(٣) برقم (١٧٨٥٦).

(٤) برقم (١٠٩٦).

وقيل: أراد بالتَّسديد: العمل بالسَّداد - وهو القصد والتَّوسُّط في العبادة - فلا يقصِّر فيما أمر به، ولا يتحمَّل منها ما لا يطيقه، قال النُّصر ابن شميل: «السَّداد: القصد في الدِّين والسَّبيل، وكذلك المقاربة المراد بهما: التَّوسُّط بين التَّفريط والإفراط، فهما كلمتان بمعنى واحد».

وقيل: بل المراد بـ«التَّسديد»: التَّوسُّط في الطَّاعات بالنِّسبة إلى الواجبات والمندوبات، وبـ«المقاربة»: الاقتصار على الواجبات، وقيل فيهما غير ذلك. وقوله: «أبشروا» يعني: أن مَنْ قَصَدَ المراد فليشِرْ، وخرَّج البخاريُّ في موضع آخر من «صحيحه»^(١) من حديث عائشة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا».

وقوله: «وَأَسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»؛ يعني أن هذه الأوقات الثلاثة أوقات العمل والسَّير إلى الله، وهي أوَّل النَّهَارِ وآخره، وآخر الليل، فـ«الغدوة»: أوَّل النَّهَارِ، و«الرَّوْحَةُ» آخره، و«الدُّلْجَةُ»: سير آخر الليل اهـ.

□ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٨- فَمِثْلُ مَا خَانَتِ الْكُسْلَانَ هِمَّتُهُ فَطَالَ مَا حُرِمَ الْمُنْبَتُّ بِالسَّامِ

هذان شخصان يحذر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من مسلكهما:

الشَّخْصُ الْأَوَّلُ: الشَّخْصُ الْمَصَابُ بِالْكُسْلِ الَّذِي ثَبَّطَهُ كُسْلُهُ عَنِ النَّشَاطِ وَالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ فِي الْخَيْرَاتِ وَفِي الْأُمُورِ الَّتِي تَوْصِلُهُ إِلَى الْمَعَالِي، فَالْكُسْلَانِ

(١) برقم (٦١٠٢).

هَمَّتْهُ فَاتَرَةً تَحُونُهُ عِنْدَمَا يَرَى الْخَيْرَاتِ، وَيَشَاهِدُ أَبْوَابَ الْمَعَالِي فَلَا يَفْعَلُ.
وَالشَّخْصُ الْآخَرُ: الشَّخْصُ الْمَلُولُ، الَّذِي يُقْبَلُ عَلَى الْعَمَلِ ثُمَّ سَرِعَانَ
مَا يَمْلُ فَيَنْقَطِعُ وَيَتْرَكَ الْعَمَلَ، وَفِي «الصَّحِيحِينَ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ
ﷺ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمْلُ حَتَّى
تَمْلُوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ»^(١)، وَفِي رَوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «فَوَاللَّهِ
لَا يَسَامُ اللَّهُ حَتَّى تَسَامُوا»^(٢).

وَقَوْلُهُ: «الْمُنْبَتُّ بِالسَّامِ»؛ «الْمُنْبَتُّ»: الْمُنْقَطِعُ فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ، قَالَ ابْنُ
مَنْظُورٍ فِي «اللِّسَانِ»^(٣): «بَتَّ الشَّيْءُ يَبِيتُّ وَيَبِيتُّ بَتًّا، وَأَبَتَّهُ: قَطَعَهُ قَطْعًا مُسْتَأْصِلًا،
وَالْأَنْبِتَاتُ: الْإِنْقِطَاعُ، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا انْقَطَعَ فِي سَفَرِهِ وَعَظِبَتْ رَاحِلَتُهُ: صَارَ
مُنْبَتًّا، وَمِنْهُ قَوْلُ مُطَرِّفٍ: «إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»؛ يَرِيدُ أَنَّهُ
بَقِيَ فِي طَرِيقِهِ عَاجِزًا عَنْ مَقْصِدِهِ، وَلَمْ يَقْضِ وَطَرَهُ، وَقَدْ أَعْطَبَ ظَهْرَهُ» اهـ.
أَيُّ الدَّابَّةِ الَّتِي يَرْكَبُهَا، فَهَذَا شَأْنُ الْمُنْقَطِعِ الْمُنْبَتِّ، لَمَّا انْقَطَعَتْ بِهِ دَابَّتُهُ فِي
الطَّرِيقِ وَلَمْ تَعُدْ تَمْشِي؛ بَدَأَ يَضْرِبُ ظَهْرَهَا يَرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَسِيرَ وَهِيَ وَاقِفَةٌ لَا
تَتَحَرَّكُ، فَلَا أَرْضًا قَطَعَ بِضَرْبِهِ لَهَا، وَلَمْ يَسْلَمْ ظَهْرُ دَابَّتِهِ.

وَقَوْلُهُ: «بِالسَّامِ»؛ مِنَ السَّامَةِ، وَهِيَ الْمَلَلُ وَالضُّجْرُ كَمَا فِي «اللِّسَانِ»^(٤).

(١) «صحيح البخاري» (٥٨٦١)، و«صحيح مسلم» (٧٨٢).

(٢) رقم (٧٨٥).

(٣) «لسان العرب» (٢/ ٣١٠ - ٣١١).

(٤) انظر (١٢/ ٢٨٠).

□ قال النّازم رحمه الله:

٢٣٩- ودُم على الباقيات الصّالحاتِ وحو قُل واسأل الله رِزْقاً حُسنَ مُحْتَمٍ

ثم قال: «ودُم على الباقيات الصّالحات»؛ أي داوم وحافظ عليها، قال الله تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّتُ الصّٰلِحٰتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، و«الباقيات» المراد بها أنواع الطّاعات وصنوف القربات، ويأتي في مقدّمة ذلك الكلمات الأربع التي هي أحبُّ الكلام إلى الله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»؛ فهذه أعظم الباقيات شأناً، وأرفعها مكاناً، وسُمّيت ب«الباقيات الصّالحات»؛ لأنّها يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها، ومعنى قوله سبحانه: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾؛ أي خير أمل يؤمّله العبد، وأفضل ثواب يرجوه، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ»، قلنا: يا رسول الله! من عدوّ قد حضر؟ قال: «لَا، جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصّٰلِحٰتُ»، رواه الحاكم وصحّحه^(١).

أي: خذوا ما دتم في الحياة الدّنيا واقياً لكم، يقيكم من النّار، وقوله: «مُنْجِيَاتٍ»؛ أي لصاحبهنّ من النّار، و«مُقَدِّمَاتٍ» أي: له إلى الجنّة.

وقول النّازم رحمه الله: «وَحَوْقُلْ»؛ «الحوقلة»: قول «لا حول ولا قوّة إلا بالله»، وقد جاء في السّنة الأمر بالإكثار من هذه الكلمة، وأنّها من كنز تحت

(١) «المستدرک» (١/ ٧٢٥).

العرش^(١)، و«الحوقلة» هي كلمة عظيمة، تتضمن طلب العون من الله؛ لأنَّ معناها: لا تحوّل من حال إلى حال، ولا حصول قوّة للعبد إلّا بالله ﷻ، فهي كلمة استعانة.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وذلك أنَّ هذه الكلمة كلمة استعانة، لا كلمة استرجاع، وكثيرٌ من النَّاس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع ويقولها جزعاً لا صبراً»^(٢).

ف«لا حول ولا قوّة إلّا بالله»؛ كلمة استعانة، يُؤتى بها بين يدي الطّاعات والعبادات، ويشهد لذلك قول النَّبي ﷺ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ، فَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟!»^(٣).

وكذلك حديث عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَالَ الْمُؤَدِّنُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ

(١) رواه أحمد من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (١٥٩/٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦٨٦/١٠).

(٣) رواه أبو داود برقم (٥٠٩٧)، والترمذي برقم (٣٤٢٦) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مَنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

فالعبد يحتاج إلى الإكثار من: «لا حول ولا قوة إلا بالله»؛ ليعان على العلم، وعلى العبادة، وعلى كل عمل صالح يقربه إلى الله ﷻ، وعلى عموم أعماله ومصالحه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الكلمة لها تأثيرٌ عجيبٌ في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق، والدخول على الملوك ومن يُخاف، وركوب الأهوال»^(٢).

وقوله: «وَأَسْأَلُ اللَّهَ رِزْقًا حَسَنًا مُحْتَمًّا»؛ أي أسأل الله - سبحانه - أن يرزقك حسن الخاتمة، وأن يثبتك على الدين، وكان من أكثر دعاء نبينا ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(٣).

□ قال النّازمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٠- واضرّع إلى الله في التّوفيق مُبْتَهلاً فهو المُجيبُ وأهلُ المنِّ والكرَمِ

قوله: «واضرّع إلى الله في التّوفيق مُبْتَهلاً»؛ أي ادعُ الله ﷻ متضرّعاً إليه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ

(١) رواه مسلم برقم (٣٨٥).

(٢) «الوابل الصيّب» (ص ١٥٧).

(٣) رواه أحمد (١١٢/٣)، والترمذي برقم (٢١٤٠) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

مِنَ الْغَفْلِينَ ﴿[الأعراف: ٢٠٥]، وملحاً عليه؛ طمعاً في نواله أن يوفّقك وأن يسدّدك. وقوله: «فهو المُجِيبُ وأهلُ المنِّ والكرَم»؛ أي أن الله ﷻ هو المجيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو - سبحانه - أهلُ المنِّ والكرَم، ومن أسماؤه جَلَّ وَعَلَا: «المنان» و«الكريم»؛ فألحَّ عليه بالسؤال.

□ ثُمَّ إِنَّ النَّازِمَ رَحِمَهُ اللهُ بَعْدَ أَنْ حَثَّ عَلَى الدُّعَاءِ خَتَمَ مَنْظُومَتَهُ بِبَعْضِ الْأَدْعِيَةِ الْعَظِيمَةِ فِي هَذَا الْبَابِ فَقَالَ:

٢٤١- يَا رَبَّ يَا حَيُّ يَا قِيَوْمُ مَغْفِرَةً لِّمَا جَنَيْتُ مِنَ الْعِصْيَانِ وَاللَّئِيمِ
«يا ربَّ يا حيُّ يا قِيَوْمُ مَغْفِرَةٍ»؛ أي اسأله المغفرة، وناده ﷻ بأسمائه الحسنَى؛ عملاً بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فناده بأسمائه: يا ربَّ، يا حيُّ، يا قِيَوْمُ مَغْفِرَةٍ أي أرجو منك مغفرةً للذنوب بسترها والعفو عنها، والصَّفْح والتَّجَاوُز.

وقوله: «لما جَنَيْتُ مِنَ الْعِصْيَانِ وَاللَّئِيمِ»؛ أي تجاوز عني فيما وقعت فيه من المعاصي، - وأيضاً - فيما وقعت فيه من اللَّئيم، و«اللَّئيم»؛ جاء ذكره في قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّئِيمَ﴾ [النجم: ٣٢]، قال ابن كثير في قوله: ﴿إِلَّا اللَّئِيمَ﴾: «وهذا استثناء منقطع؛ لأنَّ اللَّئيم من صغائر الذُّنُوب،

ومحقرات الأعمال؛ ثم أورد قول ابن عباس رضي الله عنهما في «الصَّحِيحِينَ» ^(١) أَنَّهُ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرِزْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانَ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ» ^(٢).

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٤٢- وَاْمُنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضِيكَ وَاَقْضِهِ لِي مِنْ اِعْتِقَادٍ وَمِنْ فِعْلٍ وَمِنْ كَلِمٍ

قوله: «وَاْمُنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضِيكَ وَاَقْضِهِ لِي»؛ أي: يَا رَبَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمَ وَفَّقْنِي لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ الَّتِي تَرْضَى بِهَا عَنِّي، وَاَقْضِهَا لِي كَوْنًا وَقَدْرًا، وَاكْتَبْنِي فِي عِدَادِ عِبَادِكَ الْمَطِيعِينَ الْمُنِيبِينَ الْمُخْبِتِينَ.

وقوله: «مِنْ اِعْتِقَادٍ وَمِنْ فِعْلٍ وَمِنْ كَلِمٍ»؛ هذا توضيح لقوله: «وَاْمُنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضِيكَ»؛ أي وَفَّقْنِي لِمَا يَرْضِيكَ مِنَ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ، وَمَا يَرْضِيكَ مِنَ الْأَفْعَالِ الزَّائِكَةِ وَالطَّاعَاتِ الْمُقَرَّبَةِ، وَمَا يَرْضِيكَ مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ.

□ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٤٣- وَأَعْلِ دِينَكَ وَأَنْصُرْ نَاصِرِيهِ كَمَا وَعَدْتَهُمْ رَبَّنَا فِي أَصْدَقِ الْكَلِمِ

يَسْأَلُ اللَّهُ ﷻ أَنْ يُعْلِيَ دِينَهُ، وَأَنْ يَنْصُرَ نَاصِرِي دِينِهِ، كَمَا وَعَدَهُمْ جَلَّ وَعَلَا فِي كِتَابِهِ.

(١) رواه البخاري برقم (٥٨٨٩)، ومسلم برقم (٢٦٥٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠).

وقد وعد الله تعالى بنصر من ينصر دينه، فقال - سبحانه - : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الرُّوم: ٤٧]، والله لا يخلف الميعاد.

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٤- واقصم ببأسك ربِّي حزب خاذله وردَّ كَيْدَ الأعادي في نُحُورِهِم

قوله: «واقصم ببأسك ربِّي حزب خاذله»؛ هنا يدعو على أعداء دين الله، فيقول: يا رب أنزل ببأسك عليهم، واقصم ظهورهم حتى لا ترتفع لهم راية ويكونوا عبرة لمن خلفهم وآية.

وقوله: «وردَّ كَيْدَ الأعادي في نُحُورِهِم»؛ أي من أراد بالإسلام والمسلمين كيداً؛ فردَّ كيده في نحره، وكان من دعاء نبينا ﷺ إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ»^(١).

□ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٥- واشدّد عليهم بزِلْزَالٍ ودمدمَةٍ كما فعلت بأهل الحِجْرِ في القِدَمِ

أي اشدّد وطأتك وعقوبتك على أعداء دينك وخاذليه، كما فعلت بأهل الحِجْرِ سابقاً، وهم قوم صالح الذين عقروا الناقة، والناظم رَحِمَهُ اللهُ يشير إلى ما جاء في سورة الشمس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

(١) رواه أبو داود برقم (١٥٣٧)، وأحمد (٤ / ٤١٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَحِمَهُ اللهُ.

قال الشيخ عبد الرحمن السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: دَمَّرَ عليهم وعمَّهم بعقابه، وأرسل عليهم الصَّيْحَةَ من فوقهم، والرَّجْفَةَ من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً»^(١)، ومعنى «دَمَدَمَ» أي أطبق عليهم العذاب.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٦- واجْعَلْهُمْ رَبَّنَا لِلْخَلْقِ مُوعِظَةً وَعِبرَةً يَا شَدِيدَ الْبَطْشِ وَالنَّعَمِ

أي اجعل أعداء دينك وخاذليه، موعظةً وعبرةً لمن يأتي بعدهم، يا الله، يا شديد النكال والبطش والعقوبة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

ثم ختم رَحِمَهُ اللهُ هذا النظم المبارك الطَّيِّب النَّافِع بالصَّلَاة على رسول الله ﷺ وآله وصحبه.

□ قال النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٧- ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمَعْصُومِ مِنْ خَطَأٍ مُحَمَّدٍ خَيْرُ رُسُلِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
٢٤٨- وَالْآلِ وَالصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ لَهُمْ وَتَمَّ نَظْمِي بِحَمْدِ اللَّهِ ذِي النِّعَمِ

بهذين البيتين ختم رَحِمَهُ اللهُ هذا النظم كما بدأه بحمد الله والصَّلَاة على رسوله ﷺ وآله وأصحابه والتَّابِعِينَ لَهُمْ بإحسان.

وبهذا ينتهي التعليق على هذا النظم المبارك النَّافِع الماتع، والحمد لله الَّذِي

(١) «تفسير السَّعْدِي» (٩٢٦).

بنعمته تتم الصالحات.

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى وَبِأَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَنْ يَنْفَعَنَا جَمِيعًا بِمَا عَلَّمَنَا وَأَنْ يَجْعَلَ مَا تَعَلَّمْنَاهُ حِجَّةً لَنَا لَا عَلَيْنَا، وَأَنْ يَهْدِيَنَا لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا هُوَ، وَأَنْ يَصْرِفَ عَنَّا سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِّئَهَا إِلَّا هُوَ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَأَنْ يَصْلِحَ لَنَا شَأْنُنَا كُلَّهُ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدِينَا وَلِمَشَايِخِنَا، وَلِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



فہرست

- تقریظ فضیلۃ الشیخ زید بن محمد بن ہادی المدخلی ۵
- المقدمة ۷
- نصُّ المنظومة ۱۰
- شرح المنظومة ۲۱
- معنی الحمد ۲۱
- معنی ذی الملك والملکوت ۲۲
- معنی «الواحد» و «الصمد» ۲۳
- معنی «البرّ» و «المہيمن» ۲۴
- العلم والبیان فضلٌ من اللہ علی الناس ۲۵
- معنی الصلّٰۃ علی النبی ﷺ ۲۶
- منزلة النبی ﷺ وفضل أمّہ ووجوہ خیریتہا ۲۷
- المراد بآل النبی ﷺ ۳۰
- فضل العلم والفقہ فی الدّین ۳۲
- المراد بالفقہ فی الدّین ۳۲
- حثُّ القرآن علی التّفقُّہ فی الدّین ۳۳
- امتنان اللہ علی الناس بالعلم ۳۴
- التّمیّز بالعلم حتّٰی بین الحیوانات ۳۶
- ذمُّ الجہل بالدّین ۳۶
- معنی الغیطة ومن یُغیط ۳۷

- ٣٨ - من صفات أهل الإيمان الحرص على العلم والنَّهْمَة في طلبه
- ٣٩ - العلم أعلى وأحلى في السَّمْع والنُّطْق
- ٣٩ - العلم أشرف مطلوب وطالبه أكرم مخلوق
- ٤٠ - طلب العلم عبادة يشترط فيها الإخلاص
- ٤١ - العلم نور وحياة للقلوب، ومكانة العلماء
- ٤٢ - ظلمة الجهل
- ٤٤ - الحياة الحقيقيَّة بالعلم
- ٤٥ - الجهل أصل الضَّلال والشَّقَاء، والعلم أصل الهدى والسَّعادة
- ٤٧ - من ثمار الجهل الخوف والحزن
- ٤٨ - العلم ميراث النُّبُوَّة
- ٥١ - العلم ميزان الشَّرْع
- ٥٢ - السُّلطان في القرآن هو العلم والحجَّة
- ٥٤ - سلطة العلم أعظم من سلطة اليد
- ٥٥ - ذهاب الدُّنيا والدِّين بذهاب العلم
- ٥٧ - استغفار أهل السَّموات والأرض والحيتان للعالم
- ٥٩ - الخارج في طلب العلم بمنزلة المجاهد في سبيل الله
- ٦١ - الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم
- ٦٢ - السَّالِك لطريق العلم سائر في طريق الجنَّة
- ٦٣ - دعاء النَّبِيِّ ﷺ بالنَّصارة لسامع الحديث ومبلِّغه
- ٦٥ - رفعة درجات الذين أوتوا العلم
- ٦٥ - تفضيل آدم عليه السَّلام على الملائكة بالعلم
- ٦٦ - تفضيل يوسف عليه السَّلام على غيره بالعلم والحِكم
- ٦٧ - رحلة موسى الكليم عليه السلام إلى الحَضَر لأجل العلم

- ٦٩ - تقديم النَّبِيِّ ﷺ لحامل العلم والقرآن على غيره
- ٧٠ - أهل العلم قلوبهم أوعية للوحي
- ٧٠ - أهل العلم هم أهل الخشية والعقل عن الله
- ٧١ - قرن الله تعالى شهادة أهل العلم بشهادته
- ٧٢ - شهادة أهل العلم على غيرهم يوم الحشر
- ٧٣ - فضل العالم على العابد
- ٧٥ - موت العالم ليس كموت غيره
- ٧٦ - العلماء مثل النُّجوم والسُّهَب
- ٧٧ - كثرة فضائل أهل العلم

نبذة في وصية طالب العلم

- ٧٩ - تجتنب الصَّوارف
- ٨٠ - تقديس العلم ومعرفة حُرْمَتِهِ
- ٨١ - بذل الجهد في طلب العلم بعزم قوي
- ٨٢ - بذل العلم وتقديم النَّصيحة
- ٨٤ - احترام المعلِّم والشيخ
- ٨٥ - الحفاوة والترَّحيب بطالب العلم
- ٨٦ - وصية رسول الله ﷺ بطالب العلم
- ٨٧ - إخلاص النِّية في طلب العلم
- ٨٩ - خسران صفقة من طلب العلم لغير الله
- ٩٠ - سوء عاقبة من طلب العلم للدُّنيا
- ٩١ - الآيات الواردة في ذلك
- ٩٣ - ترك ممارسة السُّفهاء ومباهاة أهل العلم

- ٩٣ - التَّحْذِيرُ مِنْ دَاءِ الْعُجْبِ
- ٩٥ - التَّدرِجُ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ
- ٩٨ - تَقْدِيمُ النَّصِّ عَلَى الرَّأْيِ فِي الدِّينِ
- ٩٩ - تَقْدِيمُ عُلُومِ الدِّينِ عَلَى غَيْرِهَا
- ١٠٠ - أَعْظَمُ الْمَصَائِبِ الْمَصِيبَةُ فِي الدِّينِ
- ١٠١ - التَّمَسُّكُ بِالْعَتِيقِ
- ١٠٢ - الْعِلْمُ هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ
- ١٠٣ - عَقُوبَةُ مَنْ كَتَمَ الْعِلْمَ
- ١٠٤ - صَوْنُ الْعِلْمِ لَيْسَ كَتَمًا لَهُ
- ١٠٥ - ثَمَرَةُ الْعِلْمِ الْعَمَلُ
- ١٠٦ - التَّحْذِيرُ مِنْ عَدَمِ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ
- ١٠٨ - أَقْوَالُ بَعْضِ السَّلَفِ فِي الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ
- ١٠٩ - الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَكُونُ بِالتَّيْيَانِ وَالْحُكْمِ
- ١٠٩ - الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ
- ١١١ - فَضْلُ مَنْ كَانَ سَبَبًا فِي هِدَايَةِ النَّاسِ
- ١١٢ - سُلُوكُ الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلِزُومِ الْإِسْتِقَامَةِ

الْوَصِيَّةُ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

- ١١٣ - تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّرْتِيلِ
- ١١٦ - أَفْضَلُ الْأَوْقَاتِ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ
- ١١٦ - الْعَمَلُ بِالْقُرْآنِ وَتَحْكِيمُهُ
- ١١٧ - التَّحْذِيرُ مِنَ الْخَوْضِ فِي الْقُرْآنِ بِالرَّأْيِ الْمَجْرَدِ
- ١١٨ - رَدُّ الْمُتَشَابِهِ إِلَى الْمَحْكَمِ

- التَّحْذِيرُ مِنَ الْمَرَاءِ فِي الْقُرْآنِ ١٢٠
- امْتِثَالُ أَوْامِرِ الْقُرْآنِ وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ ١٢١
- الْمُتَشَابَهُ فِي الْقُرْآنِ ١٢٢
- التَّحْذِيرُ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْبَدْعِ وَالضَّلَالِ ١٢٣
- قَارِئُ الْقُرْآنِ كَأَنَّمَا خَاطَبَ الرَّحْمَنَ ١٢٥
- مِنْ أَوْصَافِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ١٢٥
- الْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ الْعَامِلِينَ بِهِ ١٢٨
- وَعْدٌ مِنَ أَقَامِ الْقُرْآنَ وَوَعِيدٌ مِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ١٣٠
- فَضْلُ سُورَتِي الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ ١٣١
- الْقُرْآنُ مُعْجَزَةٌ دَائِمَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ ١٣٤
- قَارِئُ الْقُرْآنِ لَا يَسْأَمُ مِنْ كَثْرَةِ تَرَدَادِهِ ١٣٥
- الْقُرْآنُ مُهِيمٌ ١٣٦
- الْقُرْآنُ فِيهِ بَيَانُ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ وَأَخْبَارُ الْمَاضِينَ ١٣٨
- الْقُرْآنُ فِيهِ شَرْحٌ لِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْوَاضِحَةِ الْمَيَسَّرَةِ ١٤٠
- الْقُرْآنُ يَهْدِي إِلَى كُلِّ صِلَاحٍ وَيُزْجِرُ عَنْ كُلِّ فِسَادٍ ١٤٠
- لَا يَغْنِي عَنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ النَّظْمُ الْأَرْضِيَّةُ ١٤٣
- كَلَامٌ عَظِيمٌ الْفَائِدَةُ لِابْنِ الْقَيِّمِ فِي الْإِسْتِغْنَاءِ بِالشَّرِيعَةِ عَنْ غَيْرِهَا ١٤٣
- أَخْبَارُ الْقُرْآنِ وَأَمْثَالُهُ فِيهَا الْعِظَةُ وَالْإِعْتِبَارُ ١٤٥
- الْجَنُّ الَّذِينَ سَمِعُوا الْقُرْآنَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ١٤٦
- إِعْجَازُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ١٤٨
- خِيبةٌ وَعَجْزٌ مِنْ أَرَادَ مُعَارَضَةَ الْقُرْآنِ ١٤٨
- تَحْدِي الْقُرْآنِ لِأَهْلِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ مِنَ الْعَرَبِ ١٥١
- عَجْزُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ الْقُرْآنِ ١٥٢

- القرآن كلام الله المنزّل على قلب محمّد ﷺ ١٥٤

الوصيّة بالسُّنة

- تحقّق النجاة لمن تمسك بالسُّنة ١٥٦

- لزوم أهل العلم والأخذ عن الأكابر ١٥٨

- السير على منهاجهم وترسم خطاهم ١٥٩

- الأصل في حملة العلم العدالة ١٥٩

- سمات أهل العلم وعلاماتهم ١٦٢

- أهل العلم هم حماة الدّين ١٦٣

- أهل العلم لا يغيب نورهم ويبقى ذكّهم ١٦٤

- رفعة مقام أهل العلم ١٦٦

- أهل العلم يحيون السُّنة ١٦٧

- أهل العلم يروون السُّنة ويذبّون عن الشّريعة ١٦٨

- صيانة أهل العلم للرّواية ١٦٩

- أهل العلم لم يشغلهم عنه شاغل ١٧١

- نيل المجد بالعلم والعمل ١٧٢

- الأمن والنّور والفوز والبشرى لأهل العلم والعمل ١٧٣

- لزوم التّقوى لنيل المجد والرفعة ١٧٤

- العكوف على السُّنة والمداومة على حفظها وفهمها ١٧٥

- الحثُّ على قراءة كتاب في علم مصطلح الحديث ١٧٥

- السُّنة هي المحبّة والحنيفيّة السّميحة ١٧٧

- السُّنة وحي كالقرآن ١٧٧

- السُّنة خير الكلام ١٧٨

- السُّنَّةُ بيانٌ للقرآن..... ١٧٩.
- تحكيم السُّنَّةِ مع الرِّضا والانقياد..... ١٧٩.
- العُصُّ على السُّنَّةِ واجتناب كلِّ بدعة..... ١٨٠.

فصل في الفرائض والآلة والتَّحذير من العلوم المبتدعة

- تعريف علم الفرائض..... ١٨٢.
- ضرورة الاعتناء بعلم الفرائض..... ١٨٢.
- من فضل الفرائض تولى الله قسمتها..... ١٨٣.
- من أصول علم الفرائض..... ١٨٤.
- المراد بالكلالة..... ١٨٥.
- الحثُّ على تعلُّم علوم الآلة..... ١٨٦.
- التَّحذير من علم الكلام..... ١٨٧.
- علم الكلام قاموس فلسفة ومفتاح زندقة..... ١٨٨.
- أهل الكلام يقصدون تعطيل أحكام الله بقوانينهم..... ١٨٨.
- أهل الكلام يقدِّمون العقل على الوحي..... ١٨٩.
- أهل الكلام يحرفون القرآن عن مواضعه..... ١٩٠.
- أهل الكلام يردُّون أخبار الآحاد..... ١٩١.
- تحذير السَّلف من علم الكلام..... ١٩٣.
- تحديد معنى علم الكلام الَّذي ذمَّه السَّلف..... ١٩٣.
- من الوجوه الدَّالة على بطلان علم الكلام..... ١٩٣.
- نقول عن علماء السَّلف في ذمِّ علم الكلام..... ١٩٤.
- شهادة أئمَّة المتكلِّمين على أنفسهم بالخيبة والشَّك..... ١٩٥.
- التَّحذير من الكهانة والتَّنْجيم..... ١٩٧.

- ٢٠٠..... - الجنُّ لا تعلم الغيب
- ٢٠١..... - فوائد النُّجوم
- ٢٠٣..... - من تأوَّل في النُّجوم غير ما خُلقت له فهو الكذوب
- ٢٠٤..... - المنجَّمون مثلهم مثل عبَّاد الهياكل
- ٢٠٦..... - من تحرَّصات المنجِّمين
- ٢٠٧..... - التَّحذير من المجلَّات الفاسدة
- ٢٠٧..... - التَّحذير من وسائل الفتن المعاصرة
- ٢٠٨..... - المفاصد الَّتِي تدعو إليها هذه المجلَّات
- ٢١٠..... . الدَّعوة إلى نبذ الهدى والدين والعلم والعقل
- ٢١١..... . الدَّعوة إلى الرُّكون إلى الدُّنيا وزخارفها
- ٢١٢..... . الدَّعوة إلى التَّهتُّك والخلاعة
- ٢١٣..... . الدَّعوة إلى الاعتماد على الأسباب دون المسبِّب
- ٢١٤..... . الدَّعوة إلى الكفر بأصول الإيمان الستة
- ٢١٥..... . الدَّعوة إلى اعتقاد أنَّ الطَّبيعة ليس لها خالق مدبِّر
- ٢١٧..... - تسمية هذا الكفر والباطل بالعلم الجديد
- ٢١٨..... - الكفر الجديد هو كفر قديم في صور جديدة
- ٢١٩..... - محاولة بعضهم جمع الباطل مع الإسلام
- ٢٢٠..... - خلاصة ما تروَّج له هذه المجلَّات

خاتمة في تحصيل ثمرات العلم النَّافعة واجتناء قطوفه الدَّانية

- ٢٢٤..... - ليس العلم مجرَّد مظاهر وشهادات مزخرفة
- ٢٢٤..... - العلم النَّافع الحقيقي هو خشية الله في السرِّ والعلن
- ٢٢٥..... - الدَّعوة إلى العلم بالله ومعرفته

- معرفة حق الله عليك والقيام بموجبه ولزوم منهج الحق..... ٢٢٨
- الشقاء والسعادة والإضلال والهداية كلها بيد الله..... ٢٢٩
- الوحي والتشريع بيد الله..... ٢٣١
- الله يحب البر والإحسان ويكره العصيان وفعل المحرمات..... ٢٣١
- العمل مع الوجل..... ٢٣٣
- الاستمرار في العمل..... ٢٣٣
- لا يُظنُّ بالله إلاَّ خيرًا..... ٢٣٤
- الانقياد للشرع والتسليم للقضاء..... ٢٣٤
- ذمُّ الخصومة في الدين..... ٢٣٤
- الإيمان بالقدر..... ٢٣٥
- الجمع بين العبادة والاستعانة..... ٢٣٦
- الأخذ بالأسباب، وأقسام النَّاس في هذا الباب..... ٢٣٧
- من الأخطاء الشائعة الدَّعوة إلى الثقة بالنفس..... ٢٣٩
- وزن جميع الأعمال بالشرع..... ٢٣٩
- الحثُّ على الإخلاص والصدق وإصابة الشَّئنة وهضم النفس..... ٢٤٠
- التحذير من العُجب..... ٢٤٢
- اجتناب النَّواهي والمبادرة إلى التَّوبة عند الزَّلَل مع النَّدم..... ٢٤٥
- محاسبة النَّفس في باب الأوامر والنَّواهي..... ٢٤٥
- من زكت نفسه فليحمد الله..... ٢٤٧
- من عصت نفسه فليعصها..... ٢٤٩
- الاعتبار بالعواقب المخزية للمسيئين..... ٢٥٠
- الحثُّ على لزوم صفات المتقين..... ٢٥٠
- لزوم الطَّاعة مع الخوف والرَّجاء..... ٢٥١

- ٢٥٢..... - الرَّجاءُ المشروع
- ٢٥٣..... - الخوف المشروع
- ٢٥٣..... - الوسطية دون إفراط أو تفريط
- ٢٥٤..... - الوصية بالسداد والمقاربة والقصد
- ٢٥٦..... - كلام ابن رجب في معنى قوله ﷺ: «سددوا وقاربوا وأبشروا»
- ٢٥٧..... - التحذير من مسلكي: الكسول والملول
- ٢٥٩..... - المداومة على الباقيات الصالحات والحوقة
- ٢٦١..... - التضرع إلى الله بالدعاء وسؤال التوفيق
- ٢٦٢..... - بعض الأدعية العظيمة في ختام المنظومة